(ماركوس)
حين ينكسرُ القلب

رواية

اسم الكتاب: (ماركوس) حين ينكسرُ القلب
اسم المؤلف: أحلام حسين غانم
التصنيف: رواية
الحجم: 14 - 20
عدد الصفحات: : 246
سنة الإصدر: 2024
رقم الإيداع: 26864 / 2024
الترقيم الدولي: 9 – 009 – 971 – 977 - 978
تدقيق لغوي: أحلام حسين غانم
تصميم غلاف: ســارة أحمد
تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب

الناشر
ديوان العرب للنشر والتوزيع

إميلات الدار
dewanalarabegypt@gmail.com
dewanelarab1978@gmail.com

(ماركوس)

حين ينكسرُ القلب

رواية

أحلام حسين غانم

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
حقوق حلمك

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

إهداء

إلى حَواسِّي المُنصهِرة في حاسَّةٍ واحِدَة..
إلى سيِّدةٍ في الماء تُحصي رُكامَها ..وتروي – كَما تروي الشموس- مَقامَها..
إلى أولئك الذين كانوا هنا لكنّهم أفَلوا - مثلَ الأهلةِ- بعدما اكتملوا..
إلى من وهب لي قوّة المَلَكة في السكون والحركة ..
إلى من زرع بالقلب ألفَ سُنبُلةٍ، وفجّر ألف نبعٍ كي يضيفَ إلى الأنوثة ألفَ بوصلة وبوصلة ..
إلى أنثى يمَّمتْ آهاتها برماد "يا ليتَ"..
إلى هؤلاء الجياع جميعًا الذين يبخرون شفاههم صباح مساء بنور الله (وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)..

أحلام

****

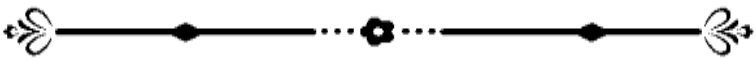

بسم اللّه الرحمن الرحيم

" وما توفيقي إلا باللّه عليه توكلت وإليه أنيب "

قال اللّه تعالى

{ إِنَّ اللّـهَ لا يُغَيِّـرُ مَـا بِقَـوْمٍ حَتّـى يُـغَيِّـرُوا مَـا بِـأَنْـفُسِـهِمْ }

سورة الرعد . الآيـة : ١١

كُلّ حرفٍ وأنتَ أنتَ الهدايةْ

ليسَ باللفظِ أستهلُّ الحكايةْ

راودتْني الحروفُ، كيفَ أراها

أوَّلَ الخلقِ واحتضارَ الغوايةْ؟

كُنْ كما أنتَ، كُنْ كملحٍ ببحرٍ

فالنهاياتُ كوثرٌ للبدايةْ

أحلام

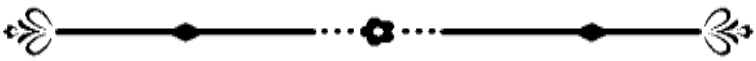

" اذهب حيثما شئت فإذا وجدت بأن روحك غريبة عنك فاعلم أن لا بيت لك في هذا العالم الذي تعيش فيه ."

- كريشنا مورتي- الفيلسوف الهندي

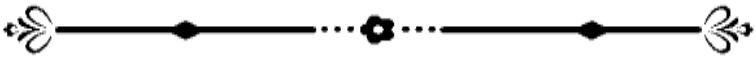

توطئة

يقول فرويد :"إن الشعراء والروائيين هم أعز حلفائنا وينبغي أن نقدر شهادتهم أحسن تقدير لأنهم يعرفون أشياء بين السماء والأرض لم تتمكن بعد حكمتنا المدرسية من الحلم بها، فهم في معرفة النفس شيوخنا، نحن الناس العاديون، لأنهم يرّتوون من منابع لم يتمكن العلم بعد من بلوغها".

"القديم ينهار، والجديد لم يولد بعد، وفي هذه الأثناء تكثر الوحوش الضارية"

(المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي)

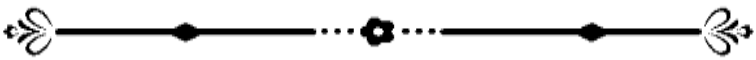

على سبيل التَّخفِّي

"حاول أن تخفي نقطة ضعفك قدر ما استطعت .. هي ليست نقطة ؛ هي أشبه بثقب أو نفق يقود العالم للعبث بداخلك ."

- تولستوي

الفصل الأول

المنطق يشكو قوانينه

من أين لي أن أبتدئ سفري؟

أضبِطُ تَدرُّجاتِ الضوء والظلّ في لوحة يرسمها اثنان ؛ جلّنار والبحر ..لا شيء يمكن أن يكون مُوائماً لظلّي كظلّي.. لكنْ ما أثقلَ حركة الظلّ حينما يتخلّى الظلّ عن أزرار عفَّته، وتصبح الشفاه من سيليكون ..!

في البياض البعيد مارستُ اللاشيء وقبضت على البعد المفقود .. كأنني مكثتُ على رصيف المتاهة ؛ كأنّني، كنت قد قُدِدتُ من هذا المفقود، أطلَلتُ برأسي خارج نافذة الزمن، أتساءلُ كيف أشكّلُ من غواية الطين جسر الكلام ..؟

كل شيءٍ بدأ ما بين الانقلاب الشمسي، قد قلب كلّ شيء في العالم، وأصبح الإنسان تحت رحمة حصار متنوّع طال حتى أحلامه وأنفاسه ..

إنه عصرٌ غريبٌ لا تسيطرُ فيه سوى الزواحف والعناكب وأبناء آوى؛ فقَبلَ هذا الانقلاب لم أكن أقحمُ نفسي في معركة الحقيقة ضدَّ الزَّيف الذي أصبح مرتعًا لكلِّ أنواع الظواهرِ السلبية والمَرضية في كوكبنا الدائر حول الشمس.. بأي معرفة أستقرِئُ لعنات البيوت وبركاتها، توجهاتها

الشمسية وتقلّباتها النفسيّة لمعرفة خباياها.. ماذا سيحدث لو توقفتِ الأرض عن الدوران ..؟

تمتلئ الحكاية بالأسئلة الحارقة التي تشكُّ في كلّ شيء، سواءً أكان محسوساً أو متخيلاً، ولا تقترح سيّدة الحزن أية إجابات وإنّما تتجلّى بترك الأسئلة تتساقط في الصفحات أو ما بين السطور حيث يتلهى البطل عنها وعن وطأة وجوده.

في التلاطُمِ الغاضب للمدِّ والجَزر –كنتُ – أنا – أكثر براءةً من عقول الأطفال، بينما هي مكثتْ فوق جذوع العطش، ووجهُها يبتلُّ دهشةً، وأخذتْ تنسجُ ما روى الخيالُ لها ..

تتسلَّل من ضجيج العتاب، وتتجرّع الحلم كأساً فارغاً، تسرقُ خيبة التائهين بزمن السيليكون، تمشي نحو دروب الوهم، وتضيء فانوس الحكاية بحروف من غواية.

حينَ تنطفئُ عينُ الجسد؛ لم يَعُدْ لديها طريقٌ سِواه، وبشفاه تحلم بها القبلات، كانت هذه الأشواقُ تضيءُ زوايا ذاكرتها، فأخذت تطوي المسافة بحرفين، وترتقي فوق مراسي اليقين لترى ؛ وخيوطُ الشّكِّ تتمارى قاب برزخين أو أدنى..

وهي تسعى جاهدة لتحافظ على تماسكها في عالمٍ سيطرت عليه الماديات بشك فج فحولت علاقاته إلى صلاتٍ تطبعها الانتهازية والقهر والحقد..

ولأننا ننتمي إلى الحب، تحدونا في اللاوعي البعيد رغبة ملحة أن نمد في النور يدًا وعقلاً وأذنًا لنلاقي من يتقاسم معنا كل بداهات الصدق والصفاء الإنساني ..

ها قدْ وضعت يدها فوق قلبها، فشعرت بجرحها العميق ، وأخذت تحاول الرقص على هَسِيس الشَّكّ الذي لا يُفْهَمُ و في شفتيها تمائم لأنثى لا تغيب الشمسُ في ملامحها، قد تشبه شفاه الجلّنار، وهي تحرقُ البخُور على وجنتيها لتمزج مع الدموع شرابًا للحُبِّ.

و في ليلة ضربت الريح فيها المواعيد، حيثُ كلُّ شيءٍ يُهدْهِدُ، يُبهرُ، حيث تجد الروح في كُلِّ زهرةٍ ما تَصنعُ بهِ عسَلها .. كان ذلك أمس، حين حاولتُ رصْدَ هذه السيدة التي كان أقحوانٌ يبكي على صدرها، توالى الرَّصْدُ رغم أني أجهل ما المقبلُ من هذا القهر العائم في الأعين؟

ماهي الرغبات التي تنازعها، أين ومتى وكيف و عسى ولو، ربّما يمكن لهذه الأسئلة أن تسبب المتاعب في حضرة شفاه ترتجف من حُبٍّ يمضي مرّةً أخرى ليُضيءَ في مكانٍ آخر .. ؟!

عجباً أراني لا أطيق الشفاه المنتفخة، ولا أطيق الأرصفة أو الأجوبة التي يمكن لها أن تسحبني إلى دهاليز معتمة مثل ديناميت ثقيل قبل أن أبدأ .

إذن ليَصمُتَ العالمُ للحظة على الأقلّ كي تظل الأجوبة كامنة من بداياتها وراء حدود العقل اليقظ، فربّما أضيف للحظة البوح المشتعلة في نفسي الآن بصيصاً أكثر من السكون الثابت في هذا البياض المُتَّقِد .

كان القلبُ يرى ما لا يُرى، لذلك لم أكن أريد الذهاب إلى هناك، ومواجهة عينيها الممتلئتين بالصور المتحركة، كان عليَّ بشيء من الخفّة أن أكسّرَ كلّ الأقفال، إذ.. ليس للمنطق عقلٌ تفكر به وعلى الرصيف تختلف الآراء والنقاشات.

كأني الضوءُ المُبتلُّ، اخترقتُ موشورَ الألوانِ، فتضيق مَجَسَّاتي.. أتيه مع الرؤيا ؛ يُحاصرني في الغفلة الكلام، أقومُ من كابوسي غير المستساغ بلا لسان، الحياة قلقة أمامي، تمشي حاملة مصباحها الدُّرّي، وأتقدم مُديرةً رأسي في طريقٍ مظلّلٍ طويل ؛ أمضغ ذاكرتي مثلما تمضغ الغانية عِلكتها وأبصقها كما تبصق على حظها ..

تتزايد حركتي كطفلٍ مصابٍ بفرط النشاط ؛ تتداعى أمامي أمُّ الأحزانِ السَّبعة، فيعيدُ العشقُ تكويرَالمسافة بين ما تكسّر من آهاتِ القلب وصدى مساقط الموت الذي ابتلعَ نصفَ هذا الكوكب.

كالأيائل المتشردة أركض نحو السراب لأنجوَ من قيود الواقع؛ أتأرجح بزمانٍ ومكانٍ، أناجي الروح في مساحاتها الخالية والعطشى، وأسلِّمُ أقداري للخيوط الحريرية التي تشكّلت فيه خريطة الروح سورية؛ وربيعه الدائم، هو مكان في أي مكان وفي غير مكان، هو زمان اتحدت فيه كل الأزمان، إنَّ الواقعَ أكثرُ إيلامًا إذ يتبدَّى بين خطوط الطول ودوائر العرض المكلَّلة بالدموع..

يمَّمتُ شفاهي بتُراب الحَيرةِ ريثما أمضي إلى عالم اللاوجود، بين استقالة العقل والبحث عن أمانٍ مزيفٍ؛ تسارعت عقارب الساعة عكسَ نبضات الزمن .. فنطق اللسان كلاماً فيه من المنطق ما يجعل المنطق يشكو قوانينه ؛ لكنه يبحثُ عن لغةٍ تليق بالمشهد:

على قلقٍ سقطتْ كلمةُ حُبٍّ من فم تلك المرأة، وفي لحظة عابرة شبيهة بالحلم، هدهدها العطش وظمأ الشفاه، تلمّستْ شفاهها، أطبقتْ جفنًا على جفن، تجولتْ عيناها في كُلِّ أرجاء المعمورة، تقادحتْ عيناها كشعلة أوقدت فوق حُبِّها المَدفُون ..وكلّ عذابها يتمثّل في كونها أضاعته دون أن تمنحه لمن يستحق.

بين الشفاه والشفاه فواصلٌ ونقاطٌ و علاماتُ تعجُّبٍ وحنينٍ سيجعلُ الزَّمنُ القلوبَ تُزهِر.. لينتهي عمرٌ ويبدأ عمر ؛ إذ تَعَضُّ يديها قبالةَ جرحٍ مثيرٍ، وتلتقط النغم من كوّة الأشياء الحَالكة ..

سأكون كاذبةً إنْ قلتُ: أنَّ الكاف واللام ضاعا في حساسية الجرح المفتوح على فضاءات غير مدركةٍ حتَّى حِين؛ وأنَّ الأسماءَ والأحداث والشخصيات سوف تمضي إلى مئات النهايات وتوحّد الاتجاهات من حينٍ إلى حين .

حان الأمرُ لأخلق المعنى من الضمير المستتر الذي ليس له صورة في اللفظ، لكني أستشعره في المعنى ، وأجعل من اللا قيمة، قيمة مضافة إلى الغاية المقدّسة التي تعبّر عن عقل الإنسان المتطلع إلى عالم الروحانيّة

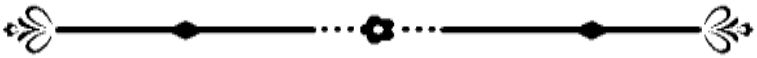

والغيب، وضميره الممتلئ بالفضيلة وحب الخير وأسمى مساعيه تلك الشِّفاه وهي تُصلِّي للحُبِّ .

آلهة مجهولة تسرد زلاتي و ثمَّة كلام يخرج من الشِّفاه مُعطَّرًا بماء الروح ؛ سأبذلُ ما استطعتُ من جهد لأغوص في كل صورة حتى يولد في داخلي شعورٌ يدفعني للسفر نحو الحقيقة ..

لم يكن ينتابُني أيُّ شعور بالخطيئة، كنتُ متمددةً مستندةً إلى أحد مرفقيَّ وأحدّق عبر الفراغ إلى أفكاري، و وسَطَ عراكٍ أعمى بلا رحمة، في فظاعةِ الاغترابِ كُلِّهِ، قد استدعاني اشتياقٌ قويٌّ في داخلي، ورغبة في شيء لم يكن بمقدوري أن أسمّيه، لكن المرايا تعكس ما أراه وما أحسُّ به..

كنت أرى ذلك ينمو داخلي مثل حجر الكَهرمان ..فقد كان ثمّة قدر عظيم من الحسم، اتخذت قراراً بشأنه، وكأني أمسك المسافات نفسها في راحة يدي.

أشعلتُ حجر الكهرمان بالإحساس، فلن يخيّب آمالي التواءُ الظنون، ولم تعد تخيفني المسافات، للخبز أشدو، لعلَّ القمحَ يلتفتُ إليَّ وأنا أطير كنحلةٍ بين الفيافي حيناً وطوراً كالسنابل أسجد لأقبل التراب الذي سأعود إليه .

ما الَّذي أعرِفُه ؟كيف أريد أن أتجول في الدنيا مرهقةً والأرض تدور على إيقاع الدم والروح، كالجلد لها مسامات تتوسع وتضيق، والوحش يسير على مسرح الدمى باحتراس متقن؟

إنها ظلال الأواني المستطرقة، يا لها من طبيعة ساحرة التكوين، إذ هاماتها أساطير مخيفة تدق مسامير الخطيئة بأطرافنا، ولكن من إذن سيرفعنا من الهاوية ؟

أرجَحَ النظرُ يميني، وأرجحتِ العصفورةُ الصغيرةُ يساري، وتنقلتُ على غصن أحلامٍ يحمل حكايات الجوع العتيقة و فهرس الأشواك الذي مكّنني أن أصنع الجمال حتى من الحجارة التي توضع لي كعثرة في الطريق ..

سأكلّم الطير بلسانه، وأتبرّج بالمعرفة، رغم أنني أعلم إنَّ الرجل وطن لا يحتمل جمال امرأة تجيد قراءة الكتب، لذلك الحلم كبير، وأعيننا صغيرة فكيف يمكن للمرء أن يشعر بكل هذا الشوق إلى وطنٍ قسا عليه وحطّم أحلامه..؟

أعرف أن المرء بأصغريه قلبه ولسانه، وإذا حسنت السريرة طهر القلب وعفّ اللسان، وحيثما اتجهتْ موجة القلب كان الشعور ظلّها، لذلك لا أميلُ إلى ما يميل له الآخرون ولا أسير على هوى القطيع .

لكن خارج أسرار المواقيت، اعترفت أنَّ لي حياة أحياها بغير رجل، وخارج المدى كلّما باغتني العطشُ رأيته يغوص في الأعماق ويقايضني بنصف كأس ماء ينسلُّ من عينيه.. العالمُ مليءٌ به، والفراغ في روحي.

في الجانب المنذور للغرق، تخرج من البحر امرأةٌ تومض في الجهات وتمرح كما نجمة البحر، وتغوص بنا إلى كآبةٍ أعمق.. هروب هو أم انتحار

أم انتماء للحب .. للألحان ..للإنسان أو احتجاج أم سؤال وحيد لا ينبِس ببنتِ شفة أم ماذا.. ؟

عيناياَ في التَّعاسةِ تفتحانِ كوَّتَين، عَبرهُما ألمح حياة المُحبّ مثل الشطرنج، تتغير مع كل نقلة، وللحُبِّ نقلات هجومية تثير الشكوك، وأسئلةٌ أخرى قد ندثّرها بأنفسنا عندما تضيق خياراتنا في الحب ..لم يحدث أبدًا أن حبيبًا مَعشوقاً مُحتضرًا فوق حَبيبته، قد شرب كأس النّشوة السَّماويّة من عينين أشدَّ بريقاً من الكهرمان.. لا أحد –على شفاهٍ أروع – قبله ولا بعده.

لتتقن هذه اللعبة، يجب عليك أن تتعلّم النهايات منذ البدء، أما قواعد اللعبة ورموزها وأصولها ، تلعب بها لعباً يشابه لعب المصور الماهر في التقاط اللحظات الأكثر إدهاشاً وإحراجاً في لحظة لا يكاد العقل ينتظرها .

حينما نكونُ كلّ هذا ، فإنَّ هذا التكتيك هو معرفة ماذا يجب أن تفعل عندما يوجد شيء يجب أن تفعله ..عندي من الاستراتيجية ما يكفي لمعرفة ما أفعل عندما لا يكون هناك شيء لأفعله، كي تسري بأوردة المعاني فضة الأقوال، وينبت في مسام الحكاية حقيقة أن نكونَ وألا نَكون .

متى سأستطيعُ أنْ آخُذ طريقَ الحقيقةِ المُربَّع وهل سأموتُ قبل أن أصلَ إلى هُناك..؟

لو كان بإمكاني قبل الرحيل أن أتعلمَ من وحيد وجلنار وفاطمة وأمل وحسام الكثير من مباراة خسروها أكثر من مباراة فازوا بها .

هل يعلم سيف ومنصور و ريتا وليلى وسيلفا و ماركو (ماركوس) ومن يدور في فلكهم سيخسرون المئات من المباريات قبل أن يصبحوا لاعبين محترفين ..؟

لكن في نطاق هذا التصوير الآلي المعقد، أن ترى مشهد الحُمْرة المتبقية من ضوء الشمس من الغروب إلى قُبَيل العِشاء وتتوارى كما توارتِ الشمسُ وراء الشَّفق ..يعني: أنّك تعلمت فنون اللعب في الوقت الضائع ؛فالعاشقُ نفسُهُ يَتفنَّنُ بهذا اليقين.

لكنَّهم لا يستَطِيعون، لأن تنمية لغة اللعبة بإدخال مضامين جديدة فيها،-وكلُّ شيءٍ هنا- يخضع لرقابة الإدارة العليا للعبة في السكون والحركة، وهي رقابة على قدر من القسوة لا يمكن لعقل أن يتصوّر ضخامته .. سعيدٌ من يخرجُ من الرَّقابة مُعطَّرًا بدموعه؛ غير أن من يبتلعها سعيدٌ أكثر: لأنه يمتلك عينين من الزُّرقةِ.

لن نكونَ أبداً بعينٍ واحدة تحت السماء الواسعة والنخلات السعيدة، ولم أكنْ أدركُ أن للحب هذه القسوة إلا بعد أن أصابني دوار العشق؛ لا أحد يعلم بي، ولا أرى أحداً حولي، فقط نجوم السماء تتفحصني، كأنّي في حالة انعدام الوزن ..

هي الحياة تأخذنا في رحلة غريبة، وندرك لكلِّ شيءٍ وجهان متناقضان، فلا ينسجمان معًا، لذلك ما من فراديسٍ أبدًا، ترمي بريق الاستحالة فوراً، ولا مزيد من الانتظار عبر الصِّدف، والحوادث، ومنعطفات القدر، ليس عليّ ان أفعل أي شيء، عليّ فقط أن أنصت، أن أسجل دخولي إلى هذا التقاطع بالذات، تقاطع الزمن والمكان، هناك سأجد اكتمال المعنى، أو سعادتي، أو حلّ اللغز الذي يقتل الجميعُ أنفسَهم عبثاً طوال تلك السنين بحثاً عنه .

أنا قلقةٌ متناثرةٌ في قاموس الوسط البعيد، باحثةٌ عن منابع الفرح في داخل الجرح الذي لا ينتهي، باحثة عن حرّية الحقيقة بين شجاعة الكلمة والعزلة التي تحيل الجسد إلى مومياء أسطورية، أمام صخب الصمت الذي يحدثه البحث والتنقيب عن تغيير ما في سكون العالم .

أنا غارقةٌ في التخمين أبحث عن نفسي فيه، وأقف في حالة اللامبالاة إزاءه، فيأخذ موقفاً لا شعوريًا وكأنه لا يعنيه أبدًا، وهذه اللامبالاة تكون في أعماق اللاشعور أو العقل الباطن، وعلى الرّغم من ذلك ؛أرصّعُ الأسئلة بالأسئلة في خوض هذه الإشكالية، منثنية على حواشي القلق، أتراهُ الغمامُ من يثير شهوةَ الريح أم إنه الموت ليبقى حقيقة كونية مؤلمة كبرى تثير الكثير من التساؤلات.. ؟

بين عقربي ساعةٍ مجنونة، لا تجيدُ إلا اللفَّ والدوران، تعوذتُ ، بصوتها، حتى مادتِ الأرضُ بي، ثمّة قلق كبير، لا يمكنني أن أتحدث عن هذا الأمر

الآن، سأتحدث عندما يكون التحرق إلى تلك الأشياء قد خمد، لأنه يبدو أنني مشطورة إلى نصفين وليس غير نصف مني فقط هنا .

إن النصف الآخر يظهر ويختفي كومض في السماء، يدعوني ويدعوني أن أجيء كي نتحد، إنني أحب .. آه، يا للحب ..!

يحدث الأمر في ساعة كهذه، حيث تُقهر الروح وتعذَّب باسم الحب.. توقفتُ عن الانصات ؛كتمتُ الشفاه كي أبدأ بلقاء من أهوى و صرتُ أغزل تأوهاتي مثل دودة القز ربّما الغزل سيريحني، وربّما أمكنني أن أقوله ثم أنساه ليلة واحدة- أظن هناك أشياء اخرى فيَّ، إنه يجعلني أتغضّن مثل زهرة ياسمين في كومة جمر .. سوف يبحث عنّي وأبحث عنه وراء التلافيف والقيود.. والكتب والمكتبات نوافذ الضوء..

هل ثَمَّ مُتَّسعٌ لقلبٍ ثانٍ ؟

في ذلك البرزخ اللاإنساني، أو الإنساني لست أدري ؛ثَمَّةَ جدولٌ يحرّك الزمن الراكد بشفاه هذا الأديم الأحمر المنقط بنقط سود كشقائق النعمان والمنتشر في شغاف النَّبض بين اليقين والظنّ.

يصعب عليّ أن أقول: أنا الحكاية المتعددة الأوصال و التي تدور حول هذا الكوكب ؛ إذ يمكن لي أن أعْبُر من كلمة إلى كلمة لأني قد ولدتُ من شفقٍ أرجواني ؛ وتعلمتُ المزج بين المُخيَّر والمُسَيَّر، مع هذا لا علامات تدل عليَّ، ربّما لأني لا أستطيع الهروب من الروابط الاجتماعية التي تربطني به.

إني لائقةٌ للسفر، منهمكةٌ في التحرّك في اتجاهات مختلفة، لقد فقدتُ اتجاهاتي في الشؤون العاطفية، قد أنتظر شفاه أخرى للحب ..

اعتليتُ صروح الليل، وكيلةً على خرائب الآلهة الدائرة في متاهاتها، فاركةٌ خيال الصمت بخيال البوح ..

جريتُ في الغواية حتى التُّخُوم، فكنتُ نَبْتَةَ الصّمتِ اليتيمةِ، وكان قرباناً لمثله، بعد أن وضع ما في يديه في يد امرأة تحكي له قصصاً عن سيرةٍ أقسى من الخيالِ الهاربِ في رعشةِ التَّكوين .

لم يترك لي مرسى في خاطر الأيام، كأنَّ حلماً غريباً حين أيقظني .. كصدى الدُّفُوف المنبعث من دار العُرْس .. تجلّى الحبُّ لي وطناً ؛وكي أقنصَ ومضات فرح، منحتُ نفسي فرصةً للهروب من حياة لم تمنحني أيّ إحساس بالسعادة.

قاومتُ عطش الروح، و الفناء والإمحاء، فامتلأتْ حواسّي ومشاعري بحب الحياة، وتنفستُ أكسجين الانطلاق نحو عتبات الذي كان وسيكون .

المثير للدهشة أنني كربيعٍ جديد يحلم ؛ أجلس على حافة النافذة، محاطة بأوراق مبعثرة وأقلام حبر فارغة، ودمىً بأعين مدهشة ؛ لقد تكوَّرتِ الأفكار على نفسها، لم يكن بوسعي أن أركّز نظري على الفضاء، إذ كنت أرفع نظري إلى ما وراء الأفق، قبل أن أفقد توازني ألمح النهار الذي يتناقص في الليل حيث الزجاجُ المكسَّرُ في قلب السماء، وحيث الضياءُ من

الظلِّ؛ أرى ما أرى من تعرّي المشاعرِ وهي تصارعُ ضد ما قد يكون من العري .

آمنتُ كما آمن الكثير من الناس بأن النظام الكوني يحوي نقطةً مثالية يصل فيها الزمن والفضاء إلى اتفاق، بل ولعلّ هذا ما يجعل أولئك الناس يُقبلون على السَّفر، تاركين فَلَذات أكباهم، على أمل أن يعثروا، ولو بمجرد الترحال في أرجاء هذا العالم على نحو فوضوي، من احتمالية مُصادفة هذه النقطة .

هذا ما يجعل المركز مستوراً في الأعماق، والكلمات لن تفي متاهة النفس حقَّها، لكن المعلومة التي أدهشتني أكثر كثيراً من غيرها كانت هذه: "العضلة الأقوى في جسم الإنسان هي اللسان ".. اللسان هو الذي يحمل الحقيقة لذلك لا يخشى شفاه من سليكون ..

مهما استشكل المعنى أعلم أنَّ الحياةَ واعيةٌ بنفسها، وكل جزء من أجزاء الجسد يستحق الاهتمام، لذلك سأصارع الموت، لأنَّ ثمّة أناس أحبّ أن أحيا بقربهم إلى الأبد، ولأنَّ عليَّ أمانات يجب أن أسلّمها لأهلها .

لا يعنيني إن كان للكلام بين السطور معنى، أو لم يكن له معنى، وإن كنت لا أستطيع أن أنسى فسأحاول أن أتناسى .. لأني تعلمتُ إن العالمَ قابلٌ للتوصيف، بل والتأويل ، والتفسير عبر الإجابات البسيطة على الأسئلة الغريبة.. إن العالم في كنهه هامد وميّت، تحكمه قوانين بسيطة نسبيًّا – يلزم تفسيرها وشرحها وتبسيطها للناس .

جهدٌ عقيم، كلامٌ أكبر من قامتي، ضحكتُ كما لم أضحك بحياتي من قبل، وأخذت أقول بصوت مرتفع :إن الطريقة الوحيدة للبقاء في زمن السليكون الممتد إلى اللانهاية، هو أن تحافظ على مسافة معقولة مثل المسافة بينك وبين ظلك .. عندها أطلقتُ كلّ مفاتني في الريح فلا أرغب بعتاب الماضي، لكن أفكّر بمواجهة الحاضر المخيف ؛ روحي تمتلئ في الأحلام، وكل الآلام تعجز عن قتل شهيتي للحب .

ثمّة آفاق بعيدة قريبة لا بدّ أن تزار ..امتطيتُ صهوة القدر الجمُوح مؤمنةً أنَّ الحبَّ وطنٌ بغير تأشيرة، ومتى ما طلبتُ منه التأشيرة فليس وطنًا؛ فكل الجهات معتمة والأرض أم شقيّة غير متهيئةٍ لمواجهة المستقبل الذي يلوح بناظريه..

تمر بي الليالي وهي سكرى، فالحب هو المكان الذي لا حدود له، و الشيء الجوهري في القلب هو ما لا يمكن حفظه إلا في القلب ؛ وبما أنَّ الحياة لا تعبأ بالضعيف، ولا تلوي رقبتها على المتهاون ؛ تناولتُ على عجلٍ إكسير الصمود وتجرّدتُ من كُلِّ معجم الضعفاء.. في تلك اللحظة شعرتُ قوة هذا الكوكب تسكن بين أصابعي .

لستُ صريحةً بما يكفي حتى أقول: اشتهيت الطيران اشتهاءً عاجزاً، كطائر فقد جناحيه، و لم أصرّح لأعبّر عن اشتهائي المجنون، أو حتى أوزّع الورود الحمراء على الحالمين؛ أو لأخيط ثوب الأرض بإبْرَةِ

مِغْنَطِيسيَّة والتي تدور على محور دقيق ..لكنني تذكرت عندما قال لي غير مرة: ذهبتُ لكي لا أعود.

- لم تكن التجربة سهلة معي، لكنها كانت ممتعة حدّ الدهشة، كلما انغلقت السبل في الفؤاد، انفتحت في كوّةٍ اخر ى غير مرئية .. لم أنجح بها كما أردتها، لكني سأرويها كما أردت .

وأنا، هنا حينٌ من الدَّهْر، في حلميَ الأعمى أنَّى تواريتُ، انكشفتُ كأنَّني ظلٌّ ثنائيٌّ ولي رأس واحد ..!

حاولتُ من خلاله أن أمحو الحدود الفاصلة بين الواقع والخيال، والرهبة والرغبة وأتأبط المنتهى، وأسير مع الأمنيات، وأجتاز دنيا الهوى والتَّمنّي، وأعْلُو فوق الميول والاتجاهات في بعضِ الأحيانِ.

مِنْ وقتٍ لآخرَ كنتُ أرتشفُ معنىً قصِياً ؛أتخيل الكون معبداً تتسامى فيه الأرواح على مضمارٍ محفوفٍ بالآهات والبقاء فيه للأقوى ..كيف لا ؛و هو مني اليسار قبل اليمين، وقلبي بوصلة رغم السدود ؛أساجله ويساجلني..

أمشي إلى المتاهة لا نجوم تمنحُني نورَها، لا دليل .. السماء تهرِّب ابتسامةً لنجمٍ خجولٍ، و تحفظ شمسُ الأصيلِ تواقيعَ شفاهِهِ جيدًا ما اسمه ..؟

أيرضَى الحُبُّ أن يبقى أسيراً ..؟ أين هو الذي تغنّى بكل تفاصيل حكايتي التي تخبئ في كل زاوية من زواياها رموزاً وألواناً يستحيل فهمها، أو قراءة مدلولاتها ..؟

أين الذي أحبَّ أنثى المواويل حباً عذرياً، و غرس مرفقيه على وسادة الروح وقال لها ما لا يُقال.. ورقصت حوله الأطيار شوقاً فارتسم التعجّب في رؤاه..!؟

كيف يبدو ذلك الشيء الذي يُكسبُني معنى الإنسانية، وأعرف طبعه من ألف عام ؟

اندفعتْ جلّنار وسألت نفسها بنوع من الخفة : من أنا لأعبث مع هذا العاشق والمعشوق و" كل ذي عاهة جبّار"..؟

نهضتْ جلّنار مترنّحةً وهي تردد:

- ما رأيتكَ سراً ولا جَهراً، لكن سمعتُ صداكَ في كل صدى، لا يُمكنُ للحب أن يكونَ هواية، سأتسلّل إلى حفلةٍ تنكريّةٍ بغير قِناع، ورسمتْ قلباً وقارباً لا يجمعُ النقيضين، وأوّل حرف من اسمها واسمه، وفي وسط القلب كتبت إلى الأبد عهداً ووعداً، وطبعتْ حُمْرَة شفتيها على المنديل، و غرزته في بعض فراغات جِذْع شجرة النارنج..

بعد معركةٍ صاخبةٍ في الرأس تجد قلبها منكمشاً على نفسه كزهرةِ أقحوان في كومة قش ؛ورأسها لا يزال يَطُنُّ ، و في بوح عينيها، فيضُ بكاء وذوبُ حنان ..

بين الماضي والحاضر، زمن متغير مسكون بكينونتنا كأنَّه الماءُ بعدَ.. يسري فتبتلُّ منه الرّوحُ؛ كأنّه حلمٌ في عين عاشقةٍ، كأنّه ماءٌ أبيضٌ فاض

من حَلَمَةِ نهدها الورديّ كزهر النارنج، وهي تُثبّتُ الشَّدَّةَ فوق لام الجلّنار لتعبّر عن توترها وانفعالاتها..

حالات شعورية متغيّرة تتخفّى خلف جذعٍ مُتَّشِح، تجسّد كلتا الأنا والروح ؛ لكنها بالتأكيد لن تستطيع أن ترمم صدع الأيام الفاصلة بين ماضٍ جميل وحاضر مهزوم، توقّف قلمها عند تلك الزَّهرة التي تسمى الذَّهب الأبيض في مدينة "نابل" التونسية والبرتقال المُرّ في أماكن أخرى.

على ذلك الطَّرَف، من هذا التَّهد ولد بكامل أناقة النَّدى والصباح هذا العطر، ولكن للنارنج قصة مختلفة وحب أزليّ ازدادت أواصره قوة مع مرور الزمن مع أقدم عاصمة مأهولة ارتبط اسمها دائماً بالأزهار والرياحين ؛ إنها (دمشق)..

إنّ دمشق هي الأكثر دهشة بين كل المدن التي كان النارنج يحتل مكاناً مهماً وموقعاً مميزاً في صحن بيوتاتها، فكانت السهرات و ليالي السَّمر لا تحلو إلا بتنفس عبير أزهار ها وجلسات القهوة والشاي لا تكتمل إلا بظل شجيراتها.. حتى ارتبط النارنج كغيره من الياسمين والوردة الشامية باسم دمشق عبر التاريخ.

لم يهدأ هذا القلب في أيِّ مكان، كما الغريب عاش تمامًا، يعرف تلك الخبايا وما كان طيَّ التراب، وعلى رقيم ما، في فيافي التأمّل ترك هناك في عبق الحكاية سؤالاً وجوديًا معلَّقًا على أجنحة الصدى :- (من أين يأتي العطر ؟!)

قد تكون اليوم على صواب لتجده غداً على خطأ .. للعطر ما للعطر .. وللجذور ما للجذور ..لابدّ من ألمٍ لتتبرعم أغصان الأشجار وتتفتح أزهار الروح ..أكان عليَّ أن أصغي للعطر قبل أن تخطفني الأقاويل..؟

تسيل الأفكارُ على جبينٍ باردٍ، وتنساب دموعٌ عذبةٌ على وجنتيها، ليست بحموضتها المألوفة ما زالتْ تزفّ إلى الطبيعة ذلك الجمال المتفرّد في مفارقة غريبة، يجرّد أحاسيسها تصلّب عنيف عند جلالة الشجرة وهيبة آلهة المطر..

انصرفت – تتأمل نرجسية السحاب في الزهر وتركته كقميصٍ وحيدٍ لها في وطن الحب لا هُوِيَّةٌ فيه.

رفعت نفسها عن الأغصان المتدلية، وانحنت صوب الشجرة الصغيرة، إلا أنها، بدلاً من الوصول إلى الطائر الوحيد، التقطت رسالة أمها الموضوعة إلى جانبها، وهي الرسالة التي جعلت الزهرة الواحدة تتحول في غضون دقائق إلى شيء كان.، هل هو الطمع الذي يُمزّقُ التَّفسَ والروح..؟

سبق لوالدتها أن أعطتها الرسالة منذ شهر، في اليوم الذي سبق سفرها ، وطلبت من أختها ألا تقرأها إلا بحضور أخوتها ..

سمعت أمها الوعد الذي قطعته، فعاد البريق إلى عينيها، واستعاد وجهها الشاحب اخضرار الأمل للحظة، أخذت يد جلّنار بين يديها وقالت :عرفت يا عزيزتي أن بإمكاني الاتكال عليك، اعتني بها، اعتني بها جيدًا، فهي شجرة فريدة من نوعها تملك "تاج الحياء"، وتابعت كلامها: إن هذا

النوع من الأشجار لديه "حياء"... وهذه شجرة العائلة، وأن كل فرد من العائلة عمره الحقيقي مُسجل على جذعها وكلما يبس غصن من أغصانها يستنفذ من عمره سنة فيضطر لزراعة شجرة أخرى باسمه كتعويض عن إهماله للشجرة الأم، أفلا ترين أن أعداء الحياة لم يعودوا يحاربون بالسيف بل بألسن مدببة لاذعة كالمسامير لا تعرف الحياء ويقطعون الأشجار كي يقضوا على نسل البشرية ..

يا إلهي؛ تكلمني أمي وكأن هذه الشجرة شجرة الخلد التي تنمو في جنة عدن، حيث أخبر الله سبحانه وتعالى آدم وحواء أنه لا ينبغي لهم أن يأكلوا فاكهة من شجرة الخلود.

ولأنهم أخطأوا في الأكل من الشجرة، أرسل الله تعالى آدم وحواء إلى الأرض، حيث يجب أن يعيشوا ويتعلموا أن يتوبوا من أخطائهم. لكن الله تعالى يؤكد لهم أنه في الأرض سيكون لهم الهداية..

أظنني أفهم ، إنني آسفة لك يا أمي قد نبهتني، أنَّ شجرة الخلود في القرآن تمثل التوبة والتعلم من الأخطاء ورحمة الله... يا الله: ؟أيتها السماء الأم كم أغبطك ..يا الله يا أمي تعلميني درساً في الحياء والوفاء، في الرحمة والعقاب، وأنت المرأة الأميّة التي لم تعرف يوماً مقعدًا للدراسة، ولكن تشرّبت أخلاق النبلاء..

-مع بسمة خفيفة قالت أمي: لا تفكري بعمق في كلماتي، لأني أنا نفسي غير واثقة منها، تذكري فقط هذه الحكمة أو اللعنة التي حلت فجأة علينا .

- يا إلهي: كيف لشجرة أن تفهم الحياء لترويه بالجمال.. هل الأشجار فعلاً تشعر بالحياء ؟ وهل شجرة المعرفة هي عكازة الخلود؟

وهل تستمد عمرها من عمر الإنسان إذا استغلها وأهمل رعايتها ..؟

لم أعلم بالتحديد أكنتُ أنـا من يسكنُ بداخلِها أم كانت هي من تسكنُ بداخلي؛ ولكني فقط أعلمُ أنها كانت مُبهرة وأنّي شعرت أنّ الشجرة تتحدّث لي عن متاعبها بهذا الزمن الرديء..

اقتربت منها أكثر ليرتجف الرحيق في القلب، وأشعر أني أصبحتُ طائراً بأربع أجنحة، ولست بالطائر الذي يمكنني أن أحبس لساني عندما أكون قد فكرت .

فكل شيء هذا الصباح مثلما كان من قبل في كل صباح، فيما عدا أن كل شيء كان افضل كثيراً في السابق عندما كان والدي على قيد الحياة وكان اهتمامه الأول شجرة النارنج رغم معرفته أنها تتحمل قسوة الطبيعة والمناخ لتنتصر فيها للحب الذي يلخص حالة اللاجدوى واللايقين ولكن برهافة تتجاوز قتامة المشهد الحالي في البلاد.

تبادلنا أطراف الحديث في ساعةِ ظَهيرة مُشمِسة، وجدتني أقتربُ منها خُطوةً فخطوة، وهُناك فقط؛ استطعت الإصغاء لهمسها وإرشادها الغريب،

وتعلمت كيف بأنفاسها البيضاء تهز أغصان الروح فيتكون لدى أزهارها العطر وبه تشكل توازنها وجاذبيتها وكيانها..

استسلمتُ إلى يقين هذا العطر ونسيت توازن أنوثتي في الفضاء الأزرق ؛عبثًا أقنع الروحَ أن تحاور الأشجار المتعالية، تلك الروحُ المتمرّدة التي تحتلني تغدق النهوضَ على أطرافها المبتورة، الروحُ التي تقف في وجه العاصفة وإذ يغتصبها البردُ والثلج.. ربّما تسأل النفس كيف لروح الإنسان أن تُغتصب.. وهل الأرواح تُغتصب كما تُغتصب الأوطان..أم إننا نهذي بالحقيقة..؟

تغتصبُ الرياحُ عذريةَ الشجرِ، ويظلُّ عطرُهُ بوصلةَ الزمنِ، مَنْ يراقبُ الأشجار يلاحظ أنها تترك مسافة بينها لتفادي الأضرار الناتجة عن الرياح، أو لأن جذورها تعد حساسة للضوء فلا تتشابك، فإنها تختبئ في التراب وتمتد عند العطش صوب الماء ..

كيف يمكننا أن نعرف أي نوع من الناس سنعاشر ؟

لابدّ أن نُري أنفسنا من أنفسنا أوّلاً ومن ثمَّ الطّرف الآخر أخيراً، لذلك تعلّمت من الأشجار أن أترك مسافة بين السؤال والجواب، لتفادي الأضرار الناتجة عن الحوار السلبي وكي أضيف أفكار الآخرين إلى أفكاري، ويفهم الآخرون وسع روحي فلا أتشابك معهم مهما اختلفت أفكارهم عني ، فتبدو لي حقائق الحياة التي كانت غائبة عني.

هنا، تلوح في الذاكرة حقيقة الأشياء الأزلية، وليست محضَ إنشاء لوردةٍ عاشقةٍ تلتف بها الأشواك الحاسدة .. كيف اجتمعت الأضدادُ في شجرةٍ واحدةٍ .. وكيف يختلس الليلُ قلبَكَ وتبقى على قيدِ الانتظار.. ؟

- في الحقيقة ما تمنحنا إياه الطبيعة ليس له أيّة علاقة بطباعنا، الأمر لا يحتاج إلّا للمعرفة، معرفة كيف تعمل قوانين الطبيعة ..أعتقد في الطبيعة ثمة مليون غموض، هل هناك من سمع الأصوات التي تبكي في الليل، وصيادي الأرواح الذين يندفعون إلى هناك عند العاصفة..؟

- ينبغي أن أسلك هذه الطريق الآن، قالت أمي :عليَّ الذهاب إلى البيت كي لا أتعرض للسؤال، توقفت قليلاً ونظرت إلى الشجرة، ولكن كانت ساكنة في الظلمة، فملأني خجل وحشي منها ومن نفسي، دون تفكير وبلا سبب ركضت مبتعدة في العتمة لاهثة، وأكاد أن أكون منتحبة تحت أنفاسي، وأنا صاحبة الذهن الذي كان دائمًا ينسلخ عن الواقع، خيالها الذي كان يتعامل بنقاء مع الظواهر الراهنة للأشياء ..

رفعت بصري برجاء عندما دخلت الغرفة، وانطبق فكي مثل صخرة ووقفت العضلات في وجنتي، وفجأة حلّت ومضة غضب في عيني، كنت واثقة كثيراً من أن رأي أمي صحيحاً ، أظنني يجب أن أعلم للاغتصاب معانٍ أخرى، وألا أنسى أنني مسافرة بعيداً، إلى هذا الحد كنت غارقة في أحلام يقظة الماضي المفضي إلى اللايقظة ..

- آه، حسناً يا أماه، كانت تلك نبوءة جيدة، بجودة ما سمعتك تتنبئين.. وبنعومة فائقة ربتت على الوجنة الساكنة القريبة منها بأصابعها الرقيقة وقالت :اصغ إلي ، أكنت خائفة ؟

- لقد ذهبت مثل أشياء الحلم، وأنت لا تدري أين تذهب الأحلام ..وقاطعتني بصوتها الحزين البطيء ماذا نعرف عن المستقبل:

-علينا أن نسأل القمرَ فهو يشهد معظم الليالي راصداً حالاتِ الخوف و الفداء، العشق والخيانة، الحياة والموت .. لذلك، من الغباء أن نستخف بامرأة مصابة في قلبها وهي تحاول عدم إظهار كل ذلك كي لا تخسر من تحب .. وبصوت بالغ الدقة، وكعرّاف يعرف ما وراء الكلام ..

قالت دون أن تبعد نظرها عن الأفق :حسناً ليس عليك إلا أن تراقبين خلية النحل التي تحارب لآخر نحلة وتموت لآخر فرد في حربها مع الزنابير..!

- يا تُرى من علّم النحل الشجاعة والفداء ..؟

- حسنا، أحب كل ذلك، لو أنني استطعت أن أتعلم الشجاعة والفداء وكل الأشغال..

- ليس صعباً كثيرا أ ن نتعلم كل ذلك، لكن علينا أن نتعلم أولاً أن نتحمل أشياء لم يسمع بها الناس أبداً، ذاك هو الأمر الأول .

- إنه قاس للغاية ولكننا لن نتركه ابداً مجرد أن بدأنا به.

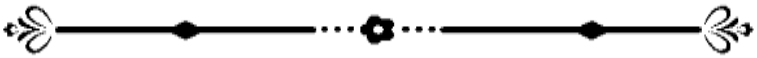

ها أنا أحاول أن آخذ روايتي بعيداً عن العقل والمنطق للوصول إلى حقيقة الأشياء، أريد أن أفكر بفلسفة الطفولة، ولكن بلا جدوى، في كل مرة أجد نفسي أركض وراء ريح الفلسفة المخيفة، أبحر بلا نهاية حول المحيط باحثة عن مرفأ ضائع .

- حسناً لنبحث عن طوق الحياة في دواخلنا قبل أن تبتلعه العتمة، إنهم قد يحرقون سفينة من أجل حبة سعادة مزيفة.. في حين يمكنهم أن يبيعوا السفينة ومن فيها ..

- الأشجار وحدها تعلم تلك الحقيقة المُرّة لأنها ارتوت من تأوهات الأجساد لمّا استبدلت لحاءها بحيائها، ولو أنصتتْ أكثر للأوصال التي تمزّقت تحت جلبابها لهجرت الطيورُ الأغصانَ وأضربتِ الأشجارُ عن العطاء إلى الأبد، وتصلبت الجذور.

إذن الأمر يشبه النظر إلى النار، والشغف يشبه الغرق، والماء يقيم تنويمًا مغناطيسياً في الدماغ، وحين ينطفئ الشّغف يتبدّل الحال، قد لا يرى المرء شيئاً، ومع ذلك لا يستطيع تحريك عينيه إلا بكفاح غير منظور، فلا فائدة من كلام الأوراق حين تصمت الطيور، ولا فائدة من غناء الطيور حين نفقد شهية الحب، ولا فائدة من مفاتيح الجنان إن كنت أسير الروح والجسد.

"أنا أفكر، لذا فأنا موجود" كيف أعود إلى ذاتي بعدما كسروا الأغصان والأزهار، الأيام والأحلام واغتصبوا كل شيء في الجسد واستنفذوا خيرات الوطن وسطحوا الفكر وهمشوا العقلاء..؟!

وحدها شجرة النارنج تنسيني ما حولي و تعيدني من ماء الزهر إلى أرض الواقع فتجعلني أسبق الزمن؛ أعيش عمراً أكبر من عمري الحقيقي .

هي المرة الأولى التي أبتعد فيها عن تلك الشجرة المتوجة بتاج الحَيَاء، فتغدو تلك الذكرى موسيقى تنهمر من زمانٍ ومكان لا وجودَ لغيرِ العصافيرِ تزقزق لحنَ الذي كان وسيكون..

يا شجرةً في الروح قد سكنتْ فيكِ الدنيا ما أجمل عطاياك ؛ هو الذهب الأبيض الذي كسر الصمت بصدى عطره، وشكّل من صداه لوحة تعانق تموجاتِ الوجدان.. هل هو ذلك الندى المنساب من سماء الحب، يتوسد مُدن السحر، كي تتحولَ شجيراتُ القلب إلى قوارير المحبة تمسح أرقَ كل العابرين من ملامح كينونته؟

هل تأملتم هذه الشجرة المباركة ؟

قد وضعتني صديقتي التونسية آمال بين فضائل هذا الفيض المخضلِّ بالروعة، والثروة الحقيقية لهذه الشجرة، حيث أخبرتني :أن مع استقرار حالة وتواصل الأيام المشرقة للربيع تتحول مدينة نابل التونسية إلى ورشة مترامية الأطراف انطلاقاً من الحدائق ووصولاً إلى الشوارع التي تزدان بأشكال متنوعة لتقنيات جمع أزهار النارنج التي ما إن تنضج ويكتحل

زهرها حتى تسارع العائلات النابلية بقطفها وتجميعها قبل أن تتفتح وتفقد قيمتها، وخاصة أن موسم الأزهار لا يتواصل إلا لفترة تتراوح بين ثلاثة وأربعة أسابيع..

إذ يعد زهر النارنج المصدر الرئيسي لزيت "النيرولي" الذي يتم تصديره إلى الأسواق الخارجية ولاسيما إلى مدينة "غراس" الفرنسية ليتم استعماله في تركيب أرق وأفخر أنواع العطور العالمية... هل ضجيج العطر يعيد دوزنة الغياب ويمتص الحزن والخوف لذلك كان له كل هذا الاهتمام والترويج في العالم ..؟

إنَّ كُلَّ من أحبّ العطر يعرف أنه حتى عطر المحبوب يكون مكاناً مسحوراً، معبداً، عطرًا مقدسًا.. في الحب تكف الأشياء أن تكون نفسها.

-انحنت جلّنار صوب العطر قائلة: أنا هنا ؛ ارتدي ثوبًا من الزهر، وأرى من خلاله نجومًا تخيط الجراحات بخيط الشوق، وأجري فوق المتاهات مثل قطار يحدق في الطريق ..

- يمكن أن تكون المسافة بيني وبينك مثل الضوء الخاشع بين العينين، أو مثل الاسم الواحد على الشفتين، موحشة ألوان الضوء، وليس في كُنه الفصول إلا الحواس المتجمّدة، وبمن تستطيع أن تثق أكثر ؟

- ليس لي إلاك ؛ كل ذلك العمر الذي مرّ وأنا أحسب نفسي وحيدةً، لكن العطر أيقظني، من رائحته كنت أعرف أن الشيء المجهول لا يمكن قط

أن يصير الشيء الاعتيادي، الروائح الغير ملموسة يمكن ان تكون أكثر إثارة للناس العارفين من تلك التي يرونها تحت ضوء الشمس.

لم يكن هناك حقاً فسحة لكل شيء، إذ هو رحالة يسكن في الملاحظات والهوامش وثنايا الكتب، ويستضيف بأحاسيسه أسماءَ تمر من الكوكب الدُّرّي الذي لا يعرف الهدوء، تحط رحالها في ظلاله .. هو ؛ ذلك النبض الذي يُمطر عطرًا، فتنبت في الروح أشجارٌ ننسى في عبابها الآمال الغبية.

-عمن تتحدثين يا أمي، إلا أن سؤالها بقي بلا جواب وفي دمعها سؤال: من حذف النقطة من نون الوطن..؟ من سرق حرف الباء من القلب .. وصرنا نسبح في بحر من القلّ أم من الدم ..؟

حرب ضروس نخوضها عن بُعد، ونتلمس شظاياها في يومياتنا متسمّرين أمام الشاشات، كؤوس من الدم تسقينا صباح مساء تلك الصور، في لحظة المشاهدة لا أتخيل آلة التصوير إلا رصاصة مخبأة في شاشاتنا، وتمدّنا هذه الصور ببرقيات توجز حدثاً هائلاً مدمراً، وخرابَ مساكنَ آهلة، وفرار ناجين إلى المجهول ..

هل تركت القنابل والصواريخ ما يمكن أن يدلنا على مرتع الطفولة والصبا، أفلا يمكنك الرؤية، يا جلنار؟

-لقد أوذي الناس كثيراً وجرى اصطيادهم وتعذيبهم من جانب أفكار وبدع لم يفهموها، بحيث صاروا يعتقدون أن كل الأشياء التي تمر

بإدراكهم آثمة وغير إنسانية - اشياء ينبغي أن يسحقها ويدمرها أول عابر .. إنهم فقط يحمون أنفسهم، هكذا، ضد الإيماءات الروحية التي يمكن أن تصيبهم من أشياء صغيرة .

قالت جلنار:

- أدري، أعرف ذلك كله، وأنا لا أصرخ إن مشكلتي الكبرى هي أن ثروتي الوحيدة التي أحملها هي حقيبة هزائم عائلية .

-يا إلهي ما الذي يجعل الأولاد يكبرون ليصيروا رجالاً من سليكون ؟

من يمكنه القول يا بنيتي، إن للشر قوى أعظم من ذلك السليكون؛ من يستطيع أن يشخص حدود قوة الشر، إن التفكير بذلك ينطوي على تدنيس للثالوث المحرم ..!

في كوكب مربوط بالقهر لا سقف له ولا جدران، فتحت جلنار الرسالة وقرأتها ، أحسَّتْ إنها تتنفس زافرةً شعلات كبريتية، وأن الأرض تميد تحت قدميها .

قرأت الرسالة المرّة تلو المرّة وهي تشعر بأن ما بقي لها من قوة يُستنزف منها ..هي بالتأكيد لا تروي شيئاً مشكوكاً، وهكذا كبرت شجرة الحكاية حتى صار الجميع تحتها أنصاف مجانين .

لم تنتبه في ليل الغفلة والكُلُّ نيام، غرقت في لجّةٍ هائلةٍ، كانت كافية لتحرر نفسها من ثقل الرسالة، فكيف تهرب من ظلِّها؟

هكذا تنظر دون أن تحاول أن ترى ، وتسمع دون أن تصغي، مع ذلك لا حقاً - تماماً مثلما يكون ممكناً بعد المرض لشخص ما أن يتذكّر كل شيء كان قد شاهده نصفَ مشاهدةٍ - سيكتشف أنه احتفظ بكل تفاصيل ذلك العبور المذهل الأول.

لم يكن التعبير الوردي على وجهها، ولا مظهر السخرية من نفسها، كافيين لإخفاء ما تحاول البكاء حقيقة لأجله .

لا يحتمل أن يسرد الإنسان المقهور روايات عن الشيء الذي يأكل حشاشة القلب، ربما معظم الأشياء حين تنكسر تصدر صوتاً مزعجاً يسمعه الجميع إلا القلب حين ينكسر يصدر لحنًا يشبه أنين ناي القصب، قد يكون سلسبيل التميز..

توقفت جلّنار ونظرت بحدة إلى مرآة نفسها، تفحّصتِ المياه بعينين مخضّبتين بالدَّهشة والحلم، وراحتْ تمسح نهدها بكفّها لَعَلَّ ينعشَ ماء الزهر ما تبقى من الرّغبة هذا الجزء من جسدها الذي هو أكثر أنوثة، ويعيد تلك الزهرة إلى حيث كانت أوَّل قبلة وكؤوس القربان وحاملات الشموع..

كان ثمة صمت عميق فيما كانت تتلمس ثديها، فالثَّدي هو رمزٌ للأمومة ورمزٌ لجمال الأنثى.. لا توجد حَلَمَات متطابقة كما قال كارل يونج.. فهناك دائرة مظلمة حول الحَلَمَة - هذه هي الهالة.

- الماء يفيض ويطلق العنان للأفكار المبحرة التي ركدت على الأرض كأزهار الملح الجافة .. وأصبحتْ أذني تلتقط صوت الهمس البعيد، وتعيدني للماضي إلى صوت وحيد : تعالي إلى الماء، قال وحيد: أعتقد أنّ هكذا تُغسل خطاياكِ، عليك أن تقفي في ماء الزهر .

- تريدين إذن أن تكوني نظيفة وطاهرة مثل زهرة النارنج أليس كذلك؟

- حسنًا، قلت دون تردد، وابتسمتُ وأنا أبتلع ريقي بصعوبة كابتسامة الفجر الذي عرفته فيه، وأحسست بقشعريرة تنساب في جسدي، بالكاد عرفت ماذا أفعل، أو أقول: ماذا تفعل بامرأة مثل تلك ؟

-لن يكون الأمر طرف حبل كما أظن .. هل أحظى بك..؟

حاول النفاذ من اختراق جدار الصوت، ولكنه تمكن من أداء هزة في الرأس، و أفسح الصخب المجال للصمت ، وخضتُ المستحيل لأروي ظمئي إلى معرفة دليل يوصلني إليه، لكنني دائماً كنتُ أحصد الخيبات، رغم الجهد الذي بذلته في سبيل ذلك .

- قال وحيد: إنْ لن تستلقي في الماء وتدعيني أراكم الزهر فوقكِ ثُمَّ أعطرك في المنتهى، فستكونين مُدانة للأبد . هل تريدين أن تكوني مُدانة إلى الأبد ؟

-هذه هي اللحظة التي عليك فيها أن تقرري ..

استدرت إليه قائلة: لا تعطي الأشياء أكبر من حجمها الطبيعي وتوقف عن كونك مخذولاً.. من منّا لم يتجرّع مرارة الخذلان في كأسٍ مثقوبةٍ..؟

- آه، أكانت قوة عمياء حمقاء كالرأي العام هذه المرة ..!
أنا لا أنتظر أن أجد شيئاً ..أتحاول أن توقعني في شرك إعلان عدم الولاء ؟
-أعرف أن الدنيا لك من قبل ومن بعد ..وماذا يمكنك أن تتوقع من قطيع من الحالمين..
أعترف بذلك، لقد أطلقتني أنت يا وحيدي ..
كان صوته مريراً مثل كلماته ، وقد كان الآن يضغط راحتيه على راحتي فتمتمت بلحظة سلام بعد اهتياج عظيم: بي عطشٌ قديمٌ إلى الماء يعصر أنفاسي، ومن مائي كان الهوى، وكان الجمال، لذلك لم أكبح جماح لهفتي ؛ بعد قيلولة ونصف أطلقت الخيال لها، تليتُ آيات التفاؤل ثم استلقيتُ في الماء .
مضيتُ إلى تلك الرغبات التي تتسلل بين النفس والروح، بين الواقع والمجاز كزهرة نارنج بين شفتين لا مبالية بالأحياء، إنني لا أعرف السر ..كلا لا يمكنني أن أفهم توقي إليه، ولا أصدق أنه يحسّ بالعمق الذي أحسّ به .
كأنّي أنا هنا، زهرة تلو زهرة ترتسم نُقطًا في أعماق الدائرة البيضاء، إنه الآن يتدلّى كغصنٍ، يؤلف وترًا، يتصاعد كمنطادٍ، أعلى فأعلى خلال طبقات من الأوراق بعيدًا عن متناول اليد.
تحت تأثير خديعة الحواس أمضي إلى الوراء ؛ أركب رغوةَ الخيال ؛أرقص بأوتار قلبي فوق هذه الأوراق المتشابهة كما يتراقص الغجر حول النار ..

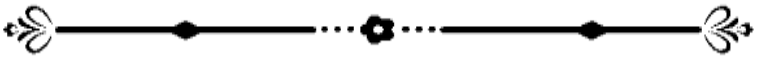

إني أرتبك، أجفل، أرتعش كما يرتعش إبريق الشاي فوق لهيب من الجمر المتوهج في ليل ساحر.. حلّقت في المتعة، سوف أعود للعقل بعد غياب المؤثرات الصوتية ..

إني أتعجب لماذا أقول هذه الأشياء، هل سأخبره ، إنه أروع ممّا رأت عينيّ في أي حين ..أيمكن لجسد صغير نحيل مثلي أن يفكر بأي شيء، لقد أبحر التفكير بي ..

- ما هذه الروح .. كيف يمكنني أن أراود هذا الجمال، وأين هي روحه التي لم أرها، ولم أسمع بها، وإن لم يمكن رؤيتها، أو لمسها، فكيف أعرف أنه كان هنا، ماذا يمكنني أن أعرف عن الحب الذي يستقر دون الرغبة الجسدية ؛ هل الآلهة تعتقل حرّاس السعادة غيرةً ..؟

لست متأكدة ما إذا كانت أحلامي الأولى هي حقا لي، لأني عندما أجلبها إلى ذهني، أشعر بأنفاس وحيد في كل حلم، أتذكر طعم زهر الليمون من قبلتنا، و كنت متأكدة أني كنت محاطة بأذرع قوية في كُلّ مرّة تعثّرت فيها، لأنّي لا أذكر أيّ وقت من مشاعري الأولى كنت فيه خائفة ووحيدة في أعماقي .

كان الرعب ينمو ويتضخم في صدري، وعلى الرّغم من كُلّ هذا الخوف لم أستطع انتزاع هذا النصف الآخر من ذهني وعشت على أمل أن نكتمل معًا..

ثمّة أمر واحد أعرفه، من الأفضل لنا ألا نترك الأمر يأخذ مدى أكبر، وقد ذهبت بالفعل إلى أبعد ممّا ينبغي شيء حياله .،وغازلت خرير الماء المتدفّق من كفّيه، كاسرةً جرّةَ الصمت، وصارخةً بلغة حبه الأبدي ..

يبدو أن الساعات مرّت فوقي مثل غيوم مبحرة بطيئة، بدأتُ أحسّ أني تائهة، يمكنني أن أتنفس وحيد كالهواء، ولا يمسّني أحد.. كان يوماً حزيناً، يوماً من عدم الارتياح، من عدم الرضا، بدا الهواء المتحرك بعذوبة وكأنه يحتفل بفقدان شيء لا أدرك ما هيته .

- حسناً، لن أدع نفسي تنهار أو أفقد ذلك البريق في عينيه ..سأخلع عني سواد الماضي، سأغنّي للحب، الحب يجعل كل امرأة جميلة، وقد يحيل الحمقى إلى حكماء .

- يحدث أحياناً عندما تقترف زلة لسان لا تريد أن تصحّحها أنك تحاول أن تتظاهر أن ما قلته هو ما عانيته، ويصادف غالباً أن ترى أن ثمة بعض الحقيقة في خطئك، وكل واحد يمكن أن يجد نفسه في لحظة حرج .

- آه، إنه البعيد البعيد والقريب القريب ؛ كم يصعب علي أن أصيغ ما أعرفه في كلمات لأن ما يملكه هو، على الأرجح نوع من اليقين لا يمكن التعبير عنه بكلمات، لأنه وهج الكلمات ، إنه حزن بقدر ما هو فرح .

- سأربط أزهار يقيني في شريطة واحدة وأتقدم مبسوطة اليدين لأقدمها – يا إلهي لمن سأقدمها .. ؟

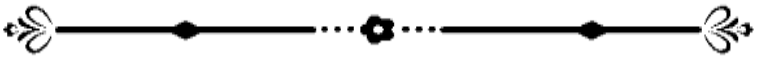

- لا أرى غير أصوات خفية وبعض الأطفال يلعبون :" لقد ربطوا صناديق من الورق المقوى فارغة ليصنعوا منها قطاراً للفرح، وهو الآن يتحرك بحرص إلى الوراء وإلى الأمام، لقد شادوا محطات مملوءة علباً فارغة وعصيّاً، وأنا متأكدة من أنهم سيظلون منشغلين بهذا القطار حتى وقت المغيب ..

- أما أنا فقد استولى عليَّ رعب يتعذر وصفه، فأن أكون محطة لمثل ذاك الفرح الوهمي، احتجت إلى اكتشافه، إلى أن أكون مثله ..

- أردت أن أجد حلاً للغز تخبئه نظرة وحيد للفرح باعتباره أحد ثمار الروح، لأن الفكر المحب لله غارق في الفرح .. شعرت أني أمتلك كنزًا دفينًا في داخله، لم أستطع بلوغه .

لم يكن فصل الربيع بالنسبة إليّ فصل نمو الذات وتفتح براعم الوعي فحسب، بل كان كذلك فصل الخيبة والخسارة الكبرى .. لم أخبر أحد عندما غاب وجه القمر عن المجيء، وكيف طاردتني البدايات الخاطئة، والخسارات المبكرة..

- أذكر جيداً عندما لفظ جلّنار، لفظ الاسم بحنان غريب وقال بلطف: إذا لم تسامحي الناس، فسيدمركِ الحقد، كل الجروح تلتئم بالودّ، يجب أن تحبّي نفسك أوّلاً، وتحبّين الهدف الذي تعيشي لأجله، اجعلي الصبر حليفك ..اتفقنا ؟

- هذا ما قاله وحيد..

- لا أحد يستطيع إدراك معاناة الروح أمام محراب الفرح المخادع، ما من أحد يستطيع ذلك، لذلك فإنّ كلّ ما أقوله لن يعني الكثير، أعرف أنَّ الأمر ليس سيان، لكنني استأت كثيرًا عندما رحل نصفي إلى الملأ الأعلى، لم أعرف كيف أتقبل الأمر.

-عذراً يا حبيبي، لستُ الشخص الذي يستسلم بسرعة، فأعدْ عليَّ ما قلته، فإن لم يصلني صوتك فاعلم بأني قد أصبت بالصمم، و مزَّقتني أصابعُ المِحن .. فأنت فردوسي الأبدي، فقط اقتربْ مني كي تراني من الأعلى، و كي لا يراني أحد بين يديك ..

- بدأتُ أرى أنها طريقة في الحياة كنت أحلم بها منذ بضع سنوات: الرغبة بالتخلّي والتواري والفرار من السوار الذي صنعتُهُ باستسلامي لمشيئة القدر .

يجب أن أعود إلى الوراء، نحن ننحدر من نسلٍ ريفيٍ طيب، مع هذا لم أكن أحب سماع القصص التي رواها جدي عن تلك الفترة من قبل وبعد سنوات **1956**- رغم أنه كان يعاملني كفارسةٍ صغيرةٍ.

لكن كان ثمة شغب صغير من التمرّد في داخلي، ربما كنت قد سمعت جدي يتحدث مرات كثيرة عن فراره من قبضة المستعمر الفرنسي والتركي آنذاك وخوفه من المجهول ..

جدي أحد رجال تلك الفترة التي شهدت بعدها نضوج الوعي القومي، وكان على صلة بالحركة الوطنية وظلّ مناهضاً للقوى الرجعية والاستعمارية كم كان يردد :

- خير للإنسان أن يموت على يد المستعمرين، من أن يتحول إلى أحد العملاء ضد أبناء وطنه، إذ كان يتعامل مع مشاكله في منتهى الروعة، ولا يزعجه أن تكرّر ألف مرة الجواب نفسه عن السؤال نفسه .. وكان يحب إذكاء الحماسة، والمساعدة والمواساة، وتعلّمتُ منه كيف أتفادى نوبات الضعف، التي كانت تنتابني أحياناً كعواصف موسمية .

-أعترف أن قلبي ازداد حجماً حتى غدا كالمنطاد، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الانفجار ..لكنَّ المكان كان لا يتسع لسواه في هذا القلب الهائل والمنتفخ.

لم استطع أن أرى ماذا يمكنني أن أفعل لحماية نفسي من ذاك المجهول؛ أعتقد أنني لم أكن أرى أي شيء من العالم الخارجي سوى عيني وحيد؛ يكفني منه ابتسامة على شفتيه، فثغره هذا لأجله شقِيت عمراً وتغربت دهراً لأطعمه حلالاً طيبًا .. سنوات عدة سرت على هذا الوضع، وحاولت أن أنتشله من أفكاري، بعدما أخفقت في نزع شوكته المغروسة في الفؤاد.

كان لسان حالي يقول: لا يمكن أن ندير ظهرنا لحبّنا، ما الفائدة من قراءة ما كتبته جلّنار في مذكّراتها.. ؟ هل من الممكن أن تعيش على إيقاع ترقُّب وصول الرسائل بصمت مهيب ..؟

مع مرور الوقت، توقفت عن التخمين في المصير ولم أعد أنتظر أن يجمع القدر لم شمل العائلة مرّة أخرى .

الآن وبعد مرور فترة طويلة من الاغتراب، اعتدت صمت جلنار، كما هي اعتادت صمت أبويها، شعرتُ بالعقم أكثر من أي وقت مضى .

- كنت أعرف بعض الكلمات بين الشفاه تتكفّل بإلغاء الزمن وتقطفه لنا كتُفَّاحةٍ محرّمةٍ، قد تضعنا على حدود العشق المطلق بين ماضٍ ومضارع وحاضر ..، وبعضها يصير شرابًا مُنْكَرًا، وينطفئ كما الومض في دمنا، وقليل منها كالحِرْز لدفع الأرواح الشريرة عن القلب .

لذلك قبل أن أعجَّ بالقلق عدّلتُ ميقاتي على توقيت قلب دمشق بدل غرينتش وكركاس..

أعبر "باب توما "أحد الأبواب العريقة في دمشق،أدلف في الأزقة المرصوفة بحجارة بازلتية آتية من زمنٍ بعيد، أعبُّ هواءً عابقاً برائحة الياسمين، أحكُّ تاريخاً سارياً في دمي منذ الأزل،أحثُّ الخطى وأحسُّ الشمس على الشروق.

حاولتُ ألا أرتدي حزني حين بدأت القصة مع اليوم الذي غادر (وحيد) فيه حدود ذاكرتي، في زمن يدونه القلب على طريقة العشق العذري

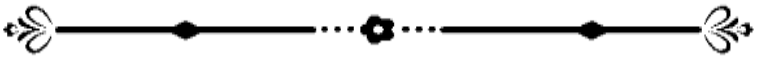

والصور الأسطورية لمشهد قد كان مرَّ من هنا أو جاء إلى هنا، إلى هذه الشوارع العتيقة كي يتنفس بعمق ..!

في الواقع ليس بوسعيَ الصلاةُ والدُّعاءُ اكثر من ذلك، لأنَّ المشهد الآن ليس مستعارًا، إنه زمنٌ هاربٌ من ساحاتِ الوقت ، كنيزك أضاء السماء بوهجٍ ساطعٍ ؛ غاص تحت الشَّفق– ذاب وانمحى كأنّما بريشة رسام مضمخ باللون الأرجواني المتدرج تماهى، فتلوح القبلات من شغاف الروح، وأستنشق الضوء الذي يلامس حقائق الوجود لأستكشف الثابت الذي لا يتحول.

تندفع الأسئلة بقوة:

– من أنـا؟ أين أنا، ماذا أريد ؟

– أنا من" جنة أوغاريت " المستلقية على زناد المتوسط، من القلّة النادرة الذين يغمرهم الحنين تحت أوراق الشجر، لا يهتمون بعيد ميلادهم و لا يحتفلون به، وهو يمرّ كزفير زهر أيلول في الخريف الحزين .

الصمت كان مطبقاً وصلبًا كالجدار، كنتُ ذاتًا تنتظر أن تُملأ بمعرفة الأنا، ورغم إشكالية "الأنا" هي لي ما لديكارت بها وقبل كل شيء هي " وعي الذات"، حضاراتٌ وأزمان، ما الذي يدفعني إلى التفكير بطبيعة الأنا؟

ابتسمتُ، لكني لم أبتسم بل ارتجفت من البرد الذي دخل عظامي ولم يغادره حتى في ظهيرة يوم حار، وقلتُ: لقد قمت بتفلسفٍ جيد، أشعر أنني

بنت السماء الأولى، والأرض لي ؛ صدري يقطّر حليبًا طوال الطريق، ويقيني معادلة كبرى في أسطورة التكوين .

لا يهم أين أنا الآن، الأهم أن أبدأ من حيث نحن، بكل شيء حلو وممتع يُطلب مني، كوني عدت إلى قيد الحياة، لكن كيف لي أن أصافح ماء السلسبيل و أحطم قيدَ المسافاتِ ، وهذي نُذُرُ الطُّوفانِ.. تلوح لِعينيَّ.. ؟

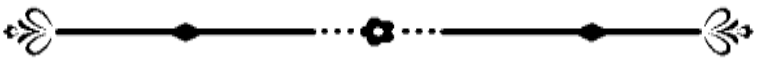

خارطة المهمشين

تمثلتُ قول (محمود درويش):"لا أُريدُ منَ الْحُبِّ غيرَ البدَايَةِ"..
لحظة البداية هذه مخيفة وعسيرة؛ لأنها ستحدّدُ كلّ المآلات اللاحقة.. من حرقة الآه أعترف ؛منذ أن سافرا أبي و أمي إلى فينزويلا نسيت الحب، ولا أعرف كيف يكتب اسم والدي حسام وأمي فاطمة بالأحرف اللاتينية.. لكنْ أعلم حين ولدتُ .. خاف أبي من كواسر حلمي فسمّاني :أحلام .
وأعرف لا أحد ينتظرني عند نهاية الحلم، فقط أُتعبُ ظلّي بالركض خلفي، وأنا أوزع حلوى الأوهام على الحالمين وأملأ جيوب الانتظار بالبرتقال المُرّ ..
لست تائهة بما يكفي حتى أرسم كآبة الاغتراب على خارطة المهمشين؛ لست مهمشة .. ولا أتوسط عرش الدائرة، وأدرك جيداً أنَّ المفاجئ والمألوف غريمان، وأنني نسخة من حضارة مدن مستباحة و في دمي يكمن سرّ الحكاية، في المقابل، لا يمكن أن ننسلخ من جلد الحبِّ العنيف الذي لبسناه دوماً ..
- ومثلما لم أكن اكترث في حياتي للعائلات الغنية والزهو الاجتماعي المزيف، بابتسامة راضية بدأت أفكُّ خيوط نسيج عائلتي، وكادت الخيوط توقعني أرضًا ..

- بدأت أمارس معهم طقس الانفلات ولا أقع ...تركتُ الخيط على الأرض ومشيت إلى اللامكان أقشّر عني هاجس اليقين، وألبس الاحتمال حلماً ؛ كنت مرهقةً ..واقفةً أنوبُ على سرّة الضجيج، وكلّ خطوة كانت مجهودًا، لكنْ عينيَّ كانتا جامدتين في الأفق، ولا يقيني السقوط على عشب الجدل. تعانقني رهبة المسافات، تذكّرني أنني ابنةُ أوغاريت، وإنني امرأةٌ مشغولةٌ بالمستحيل، روحي تتأرجحُ بين عالمَي الرغبة والاستطاعة؛ لم أُصدق أنَّ هذه الدهشة تتشكّل منه ومنّي ؛ كلانا لا يفهم الآخر، كلانا صبوران على الألم .

-لم أصدق أنني سأكتب بمعول غربتي عن الحب المجرور بعربة المعنى من عصر لعصر وعن الصراع بين المحسوس واللامحسوس .. وتقرأ الأجيال القادمة كيف تعيد القوة الأنثوية الناعمة صياغة العالم حين يهدأ مد الغواية..؟

العظماء لا يحتاجون إلى تزكية منا، قرابيننا والصلوات ليست أكثر أهمية من شدو جيش منظم من الطيور نهض من المياه على أنين القصب بين يدي أنثى تتحرك عبر المرج الأخضر .. فالقبلة الأولى إليها الروح تصلي قبل صلاة الجسد، وذاكرة الروح لا تنسى..

عشق الروح يمشي في الوريد، وعتاب الروح لا يُحتمل، فكما يقال: نحن نعيش ثقافة تمجيد الاستثناء والحياة في الأحلام ..

ليس الألم في أن نشعر بالحزن لأننا نكبر ونحاول أن نعيد الزمن إلى الوراء بكل السبل، سواء شكلاً أو سلوكاً .. لكن ما ينبغي أن نقلق بسببه هو ما الذي فعلناه في مسيرتنا هذه ؟

للأسف نعيش الآن ظروفاً وأحداثاً تدعو للتساؤل عن جدوى كل شيء وتجعل من السهل أن يجلس المرء متفرجًا، ولكنْ لعلَّ هذا هو صراعنا الدائم أن نقاوم أعداء الحب ، وأن نصطاد المفاتيح لبقاء العمر مفتوحاً على التأويل.

الحقيقة أن العمر ليس مجرد رقم .. العمر عندما يمضي يأخذ معه من قلبنا كل شيء، وأن الروح مهما كانت شابة يثقلها عطش القلب ويربكها هدوء الأزرار في دولاب العقل.. و شيءٌ آخر عن أن تكون في الرابعة عشر، أعتقد أنه العمر الذي يواجه الكثير منا فيه مأزقًا ما (جسديًا وعاطفيًا)..

تمرّ السنوات ويسيل الصمت، وتكبر اللاءات وتجد نفسك تنظر إلى المرآة بحَيْرة وتتساءل لماذا كل هذه الخطوط على وجهي ..لماذا أصبح الوجه كورقة الكرنب ..؟

لم أُصدق أنني أبدأ بسلك طريق النهاية، وأنني سأتعلّم يومًا أن أكتب اسمي على شفاه الخطيئة ؛أن أسجنَ ظلي وأحَوِّلَه إلى كائناتٍ كتومةٍ تنطوي على أسرارها وتراود عشّاقها على المعنى، هل هناك شيء يضاهي روعة الصمت .؟

أتكلم مقدار الحاجة ..التي لا تهدأ ؛سأهزم الصمت وأستعيد لساني وأنظاري المتطلّعة لتلك القمم العالية التي أراها شاحبة غير واضحة المعالم من بعيد، وليس لي من خيار سوى الصعود إليها في رحلة سيزيفية لانهائية...

يتزلزل الشعور بالزمن فلا مسافة بين البدء والمنتهى، والياء تطوي الألف باء تأتأة، رغم أنها تتقن أسلوب الإغراء وتطيع فعل الأمر بلا استثناء.. وإغلاق عينيَّ سيمنحني القدرة الكاملة لأمد يدي إلى آخر القاع، كي أحرّك الطاقة الكامنة وأتلمس، ما فاتني رؤيته في تلك الذات المشرئبة إلى قمة الهوى والعشق الأزلي، وأختصر المسافات، وأرتّق همهمات الزمن، وأعجن تيمة ذاتي مع أبعاد روحه كلّما سكت القلب عن النحيب.

- اليوم منظر الشروق الساحر يجعلني أشحن دمي بالتأمل، وأتهجَّى الشعور و أهجو معنى حياتي.. معنى، معنى.. بالسكون والعطف ..

- كيمامة ترتدي خلخالها الدرّي، خجلى تحمل المشاعر لي، ولكنْ قرأتُ أنَّ الشروق مخادع في أحايين كثيرة، إنه فيض سراب .. كيف لي أن أستثمر تجارب اللامعقول وتجارب التمرّد على ما تهرأ من القديم؟

اسمي (جلّنار) الذي منحته لنفسي، لكن أصدقائي وأقربائي ينادونني (ورد الجوري) أستطيع من باب الدفاع عن الاسم أن أقول :أن هذا الاسم ليس من اختراعي، إن أبي (حسام) المعروف بهدوئه ولطفه ولباقته هو من منحني لقب ورد الجوري، لن تخذله ورد الجوري فهي على العهد دومًا، وأمي

(فاطمة) قد تباهت به أكثر مني ؛أما أختي (أمل) جاء اسمها من عشق والدي لأغنية كوكب الشرق أم كلثوم "أمل حياتي "..

أما أخي (منصور) يشبه كلّ شيء إلا اسمه، وذلك جعلني لا أصدّق فرضية العرب القديمة "أن لكلِّ امرئ من اسمه نصيب " ؛ وأخي (محمد) عكسه تمامًا هو آيةٌ رحمانيةٌ، والأخ الأصغر اسمه (سيف) و "اللِّسَانُ فِيه أَشَدُّ مِنْ وَقْعِ السَّيْفِ " ... أما موسى فقد سار على خطاه كشيطانٍ أخرس حتى احترنا في هويته كما احتار الناس في هوية فرعون ..والبقية تأتي لاحقًا..

- من هنا اقول :من كان جلاده الحبّ لا يستحيل إلى دمية، ومن هنا أسعى إلى مساءلة الكون والعالم في شأنه ومسعاه على الأرض، أشعر أن اليأس قد أطبق على العالم، حتى لم يعد هناك مكان للضوء في آخر النفق ..

هل سأنجح في الهرب والعزلة من عالم المكننة، عالم يخلو من العاطفة والمشاعر، وهل أستطيع الخروج من دائرة المحدّد والمرسوم، والمكتوب، كالفقر والحرمان والحروب والجوائح التي تنتجها الأوبئة .

خبَّأتُ أسمائي في دفتر العائلة، ولبست لباس الدراويش وأخذت أبحث جاهدة عن وسائل الانطلاق المتحرر من كل القيود والانصراف عن سفاهة المؤولين، والمثاليات المتأثرة بالبطولات الوهمية، و حاولت النزول إلى ألف باء الحياة اليومية للفئة التي تعمل صباح مساء لكي تربح خبز عائلتها بعرق جبينها.

قطعتُ الطريق بأفكاري، وقد بدأ الغروب يلقي شيئاً من ظلاله المعتمة على أشجار روحي، وقد شعرتُ بشيء من الانقباض، وأنا أتأمل الطريق الملتوية أمامي ولا أرى له نهاية..

يغدو السكون شائكاً وغريبًا، وينكسر داخل العين خط الافتتان بكُلِّ جميل.. غمرتني الخيبة عندما وجدت نفسي وجهًا لوجه أمام نقطة التلاشي ، أو نقطة الهروب كما تسمى عند من يجيدون الرسم، وهي النقطة التي يبدو أن الخطوط المتوازية تتلاقى فيها..

ربّما كانت الساعة تشير إلى العاشرة من صباح يوم من أيام الخريف الملونة في سورية، وقد وقفتُ كمسمارٍ تطرقه الدقائق على رصيف الحيرة في مدينة طرطوس .

قُبيل استواء الرّؤية والبحر يفرغ تثائب المسافة بين أفواهه.. بين منعطفات الغياب والشك والسؤال؛ يستدرجني صوت السفن بغنجها، وسواريها تقيم الحدّ على شهوة السفر .

أشعر برغبة خفيّة تدعوني إليه، وبعينين تبحثانِ بين ظلال النوارس الهائمة عن عطره الذي تركه بين خافقيَّ، أحاول أن ألتقط أنفاسي لعلّي أخطو الخطوة الأولى نحو رائحة المعاني الجميلة والمصلوبة على سارية الأحاسيس ...

رجل وامرأة في هذا الصباح يسترخيان هناك بلا حراك، رأساهما متجاوران، على بعد أقدام قليلة من رصيف البحر، وبالقرب منهما كان

طائرا نورس يبحثان عن رزقهما برشاقة بين أمواج البحر المُتهادية عند قدمي الشخصين .

وما أن يقترب تلاطم الأمواج من الشاطئ حتى يرتفع كُلّ ضلع في صدري ويهوي بنفسه، فينحطم ويجرف غلالة رقيقة من الزبد الأبيض عبر الرمال ؛ وأقف مع الموجة وقفة انتظار، ثم أنداح معها مرة أخرى وبت أتأوه كنائم يتنفس بلا وعي .

-إن أشياء معينة تقع خارج نطاقي، والوتر في حنجرتي يخفض صوته، والكلمات تتجمهر وتتكتّل وتدفع إحداها الأخرى؛ أما أي كلمة تظهر فأمر عديم الشأن .

إن دمعة واحدة تتزاحم كأنها طيرٌ خافقٌ، يعبر المساحة الفارغة بيننا، وإني لا أسمع سوى الريح تجري فوق الأمواج، أدع لآلئ اللهفة تسقط، قطرة فقطرة .و ثمة صوت يصرخ ويتلاشى؛ ذلك الذي يتوارد فجأة إلى ذهني وأنا أفكر بما سمعت: إن على المرء أن يضرب بجناحيه في مواجهة العاصفة ..

- أحاول أن أستردَّ نفسي الهاربة وراء السفن، أن أستعيد الحسّ بالزمن بعد أن حكيت للبحر بلغة مكسّرة كالأطفال حكاية لا تنتهي.. بدأتْ نفسي في الترنّح، وربما تكون قد فُقدت تمامًا، لكني مع ذلك فقدتُ زمام أمري، الزمن يعود على نحو غير معقول، على نحو سخيف ونحن نسير ..لحظات تلاشت، إنما هي اللحظة الحاضرة أبدًا .. ألا يمر معظم الناس بشعور الغربة والتعاسة في مرحلة ما من عمرهم؟

إذا كنتم لا توافقون هذه الفرضية وتجيبونني: لا، أو "ليس تمامًا " فذلك يجعلني شديدة الثقة بما يتعلق بأهمية بطلي الوحيد الذي مات وولد في كل شخوص حكايتي.

هناك ثمّة وشوشة متساوية من الهواء، في حين أن فتاة تمارس هوايتها في الركوب على دراجة هوائية، إذ هي راكبة تبدو وكأنها تزيح طرفًا من ستارة تخفي الفوضى الحاشدة التي لا تظهر لنا في الحياة العادية..

رائحة القهوة تنبعث في المكان من إحدى المقاصف في الكورنيش البحري، هذه المقاصف لم تكن في الماضي، بل كُلّ الواجهات هنا باتت مختلفة، التصاميم، الألوان، السلع، الوجوه، تغيرت، حتى بائع السمك فلا مكان له هنا، أصبح محلّه كافتيريا لتناول المثلّجات و تدخين النراجيل، ولعب الورق للمتقاعدين والعاطلين عن الأمل.

فقدت السماء ثوبها الفيروزي الزاهي، وبِتُّ أشعر بغربة خرافية في هذا المكان، و أَتَخَيَّلُ نفسي أركبُ الأمواج، و رغمًا عن الفراغ في الجانب المكسور في جغرافيا اللاجدوى، أحاول البحث عن واحةٍ للارتواء.. انفرطت الآهات كما تنفرط حبات اللؤلؤ من العقد المقطوع وتتناثر في الهواء العاصف..

حاولتُ متابعة ثرثرة صديقتي (سامية) التي لمحتها دون أن تلمحني لكنني عجزت عن ذلك .. يا لها من فتاة مخادعة!

فهي تخفي وراء واجهة دينية معسولة عديمة القيمة قدرًا كبيرًا من البغض والدناءة.

-بجرأة أقول :هي بعيدة جدًا أن تكون فتاة دين، فهي لم تشعل شمعة واحدة أمام أيقونة، ولا بخورة واحدة أمام مقام، ولا مسحت بيدها على كتف يتيم، ولا قدمت بسمة بوجه عجوز أقعده حب العطاء حينًا من الدهر؛ ربما المعتقدات والبرمجة اللا واعية تحركها بغير هدى .

-نعم هي كذلك، لم أصادف سامية في أي مكان منذ فترة ؛ ولا أي أحد من أصدقائها أولئك المنتفخين والمتورمين -أنا لا أحب المكابرين والمستجوبين - وإلى هذا بذلتُ أقصى ما في وسعي لكي أبدو صبورةً ؛ حيث أن (سامية) تجعلني أشعر أني لست في مكاني- إن كان لي مكان، ولا أعتقد أن لي مكانًا في مجالس النميمة والنفاق ..

كانت طيات من ستائر مخملية تحجب الرؤية عن عيني، من ناحية اليمين، ومن ناحية الشمال كانت ألواح الزجاج الصافية تقيني من ذلك النهار الكئيب، من نهايات تشرين المتقلبة، ولكن من غير أن تفصلني عنه ؛ لقد تكشّف في المدى البعيد، عن أفق شاحب من ضباب وسحاب .

في حين وقعت عيناي غير بعيد عني على أحمد، وبنظرة خاطفة لمحت (أحمد) فارع القامة، وسط اصدقاء سامية ..بدا حذراً، وفي يده عدة أوراق وبقلم بيده يكتب بلا توقف ..والجميع يتابعون بفضول وتوجس ما

يكتبه وخاصة سامية .. حاملين في أيديهم أقداح القهوة و العصائر الطازجة وضحكاتهم تملأ المكان..

ردّ (أحمد) التحية عن بعد بنبرة مفتعلةٍ، تفضحها حشرجة الصوت الحزين في حنجرةٍ يابسة..

- يبدو أنه قد انتبه إلى حالة الذهولِ التي تلبست وشنجت عضلات فكيه، فأغضى بصره، مفتعلاً انكبابه على الورقة التي أمامه.

راحت (سامية) توزع خيوطاً متفرقة من الضحكات أو تحلّ عقدة بين الحاجبين، كي تجمع من خيوط الأسرار ما يمكن برمه حبلاً تستطيع أن تُنزل به دلوها إلى قرارة اللؤم، وتبدو كأنها في غنى عن كلّ شيء في حضرة أحمد.

-من المستحيل تخيُّله أن "أحمد" قد افتتن بسامية؛ لم أكن أحب أن يطرح عليَّ الأصدقاء أسئلة لا دخل لهم بها، و أكره حتى أن أسأل هذا السؤال لنفسي لذلك أشعر بالارتباك، أشعر وكأنني في مسرحية كشخصية أفشت شيئًا، ويدير الجميع لها ظهورهم لأنهم يعرفون شيئًا لا تعرفه.

فقدتُ شهيّتي في المجاملة ... لم أطلب إلا زجاجة عصير برتقال.. لم أكن أرغب إلا في الذهاب والجلوس من غير كلام.. حسنًا، لن أفتح هذا الموضوع مجددًا. أنا في حالة مزاجية سيئة، كنت أشعر بنظراتهم تخترق ظهري ؛ هذا هو كل ما في الأمر..

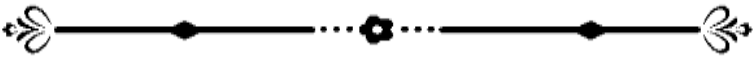

- قلت في نفسي :إمَّا أنا وإمَّا هي، لأنّ سامية تجرّأتْ يوماً على إسداء النصائح إليه بخصوص كيفيَّة اختيار انشغاله ، وأنّه رحل في النهاية..

- كم هو مؤلم أن تعيش بين موتين، أن تعيش موتًا من الخوف وموتًا من الجوع ؟

ربما الموت الأعظم أن تجد نفسك أمام خيارات قاسية ..!!

لم يُجدِ شيء نفعًا، وبعد فترة بدا العالم خاليًا ممن كنت أعرفهم؛ الجيران الذين تركتهم وهؤلاء الذين تركوني، الفتيات اللاتي شاركتهن أحاديث الروح وربّما وثقت فيهن.

لم يكن الانتظار ليفيد في شيء؛ مع هذا الازدحام في كُلِّ شيء، يقبل الوقت ويمضي دون أن أجزم أني أنثى تسكنني المدن القديمة، و حدسي عرش مملكة تفكيري، وحدسي بوصلتي .

تحزمني خطوط الطول والعرض، و في شفتي ألفُ زمن يدور مع أنه أخذ مني مأخذه، وابتلع مني الكثير كما ابتلع هذا الرصيف البحري طاحونة الهوى في طرطوس القديمة .

هذه الطاحونة كانت الشاهد الوحيد على الجياع والفقراء والصيّادين الذين انتظروا شهورًا وأياماً وأيام في ظلام البحار ثم أضاءت اللآلئ ظلام روحهم، وعادوا مخيبين إلى الشاطئ بعد أن أخذت الرياح والأمواج ما جمعوه طوال رحلة البحث عن ملاذ.. ويبقى البحر وحده شاهدًا على كل هذا العشق، يبتلع الفرح مع الألم و الندم والعودة إليه مهما كان الثمن غالياً..

هناك شيء مشترك يجمعنا دائمًا، لا يتطلب إيمانًا بنظام ديني محدّد، يمكن أن نسميه اتصال غير مرئي عبر الحب اللا مشروط ؛إذ كان واضحًا منذ البداية أن سلامنا الداخلي ينتمي للنفس البشرية ..

-ما أسعى إليه لا يختلف عن هذا البحر الأبيض الذي يرقص مع فرحنا، ويقاوم غضب الأرض من أجلنا، حيث يتوسط طريق الخير والجمال في وسط هذا العالم القديم ..

سيكون خزانة ذكرياتنا والشاهد الأخير على ما تركناه وراءنا من أحلام ؛حيث يبدو منفتحًا أمامنا ولغزًا بالنسبة للكثير .. نعم لم يتبق الآن شيئاً من هذا التاريخ سوى البحر الذي يحفظ لنا أجمل قبلاتنا والذي لم يغير قبلته ابدًا على مد البصر..

لكن لا بد من أن أقول:

-إن انتباهه كان دائمًا بفضل التمييز والتركيز في الاشياء والكائنات التي سكنت دائمًا ؛ لم أذكر كيف كنت أجلس أمامه كطفلة بضفائر وردية، لا تأبه بكل ما يدور حولها .. لا أدري كيف ولماذا ولكني أراه بعيني يتأملني، وتكاد عيناه تقول كل شيء حتى لو حاول الهروب مني إليَّ..

حشد من طيور الاسئلة تحرضني على سفك الخوف، ودحر العتمة، وترويض إلهٍ البحر وإماطة اللثام عن هذا اللغز .. يجب أن نجد جوابًا على هذه الأسئلة: كيف؟ وأين؟ إنك لا تستطيع أن تسكت على حادث غرق

بعض الزوارق كل شهر تقريبًا ثم تجد نفسك عاجزًا عن الإجابة على هذه الكلمات البسيطة: كيف، ولماذا، وأين ؟ ..

ما زلتُ أذكر جيدًا كيف كانت الطريق التي نقطعها مشيًا إلى المدرسة، لسعة النسيم البارد على الخدود الحُمر وفي العيون نصف المغمضة، عروسة الزعتر التي تدسها أختي في جيب الحقيبة، مخبز الحي، الرائحة المنبعثة من محل (نعيم) الحمصي، رائحة الفلافل المقلية، الفول مع الكمون والليمون الحامض، الحمص المسلوق والسمن البلدي الذي كان يسكب به صحن "الفتة" الأكلة الشعبية المشهور ة في تراثنا السوري فتفوح رائحته وتثير شهية الجياع الذين لا يملكون ثمن رغيف خبز.

لا يمكن أن ننسى رعشة الخوف حين تلمحك معلمة الصف، الضوضاء التي تسمعها في الإذاعة المدرسية، بشاشة وجه الموجه التربوي، المدرب العسكري وهو يلوح بصوته الذي يرعب المتخلفين والمتأخرين عند بوابة المدرسة، رفرفة العلم المرفوع على السارية، النشيد الوطني وكيف كانت تصدح به حناجر الطلاب بكل عزة وشموخ وإباء.

تُرى من هَذَّبَني شكلاً ومزَّقني مضمونًا، وجعلني هذا الضلع القاصر كقوس من السليكون؟

-كان السؤال مقلقًا بشكل غريب، لكن لا يبدو أن هناك جوابًا ما عدا الجواب الواضح، سأتغاضى عنه، وأمسك عن الكلام في هذا الصدد، ربّما

لأدرسه لاحقًا، أ لأنني أعتقد أن عواطفي أقوى مما أو خيالي قد جاوز الحقيقة ..؟

-مهما تكن حدود هذا الخيال في واقع الأمر، قد أوضح لنا أهل التحليل النفسي؛" إن الجزء القاصر من أنفسنا يتعلق بالمألوف، ولا يهم كم هو مؤلم أو غير مثمر هذا المألوف .."

كُلّما حاولتُ أن أقول الحقيقة للآخر أشعر أني قد -ظلمت نفسي -فهي الأحق أن أعترف لها أولاً، وكلّما حاولتُ أن أدنو من نفسي، نشر حرّاسه ما بين لساني وبوابة فؤادي، طيفه يحاصرني، ويجثو قريبًا مني، يدفعني نحو الماضي لأقلّب صفحاته منذ البداية، ويشدّني إلى جغرافيا الشوقِ المتكئ على أعشاب اللهفة، وشجرِ القلبِ المُعَمَّمِ بفاتحة الدمع.

حين أعتقد أن الماضي انتهى أكون امرأة ناقصة، ويعتقد القادم أني عابرة حديث، لا تعرف الفرق بين الذهاب والرجوع، بين الأكل والجوع، بين الهزيمة والخضوع .

ليته يعلم للحب شفاه جائعة، وللجوع حروف أخرى ؛ لو كنت في دائرته لكسبت القضية وأثبتُ له بالفعل أنني امرأة شجاعة، لكنني في القطب الخاسر من العالم .

يبدو هدفًا مستحيلاً أن يتمكن شخص واحد من إعادة الضياء إلى تلك الشموع الذائبة، في حين أن ما يحتاجونه فقط، هو يدٌ حانية تحرّك وتشكّل وترفع هذا الشمع المتجمّد على وتين القلب.

لقد كنتُ نفسي ولا شيء آخر، ولم أعبأ بالنقد والاتهامات، فقد آمنت بأفكاري الشخصية ورؤيتي الخاصة للجوع والشبع ؛ضمن هذه الثنائية عشتُ القلق، على كل حال ليس الجوع عيبًا، العيب أن نهضم أسبابه دون أن ندري ..!

لطالما كنتُ امرأة عنيدة، وعادة ما أقول ما يجب قوله، و أفعل ما يجب فعله، وإن تصادف واقترح عليَّ هؤلاء الذين لا حدّ لأطماعهم أن أظلّ صامتة أفعل عكس ذلك تمامًا ؛ ربما كان هذا أحد الأسباب التي جعلت من حياتي صعبة ..

كان أفضل شيء فعلته في حياتي خاطئًا دون أدنى شك، هل هذا بسبب الجوع الروحي، العاطفي، المعرفي، أم أنّ كُلَّ هذا بسبب تجنب الوقوع في مصيدة العرف الاجتماعي...؟

تعتريني رغبة قوية في تجميد الكلمات والتمرّد عليها حتى لا أضطر إلى التفوه بكلمات قد تنتقص من إنسانيتي وقيمة من أتحدث معهم؛ لا أعلم إنْ كان الجوع للمعرفة كالجوع للطعام ..؟

- تعلّمتُ أن دماغنا يتوق للفضول تجاه الأمور المجهولة المجردة، وإننا نريد اكتساب المعرفة بنفس المقدار الذي نريد فيه تناول الطعام لنبقى على قيد الحب.

لا أحب أن أضع الكلمات المناسبة على صور الشغف التي شكلتها في مخيلتي لهذا الذي يسمى حب الفضول؛ إذ الفضول سلاح ذو حدين، فيمكن أن

يؤدي إلى انجازات بارعة ومذهلة وبهذا أذكر ـ يقول ألبرت اينشتاين: "أن موهبته الوحيدة الخاصة هي كونه فضولياً إلى حد الشغف."

-يسأل سائل: إلى أي حدٍّ يتشابه الفضول والجوع؟

كبرتُ في الجوع العاطفي، ومع مرور الوقت تصالحتُ معه وأمضيتُ شطر حياتي مطبقة الشفتين، ربّما استسلمتُ لخيبة الأمل الكبرى وبقيتُ رهينة تلك الشفاه ؛ لن أستبدلَ بالأمصال ما كانَ ترياقه في ثغري كالخمر، لم يتلاشَ هذا الطعم أبدًا إلا في عصر السليكون ..

داخل دائرة العزلةُ يجد الإنسان نفسه مضطرًا للتعبير عن الكثير من الخسارات العاطفية، من بينها تفاصيلٍ صغيرة انت نفسك تحاول الهروب منها، لا أعتقد أن هناك شخص ما يستطيع الدخول معك في الحديث حولها.

كل حرف يطالبني بأن أعلن تمرّدي على ذلك الضجيج العبثي غير المنظم الذي يحاصرني، ويتعمد إخراجي من دائرة السكون التي أقحمت نفسي فيها قصرًا، وقراءة تفاصيل الخسارة المغيبة رغم حضورها.

لا شك قد عاش الأديب أمين معلوف تلك الخسارات فكان سؤاله بمثابة الجواب في الهُويّات القاتلة :"في كلّ خُطوة في الحياة، نُصادفُ إحباطًا وخيبة وإهانة. فكيفَ لا تُصبح شخصيتُنا مُمزّقة؟"

ذُهلت (سامية) زميلة دراستي وجارتي التي لحقت بي إلى البيت بعد أن شعرتْ أني لستُ على ما يُرام- وأنا أقرأ لها ابحاثاً عن الجوع -ارتسمت على

مبسمها ابتسامة ساخرة، وقالت بصوت خافت : أنا .. قد فشلت في امتحان الذكاء العاطفي لذلك سأبقى جائعة ..

-لا شك يمنح الذكاء العاطفي الإنسان الوضوح والمرونة ..فإنَّ الإنسان المتمتع بمهارات الذكاء العاطفي قادر على تفسير شعوره والتعامل معه بحكمة وعقلانية ومنطقية، فلا ينجرف في تصرفاته خلف مشاعره السلبية .

_ما هو الجوع العاطفي؟

- شيء مدهش لننتقل إلى جوهر الموضوع بعيدًا عن أقاويل التحريم ونصوص الخرافة وفتاوى الكهان فأنا في عجلة من أمري، وقد لا تتاح لنا فرصة الحوار الصريح كل يوم يا صديقتي الفيلسوفة..

شعرتُ بالارتياح لأن أسئلة سامية المتلاحقة لم تسمح لي بالإجابة كما يجب، ولكن نفد صبري عندما وصلت إلى سؤال يثير اهتمامها بشدة، حيث سألتني قائلة :ما الذي جاء بك إلى الكافتيريا ؟

قد أسعفني صوت الفنان " عبد المجيد عبد الله- وحيد / المنساب من التلفاز، قلت لها لندع الجواب و نسمع هذا الكلام والأداء الروحي الجميل لعل ندرك السبب...

"وحيد وحوله أحبابه يحس إنه وحيد
يكابر كل ما صابه يظن إنه يفيد

لو المصباح في ايده يلبي ما بغى سيده
طلب يرجعله الغايب وغيره ما يريد

وحيد وموعده سري ولا حي درى
اكيد منهو الي يدري ما دام انه سرى

يقابل طيف معشوقه ويحكي له على شوقه
ويحضن طيفه الغالي ويشكي ما جرى"

قالت سامية التي كانت منشغلة بتنميق الكلمات: كان عليك الجلوس معنا، لم أتخيل السبب الذي جئتِ من أجله.. !

قلتُ في نفسي :أسوأ الشرور التي قد تصادف المرء أن تساوره القناعة شيئاً فشيئاً بانه صار عاجزاً عن رد الشر بالشر .

-امتنعتُ عن الرد عليه .. ثم قلت لها: لا يهمني أمرك من قريب أو بعيد، تبادلنا النظرات لبضع لحظات، فرأيت وجهها يملأه الشك، وقد خلا تمامًا من أي ود.

هززت رأسي حائرة، لم أكن اتخيل أنّ التي كنتُ أتحدّثُ معها الآن هي نفسها (سامية) ..كيف انحدرتْ بها الحالة الفكرية بهذه الطريقة ؟

كان أحمد يلوذ بالصمت قاعدة ومنهجاً، فما كان يقول شيئاً، بل كان يسكت كالأخرس، وقد يكون بذلك أكثر حكمة من (سامية) التي بدتْ كمحموم يهذي ، وأخذت تثور شيئاً فشيئاً، وقد احمرّ وجهها من الغضب مطلقة ألسنة لهب من الحنق .

لا أدري ماذا جرى لسامية هذه الليلة _ لكنّي على يقين أنها - تبحث عن حجة لنفسها كي تطلق هواجسها بحريّةٍ، قاطعة الجمل وأحياناً الكلمات كما تشاء، دونما شعور بالحرج من نفسها، أو بإثم من الظن أو النميمة..

كان أحمد مكروباً غاية الكرب، ولم أجده على هذا الوضع كما وجدته اليوم، وشعرت بشيء من تأنيب الضمير .

لبث "أحمد" فترة طويلة ورأسه منكّس فوق صدره، ويده على ذراع المقعد ممسكاً بمبسم لفافة التبغ، ولما أحسّ بالتعب من هذه الجلسة، رفع رأسه وأخذ نفساً سريعاً و قصيراً من لفافة التبغ، وراح ينظر إليّ بإمعان، وكأنه استطاع أن يقصّ عليّ دفعة واحدة كل الأشياء دون أن يأبه بالرماد المبعثر على سترته .

- عجباً، الحقيقة لا أعلم ماذا أقول، ربّما تفسير المشاعر معقّد، لأننا لا نريده أن يكون سهلاً، ومن غير تعقيده، فلأي شيء نريد أن نعقّد الأمور ما أن تكفّ عن أن تكون أمور بسيطة حتى يصعب علينا فهمها ؟

وأيّ وتر في نفس (أحمد) ضربت عليه هذه الأنثى، وإذا ما جاءت إليه كان يعاملها بجفاء بل ربما بشيء من القسوة أحياناً..؟!

أسأل نفسي وأجيب عن هذا السؤال، لأن ببساطة لا تُفسّر مشاعر الآخر، وهي مشاعري في هذه الحالة ؛ وقد تحسب أني أبتسم لأضفي الغموض على نفسي، ولألقي على روحي ظلاً من الشك حول بساطتي.

وقلتُ لها:

- ذلك الحب كان حباً حقيقياً، والبراءة تنتصر دائماً آخر الأمر، يجب أن تعذري ازدواجيتي، فالأمر ملتبس بالنسبة إلى من مات وأكله النسيان، ومن عاش في موته خالدًا، عالمًا بكل شيء، فأنتم جميعاً موضع شبهة على حد سواء ..

-يمثل فشل أي علاقة عاطفية أمرًا مجهدًا للأعصاب، ولذا لا يستغرب أن يرتبط ذلك بتدهور في الحالة النفسية .

- علينا الانتباه جيدًا، لأن في نهاية المطاف يبدو لنا بوضوح أن الانخراط في علاقة عاطفية بهدف التعافي من آثار فشل أخرى لن يشكل العلاج الأمثل للقلب المكسور وإنّما يدفعنا بسرعة إلى الوقوع في فخ الأوهام الإيجابية .

- في كل الأحوال لا تقفزي إلى استنتاجات خاطئة يا سامية، هذا لن يؤدي بك إلى مكان ؛أنا لم أتحدث عنكِ مع أيِّ أحد على الإطلاق ..كان الأمر يبدو كأنّ هناك مشارك خفي في الحوار بيننا؛ استكملتُ المحادثة الفوضوية قائلةً:

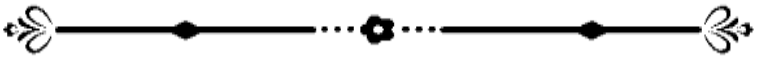

- العقل البشري مثل مظلة في لحظات المطر، لا يعمل إلا إذا كان مفتوحًا، العقل هو جواز السفر الذي يلج به الإنسان دائرة المجهول..

_ تسأل سامية: كيف تجري دورة الجوع العاطفية؟

- وفي لحظة توتر رهيب قلت: يا عزيزتي على يقين لا يمكن ملء الجوع العاطفي بالطعام، إذ أنّ المشاعر ستبقى على حالها حتى ولو تناولت كل ما تشتهيه.

من المشاعر التي تدفع الشخص إلى تناول الطعام :الحزن، التعب، الشّعور بالملل، الغضب، الإحباط، نقص الحب .. وأصعب أنواع الجوع، الجوع للحب، ذلك الحب الذي مات بين يديك، ولم تستطع أن تكفنه بلقمة تراب..

- ألا توافقين معي الرأي :إنّ القبول بالواقع، خدعة و هزيمة منكرة للحق وشراكة في الجريمة، القلب يعيش بالحب كما تعيش السمكة بالماء، كما تعيش النفس بالدم، فالحب الحقيقي حالة وجودية للذات .

قاطعتها بصوتي ووضعت يدي على كتفها قائلة :

- لا يمكن للأمر أن يكون أفضل مما هو عليه، مع ذلك يأبى الحب أن يستسيغ للتعريف بلغة العقل، وقد قال (باسكال) في هذا الصدد جملته الشهيرة: "للقلب أسبابه التي لا يستطيع العقل أن يعرفها".

فليس للحب وضوح وتميز يمكن أن يعرف من خلاله، كما أن مبادئ العقل الكلاسيكية لا تنطبق عليه، ففي الحب مثلا تجتمع المتناقضات على

عكس مبدأ عدم التناقض الشهير، وهو ما أسماه فرويد بالثنائية العاطفية.. ومعناه أن الإنسان يمكن أن يحب الشيء ونقيضه، أو يمكنه أن يحب الشيء في لحظة معينة ثم يكرهه فيما بعد.

و يعدّ الحب لازمةً مهمةً في كُلِّ عمر، لأنه ينبع من ديمومة الحب ذاته، فهو يغذي العمر، ويغرس في العاشقين له ضرورة الانصياع، والاستسلام التام لأوامره .

وبما أن وجه الحب مرآة لا يرتسم فيها، إلّا ما هو رؤيوي مضيء، ستعكس عني كل شيء حتى دون تفكير فيه؛ ربما سأبدو بالمرآة ألف أنثى ، وهذا يفلتني من قبضة الرقيب والتَّخفي في جلباب الزمن..

لذلك، لن يرعبني التقدم في العمر، مهما بلغت من العمر فأنني وليدة كل حرف، ولم أحزن لفوات الوقت ؛ ربّما أصبحتُ الأقدر على اكتشاف أخطائي في هذا العالم الغرائبي الذي لا يجيد لغة الحب.

لم أسخر من المتصارعين على لعبة الحياة طالما جسدي يحتوي هذه الروح ؛ لأن الروح لا تشيخ ولا تشيب إلا إذا انقطع عنها بخار الحب.. كلاهما يوجد داخلي لينفي الآخر، لكن كليهما في مكانه بالضبط، كلاهما أنا، ولهذا فأنا مدينة لهما بالكثير .

تعود (سامية) للتشابك عبر أسئلتها التي لا تنتهي ولم يكن الحديث معها يناسب من يرغب في تناسي آلامه، كنتُ واثقة من هذا، وبلهجة

فيها ظرف وبشاشة عادت للحديث غير المترابط، وبدت كما لو كانت ترغب في الهروب عبر مركب السؤال :

- متى نعلن صراحة يا ورد الجوري أن الجوع للحب كالجوع للخبز؟

- تنهدتُ قائلةً: مهم جداً أن نتعلم أشياء كثيرة، و الأهم لنا أن نجري تحديثًا مستمرًا على كل ما تعلمناه، فمن قد يعيش في هذا العصر يجب أن يتمتع برباطة جأش لا مثيل لها ؛ وعندها يدرك فورًا كيف إن الجوع مشكلة إنسانية حيويّة لها امتدادات تاريخية وجغرافية ..

الحب هو الحبل السِّري لما يعيشه الإنسان من حالات الرّضا والثّقة والانجاز والسّعادة، فقد يكون البدن جائعًا لكن النفس البشريّة لا تتخلى عن أشواقها الروحيّة ومفكراتها الوجوديّة ..ولا ينتج الحب إلّا الحب..

- هذا ما تشعر به نفسي، لا أقول يا صديقتي هذا من باب الكبرياء، حقًا لا أعرف إلى أين يذهب بنا الجوع ؛إذ ليس هناك مجاملة في الحب، هناك لحظات كالومضات، فلننتعش بها .

-لا شك في أن امتعاضي من أسلوبها قد ظهر على أسارير وجهي وقالت :

- هل أزعجكِ حديثي ؟

-لا بد أ نها كانت تقرأ أفكاري فقد واصلتُ حديثي مفسّرة لها قائلة :

- الحب محور الوجود، معه وفيه يومض و يدور هذا الكون، وليس هناك من قلبٍ يتعذّب عندما يتطلّع لجدوى القبلة على وجهٍ يتبع ذاته، لأنّ

كُلّ لحظة من البحث هي لحظة إبحار مع تلك المسافة المضيئة بين عينيه التي تشق سبل الهيام وتطلق شهوات القمر .

- تبقى الأسئلة الصعبة تلح على نفسي وتضغط على فكري: هل أحمد يحبني أو يحب سامية؟

-هل أحبه واستبدل حب وحيد به ؟... "لن أكسب حب أحمد، لن أستعيده أبداً؛ الفرصة الوحيدة التي كان يمكن أن يحدث فيها ذلك الشيء خلال حياتنا، انتهت.

هي لحظةٌ حُبْلى ومحبرةٌ بتولُ تتعرّى من أقنعة ما كان وسيكون، وأنا هناك لا أحد، ولكنني كلما جئت وحدي شُبهتُ للعاشقين ملكة نحل يتسابق نحوها آلاف اليعاسيب ..

و هنا، أنا وظلّي هاربانِ، فنصفه لديّ ونصفي لديه، لقد أضعنا بعضنا لفترة طويلة، و حلمي جَمَعَهُ بين شفتيه وشكلنا معًا جملة عابرة للحقيقة والمجاز.. ففي هذا البرزخ فقط يتقاطع القطبان الأبديّان .. الوتر المزموم وحده يستجيب... الوتر المزموم وحده ينشد أناشيد الحب .. فكيف الملاذ في حال اتّساع الرؤيا، هل نسيان الحب هو الممكن ؟

- لماذا علينا ان نتعلم الكثير من الحب ؟

- هل نحن منذرات له كنساء ؟

كان بإمكاني ألا أتوسع في هذه التعليلات الموجعة، وربما غير الهامة، وان أبدأ بمنتهى البساطة بدون آهات ..

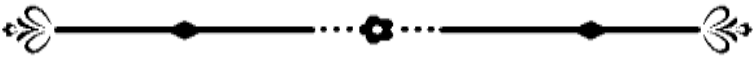

- متى تنقطع حسرتي عليه، كيف أنسى تلذذ الآهات و دموع الأحلام المشتركة؟ فهل صحيح أن من الصعب محو شريط ذكريات العلاقات العاطفية؟

- تعلمنا أن النسيان هو الشيء الأهم بالنسبة للذاكرة... إنه يقوم بتصفيتها.. في حضرة ذلك الشعور، هل فعلاً "الملّ هو أن نقول كل شيء".. أو إنه الخوف من الخوض في أوحال اللغو على ذلك النحو الذي لا يعفي من دنَس ..؟

من الطبيعي أن نحترف الحُجُب؛ ومن الطبيعي أن يكون لهذه الأحلام الخفاء سكناً ..وهل حسن الظنّ بالجدل شفع لسقراط حكم الإعدام، الذي استصدره محفل عقلاء أثينا بحقّه، بدعوى إفساد الجيل بذخيرة هذا الجدل..؟

رغم أن الكلمة هنا حسم. حسمٌ يجير من سوء الفهم لتلك العلاقة .. الكلمة بين شفاه أنثى أكثر من جملة، وأكبر من شريط ذاكرة، وأعظم شأناً من قفل الباب في وجه الملل.. ما جدوى السؤال عن حقيقة العلاقة العاطفية ؟

-أخاف ألا يتوه بنا السؤال عن الحقيقة في إفراغ المحتوى الذي يكتم على أنفاس الفكر.. أتُراه يعو د إلى الواجهة ويهب كجائحة تفضح الشبق المتواري تحت عباءات التقى ويقنن الحب والوصال والمتع بمسطرة التحليل والتحريم كما تقنن الكهرباء في وطني..؟

أسئلة حارقة تنامُ في داخل كل منا، والصلات العاطفية أصبحت بيننا كالخلايا العصبية في أدمغتنا دائمة التغير، وهذا ليس من ضعف قدرتي على النسيان ؛ النسيان ممكن لو وُجد البديل..

بما أنني أتيه في محاولة الإجابة عن هذه الاسئلة، اتخذتُ القرار بأن أضعها جانبًا، ومن البديهي، أن العاشق الصادق، والقارئ الرائي قد يتأوه على ما كان أو ما قد يكون.

تتحوّل الأعصاب المتحركة في هذه الحكاية إلى عصب واحد هو وحيد، يصلبُ فيهِ العالم بين أعيني مثلما تصلبُ السّعادة في عيني يتيم أو تصلبُ الابتسامة في وجهِ طفل يبكي امام سلة غذائية توزع من قبل الهلال الأحمر.

في الحقيقة أحتاج زمنًا يحفظ قمح عيوني، ويقدمه للزمن القادم للفقراء ؛ كنت في بعض اللحظات أضطرب اضطرابًا كبيرًا، و حاولتُ مرارًا وفشلت في النسيان، جروحي تؤلمني بين وقت وآخر، والشخص الذي اختاره لي القدر نفسه نسيته تماماً، ولكن الجرح الذي سبّبه لي من الصعب نسيانه، رغم أننا نعيش معًا ولا نعيش.

السلام مع الذات هو نوع من التناغم بين الجسد والروح والعقل، هذه السلسلة المتناغمة التي تربط النصف بالآخر فُقدت ، والحلم لم يبق منه سوى الملح وبعض الندى و أسرار التفاصيل الهاربة عن تلك الأزهار النائمة على وسائد الليل..

ذات ليل وانا أحاول التخلص من النداء الداخلي، وقع نظري على كتاب فن (احتواء الذات)لـ د.هال ستون ود. سيدرا ستون ترجمة: د. داليا هشام سباعي كان أجمل ما جاء فيه :"كثيرًا ما نتجاهل صوتنا الداخلي، لا نبحث وراء فهم الإشارات التي تمنحنا إياها ذواتنا.

القليل منا يُدرك أن بداخلنا العديد من الأصوات التي تُمثل طاقات مختلفة موجودة داخلنا؛ صوت الطفل الداخلي، صوت الناقد، صوت القوة، صوت الغضب، صوت الخوف، صوت الحكمة، وغيرها من أصوات تُمثّل جوانب مختلفة لدينا، جوانب بعضها هشّ منبوذ وبعضها مسيطر، وقلة من ينتبه لتعدّد تلك الأصوات، ويُدرك أهمية فهم تناقضاتها".

أمام كل هذا، كيف لنا أن نثبت إن هذا النداء الداخلي العميق ليس إلا مجرّد هتافات هوجاء، تهفو إلى التمرد على سلطة العقل، وبناء نمط جديد من التفكير، والذي زاد رسوخ هذا الوهم، فكرًا واعتقادًا ما ذهبت إليه التصورات الفلسفية والفكرية عامة، من إعلاء إمبراطورية العقل على حساب نشوء فكرة الجسد.؟!

يرهقني التأويل، ويحاصرني المكان في زوايا وحدتي، ولا أعرف تحديدًا كيف يتم تذكّر أحاديث الليالي والكبت المخجل في هذا الوجود، وقلبي يسابق سواد الليل في التخفّي و هذه الفراشات تراقصني حول مشكاة الهروب من العزلة والصمت.. وانا ابحث في بطون الكتب..

لن أذهب أبدًا إلى دورات التعليم الخاصة، فالإنسان يتعلم في بيته أكثر من أي مكان آخر .. علمتني فراشات الحلم الجرأة والصدق..

حالات التأمل الطويل في هذا العالم، جعلتني أدرك أن فراشة الحلم لا تكذب، قد تؤجل وعودها لكنها لا تخلف الوعد ولا تكبت شهوتها بل تسخر من الضوء المنبعث من أروقة الروح العاشقة .

وأنا هناك أحتمي بظلال لهفتي، حيث السواد والفقد -ليس فقد الوالدين فقط- ولا هو فقد للانتماء .. هو فقد لكل المشاعر الإنسانية والذكريات..

أسرفُ في الحنان كأختي أمل لعلّه يقوم اليتامى من غمد المدن المنسية ووحشة الزمن .. قدرنا في العائلة أن نربي أجيالاً من الأيتام، حملوا أسماءنا وتنكروا لحناننا بعد أن امتلأت بطونهم بالأكل وفرغت عقولهم و عيونهم من رحمة الله.

تكمن الرحمة الإلهية عند نظرك إلى نفسك بعد رحلة شاقة كنت تحاول فيها تحقيق ما كنت تظنه صعبًا وشبه مستحيل، لتجد أن هناك شيئا آخر نما في داخلك وبدأ يتوغل في أعماقك، ويجعلك أكثر سمواً وحكمة، لا شيء يمكنه أن يتغلب على فكرة تؤمن بذاتها الخالقة.

روحي اليتيمة جعلت الدهشة تملأ كياني، حين أعرف أمرًا لم أتخيل أنّ أحدًا في العالم يعيشه، إذ لم أعرف حياة العائلة يومًا ولا متعة أن يكون لي أخوة واقرباء، ولا عرفتُ أنَّ على الأرض مكانًا كئيبًا يقضي على المرء مثل ميتم الروح.

لا، إنْ هُم أعمى قلوبهم المال ؛ أنا لا يمكنني -نسيان ذاك القهر_ و حالة اليتم لأبناء أخي مهما ارتفع منسوب المال أمامي، ولا أنسى معاناة أمي (فاطمة) معهم ومع أحلامهم البريئة، لا يمكن تمالك الدموع حين اتذكّر مدى حاجتهم إلى حضن دافئ ولمسة حانية، وفرحتهم الغامرة بقلم ملون، أو لعبة مستعملة..

كم استغلوا عاطفتي تحت عنوان اليتم، وانا اليتيمة الطفلة والأنثى و المرأة والجدة العاشقة والعطشى لحضن يحتويني.

ربما العلّة في الفقراء واليتامى والجوعى أنفسهم.. أنا أؤمن بالتمرّد، فالمياه الراكدة عفنة دائماً.. التمرّد على الفقر رسالة الأنبياء ؛ باعتباره صِناعة بشرية يُرَوِّجُ لها الضميرُ الميِّتُ الذي لا يَحسب حسابًا للوقوف تحت قوس محكمة عليا ومحاكمة عادلة إن كان من سكان مدينة الإحساس.

الوقت يمضي وأنا لم أفعل شيئاً.. لا زلت أنتظر ؛ربّما فعلاً إذا اتسعت غربة الروح فاض مطر الأنوثة، وتجلّت نقاط التوتر التي تشكلت إثر بناء الأسرة لمدارها الذكوري، وفضح تحيزاتها عندما ينتهي الحب..

هل تكتمل المرأة بذاتها لذاتها، أم إنها تنقص أنوثة أو قيمة إذا لم تتزوج الرجل الذي أحبت؟

أعيد ترتيب الأشياء داخلي بخجلٍ شديدٍ وأصمتُ مرةً أخرى مخافة التيه، وأرضخ لصنم في داخلي أرفض أن أحطمه، فأعيش وحدة قاتلة، وفي داخلي دُرر من الحَدْس تنتظر من يغوص إلى العمق يحركها .

- ما أغزر هذا الكون و أخصبه يا جلّنار ..!

إنه يدور ويدور، الشيء الواحد الثابت هو التغير الدائم، هذا لغز لا يمكننا تلمّسه إلا من خلال السكون، لذلك لا غرابة في أن تكون حكايتي حافلة بالمتناقضات؛ كنت أحس أحيانًا ذلك النداء نحو المجهول، وأوغلت إلى البعيد، وتجاوزت ذلك الخط الذي تلتقي عنده الأرض بالسماء، بيد أنا هذا التأمُّل لا يحدث من مكان بعيد، بل هو نابع من داخلي؛ ما عساي أفعل في هذا النبع ؟

- لا شيء .. سأفرغ روحي من كل شيء، ما عدا الحب، فالعشق شعورٌ كونيّ، يبقى خالداً على مرّ القرون، لكن الظروف و العادات تختلف باختلاف الأمكنة .

لكنْ من دون لهفة تحملني أسئلة صديقتي (سامية) على بساط من الريح لأعيش معها رحلة الحدس، قد نمضي عمراً كاملاً في رحلة البحث عن معنى الحب الحقيقي، فكيف لو فقدناه بالحَدْس؟

وكل شيء يحدث في الآن نفسه، في أبعاد هذا الكون اللامتناهية قد لا يسعنا استيعاب الحَدْس وفهم كُنْهه، فهو عصيٌّ عن الضبط غير مدرك، لكن لا سبيل إلى الاستغناء عنه، فهو بوابة أمل حين يغيب الأمل في وجه المحب.

- النساء هن الأقدر على هذا الضرب من التمثيلات، نظرًا لأنهن أكثر قدرة على تمثل الأشياء بوصفهن مجبولات على الإحساس والعواطف، ولهن زاد

عاطفي وحسي قادر على أن يلتقط الأشياء قبل حدوثها، ولاسيما في مسائل الحب والعاطفة عموما، وهو ما يُعرف بالحاسة السادسة.

- هذا كله فلسفة، أيضًا يقال: الذكر يفكر والأنثى تحدس ..أنت فيلسوفة يا ورد الجوري قد تكونين جئت تعلمينا فلسفة الحب ؟

- جميل أن نعيش للحب بعد أن تمَّ كسر قلوبنا بوحشية، والأجمل أن تكون لدينا الشجاعة للعيش إلى جانب هؤلاء الحمقى الذين كسروا قلوبنا سرّاً وعَلانِية ..

- قد تكونين على حق يجب ألا تتوقف الحياة عند لحظة فراق الحبيب، هذه هي النصيحة التي تقدمها صديقتي (دليلة) الآشورية ابنة الجزيرة السورية للذين يفشلون في الاستمرار في علاقاتهم العاطفية.

اكتبي يا صديقتي رُبَّ عشقٍ هو حريقٌ ينشب بشدّة إلى أن يخمده القدرُ بضربة واحدة، والدليل هو: إنَّ مشاعرنا ولائمنا المقدسة على الورق..

اكتبي كي تُنهي كلّ شيء داخلك وتتخلصي من مشاعرك السلبية، علينا جميعًا الانتباه جيدًا حتى لا نقع فريسة الحب الزائف والحبر الزائد..

- يخيل لي أنَّ ملك الموت يخاف الأصابع التي تمسك بالقلم، حين أكتب، أشعر كأنني احتضنت مجرّة الثريَّا ويتبعني كل أيتام العالم .

_ آه.. ثم آه .. كم ردد (وحيد) قصيدة نزار قباني :

"أُحبكِ جداً وأعرف منذ البداية بأني سأفشل، وأنّي خلال فصول الرواية سأُقتل "..

- من يمنع القلب أن يبكي على رجل في قلبه كان طعمُ الحُبِّ مختلفًا ..؟

يتعذر تحجيم الذات العاشقة أو امتلاكها أو تدجينها، إنها عالم متعدد الأوجه والسطوح مثل أحجار الكريستال والزبرجد، هي فراشة مرصّعة بفوضى من الألوان، لا وصف محدد لها، وما الهدوء الذي يميزها إلا غلالة وقاية تموه بها براكين عقلها ..

-كيف لي أن أستعيد توازن ذهني ومشاعري يا (دليلة).. ؟

-إن المشكلة الكبرى عندي هي عدم الانسجام مع هذه المجموعات المشكلة في شبكات التواصل الاجتماعي، وهؤلاء الذين يرتادون المنتديات تحت عناوين ثقافية شتى وتشبه كل شيء إلا الثقافة .

من الجائز ألا يكون كلامي صحيحًا كل الصحة، لكن هذا الجو الإباحي والموسيقا الصاخبة مع قراءة الشعر والدُّخان الذي يملأ هذه الأماكن المغلقة موجود بالفعل، و يشعرني بالقرف من روادها..

عندما أعود بالذاكرة إلى الماضي، أُشعر بالخوف من الحاضر، لا يمكن تخيل حياة خارج الزمن، فخارج الزمن له اسم واحد هو الموت.

في الكتابة، كان هذا أوَّل تحدٍّ أقدمت عليه في حياتي ضد الموت ؛ولو عاد الزمان بي إلى الوراء، وأنا مدجَّجة بالخبرة التي راكمتُها عبر السنين، هل كرَّرتُ ما فعلته، وهل تمكنت الأعراف منعي من ذلك بعد إصابتي بداء الحب الذي التهمني كاملة..؟

-كيف خرجت نفسي من الزمن؟

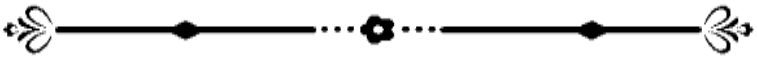

الأماكن المغلقة تستولد لديّ هيئات الرهبة وأشكالاً من الرّعب، تتقوس داخلها المتاهات ، وهذا يجعلني أتكَوَّرُ كفاصلةٍ منقوطةٍ، تعيش على الماضي الذي أضحى حزمة رموز وألغامًا تحت الرمل المتحرك وفخاخ الندم.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الجمرات تظلُّ محمومةً، ومستعدَّةً للاشتعال بنفخة واحدة، وبلهفة ولوعة أدركتُ أني فقدته في هذه الحياة وأني أعوم في بركة من مفردات الماضي: (كان، لو، ليت)

أمام هذه الشرارة التي لا تزال متوهِّجة في مهجتي تتشابك الجهات وتنفلت الشهوة مجنونةً من عقالها وأفقد البوصلة ..

كلُّ الكلمات انطرحت كالعاشقةِ تحت أصابعي، ولهى، مُلتاعة .. أنا أم هي تنام على وسادة محشوّة بالديناميت، نسير معًا كعاشقين على أطلال حبل التذكّر .. نعيش العبثَ أمام جاذبية المرايا بكُلِّ التفاصيل، نعرف كيف نخاطب روحينا دون كلمات..!

ماذا تفعل بالمرآة حين تتكسر و تتشظى؟

حينما تقف امام مرآة الذات، وترى هذا الشكل الذي توقفت فيه الحياة من أجل حلم ابتعد عن العين .. سترى كل شيء على حقيقته، حتى هذا البياض الذي عرف طريقه إلى القلب قبل رأسك.

هل تكفي أصابعُها المُمْتَدَّةُ مثل عصا التعجب كي تحفر للخواء منابعاً تستمطر اللاشيءَ .. كيف يمكن أن تبلّلَ أنوثتُها الممكن والمستحيل،

ويُبدِّلَ إحساسُها ما ينبغي أن يكون للتجاوز والنسيان ..، وهم أورثوها صبرَ أيوبَ، حزنَ يعقوبَ، جبَّ يوسفَ، دربَ آلامَ المسيحِ .. وسراج فاطمة .

كان من الصعب أن تسلك طريق الغفران، ومن الأصعب أن تبقى على حال المجاز ...تراوغ لسان الزمن ..تحاول استخراج الذخيرة من بطن العدم .. لتوليد الحقيقة من البعد الضائع، كما تقوم القابلة بتوليد الجنين من رحم الأمّ..

- أتذكَر كل شيء بوضوحٍ خارق، لم استطع نسيان تلك الأصابع في يوم من الأيام، أذكر كيف هزّتْ أمي أصبعها في وجهي كما لوكنتُ فتاة شقية، حاولت جاهدة استنطاق هذه الإشارة ؛ لكن بعدها دخلتُ في سبات طويل.. وتسكعت سنينًا طوال على أرصفة الكتب المنسية، وراقصت الفراهيدي وابن جني، واضفت قاعدة إلى "قواعد العشق الاربعون" كان قد أشعلها بصدري جلال الدين الرومي ولن يخبو نارها .

والزمن قام هنا أو نام هناك.. لا أعلم وأعلم أنَّ أسرار تكوين هذه الرّغبة دُفنت في أعماق أنثى تبتكر قواعد عشقها .. باعتقادي هذا العطر ..الحب علينا أن نحافظ على سرّيته كي نحتفظ بقيمته وغناه..أين هو الذي تفتحت شفاه الورد بين يديه.. ؟

رائحة عطر الليل ازدادت مع تلاشي الضوء .. مشيتُ في ليلةٍ بلا قمر، وحيدةً، خاويةً، بكيتُ وبكيت بكاء السُّكارى والمجانين .. كان ممكنًا أن

يتوقف قلبي عن النبض لولا وسع قلبي، وهامشُ الصِّدْفَة المتأخرة عن وقتها بضربةِ طيرٍ شريد ..

- يا للفتية المساكين – ابتسمت لدى إحساسي برعشة خفيفة بين أغصان شجرة زيزفون، واعتقادي بوجود معجبين بها، أولئك الذين كانوا يعشقونني سراً ويختبئون بين أشجار حديقة المنشية، وأنا أقرأ وأكتب وأرسم عشقي الوحيد على أوراق الشجر.

ربما كان حلمًا جميلاً، لكنه انتهى في الصباح التالي بكابوس مسكون بصوت لن يغادر هذا المكان بدوني، وهذا ما يجعلني أتساءل : ماذا الذي أظنه أنه حدث ؟

تساءلت كما لو أني لا أعرف الجواب وعاجزة عن التغيير، على الرغم من أنني حاولت، وأصبح الواضح هذا ليس سردًا أكثر منه مظلة .

كأني أخرج من حلم، وأنتظر آخر، آلمني الجلوس على عتبات الفصول، ومع ذلك لم أجد أي عزاء في هذا الانتظار، فيما أتنقل كالغزالة الشاردة ضمن أنفاس الرواية ؛أعرف مازال هناكَ بقعةٌ في القلب، و أنَّ الحبيبَ نبيٌّ عارف يسكن وراء السطور له ترف القلوب الخاشعة والمتماهية ..

بعد ستين سنة، وقفت عاجزة عن فهم كل العراقيل الصعبة التي حالت بيننا، لكن قد فهمت إنَّ أحلى الحبّ هو الهروب إلى أوَّل قبلةٍ، حيث الحب هو الأكثر حرجًا، لأنني لا أستطيع أن أردَّ عليه إلا بعناقٍ تذْرِف العينان منه بعيدًا عن تلك الشهوة الملعونة والعشق الممنوع..!

إذا كان الألم هو ما يعمق معنى الحياة، فنحن جيل حروب متعددة وورثة خطيئة دائمة، قد وصلنا إلى لبّ الحقيقة هو الحب والحياة بدون الحب لا معنى لها، الحب هو الحياة وحين نجد الحب نجد ملاذاً للعيش .
لذلك أحاول أن أحب لا أن أحلم، ولأنني أحاول ان أحب فينبغي أن أحلم .
لكن المشكلة ..ليس هناك شيء يُمنح مجانًا -حتى في الحلم -في الأرض، لن يحبك الآخرون مالم تحبهم، ولن يهبك الآخرون الحب الذي هو أثمن ممتلكاتهم مالم تهبهم أثمن ممتلكاتك..
هكذا كنتُ أفكّر من قبل، لكنَّني قرَّرتُ ألا أعيش بصورة الضحية إلى الأبد، لقد طويت الصفحة ..

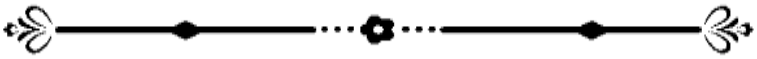

"الطريقة الوحيدة لاكتشاف حدود الممكن هي تخطي هذه الحدود قليلا إلى المستحيل." (آرثر سي كلارك)

*(آرثر سي كلارك): كاتب مؤلف روائي ومخترع بريطاني (ولد **16** ديسمبر **1917** في بريطانيا وتوفي في **19** مارس **2008**) أكبر مصدر لشهرته هو رواية الخيال العلمي **2001**: أوديسا الفضاء.

الفصل الثاني

لم يعد اختفاء هذا البيت العتيق يسبب لي أي مشكلة، بفضل قوة طاقتي الإيجابية أستطيع أن أشيد جدرانه البيضاء، و أزرع عرائش الياسمين التي تظلل مدخله، وأفتح واغلق نافذة الباب الصغيرة التي شاهدتُ فيها ذات يوم رسالة موسومة " للحب زمن آخر" ومحتواها "للحب شفاه أخرى " المرسل ..و..ح..ي..د

ربّما يرى البعض كُلّ ذلك ليس بطولات للتذكّر، خاصة في زمن كهذا الذي نعيشه الآن، هذا الزمن الذي فيه يستطيع طفل في الخامسة من عمره ولا يهم لأي قطب ينتمي أن يسافر لكوكب المريخ عبر فقط الضغط على أزرار الفضاء الأزرق ويرى العالم كُلّ تحركاته .

هذا لم يمنعني أن أرى نفسي بشكل ما.. في موقف مشابه لرائد فضاء ما أجوب هذا العالم الغريب .. لذلك "أقول أي شيء لأنني لم أستطع أن أعرف أبدًا ما هذا الشيء "الوحيد الذي يلازمني.

لا ريب في أن معاناتي تجاوزت كُلّ الحدود، قد تبيّن للعارفين أني أحترق احتراقاً من الداخل، من غير أن يتاح لي البوح، في حين ما برحتُ أبحث عن وجهة وجودي، لقد صار لحياتي حكاية مختلفة وقبلة واحدة.

كنت لا أذكرُ ربما أتمكن من حفظ تلك الصور، تلك الذكريات تلك القبلة، و القبلة كما تُسكر قد تُسعد وقد تُشقي.. لا شك أن بين الشفتين وقت يكفي للندم، الشقاء هو الذي أعطى الشفتين شكل التقوس لما يحملان من براكين نائمة .

قبلة واحدة قد تكفي لتُلهب شفتي الأنثى إلى الأبد، وتلقيها في التيه تبحث عن عصا الطمأنينة كي تهش بها حشائش الإعجاز والخوف.

بعد عدة أيام جاءت (دليلة) لتطمئن على غيابي، وحاولتُ أن أجد الشجاعة لأتحدث معها عن صديقها (أحمد)، لكن كل ما استطعت فعله هو التأتأة في ذكر اسمه ..

انتابني فجأة شعور بالخجل، ودفعني إلى التفكير فيما أخبرني فيه " أحمد " ذات يوم ؛ يجب ان أتوقف عن مغالطة نفسي، وإنّ شيئًا لن يحدث، لن أستعيد حب أحمد مهما فعلت، في رأيه، والأجدر أن أتوقف عن الأمل الكاذب الذي أضع نفسي فيه، و لن يكون بوسعي أبدًا الاقتراب منه .

كُلّ الاتجاهات التي حرّكتُ رأسي نحوها في تلك اللحظة، كان وجهه يظهر لي بها، لقد كان له وحده الأفق كاملاً في تلك الليلة، أو ربما أكثر .

ابتسمتُ لدليلة وهي تضغط على أصابعي قائلة: هل ستذهبين إلى المنشية مع سامية اليوم، وقد تحضر برفقة إحداهن، ربما يقلقك وجود رباب..

- من رباب.. ؟

- يا الله، يا دليلة: كم ترونني حساسةً أمام نغم الذكريات، لا أعلم كم ظلّت رباب مدفونة تحت فيضانات النسيان؛ لا عليكِ ستنهض طائعة من أعماق الذاكرة عندما تستدعيها الحاجة، مثل غماز صنارة الصيد لزم أعماق الماء ثم فارق خليط الوحل.

- ساعديها في استعارة أفضل الروايات من المكتبة، ومعرفة إن كان بإمكاننا قطف بعض النصائح التي تساعدنا في الحفاظ على تلك الأنوثة الكامنة في داخلنا، ونتعلم كيف نغفر لأنفسنا الأخطاء، ونفخر بإنجازاتنا مهما كانت بسيطة ومناقشة ذلك في مأدبتنا النسائية اليوم ..

- يجب أن نعرف عزيزتي (دليلة) ونعرّف الصديقات: الأنوثة صفة فطرية في داخل كل امرأة، إلا أن هناك من تتخلى عنها بسهولة مما يسبب خسارة كبرى لها على المدى القريب والبعيد، الأنوثة ليس لها عمر معين أو شكل معين، ولا ملامح محدودة ..

لا شك إن معركتنا مع أنفسنا من أشقى المعارك، في تحقيق الذات لا بد من التمرّن لمواجهة اسوأ ما يحركنا من نزعات، كي لا نظلّ حرابًا مصوبة إلى صدور من يعارضن أنوثة الفكر.

دحرجت لي دليلة سؤالا فلسفياً: هل الزمن يطير..؟

- أجل الزمن يطير و الإنسان جزء من معناه، مكلوم دومًا بسهام المرارة من ظلم وطغيان وتجويع وتشريد؛ لقد شكل حياته من الخيبات، و سط هذا التباين والثقل، تفاقم الشك واليقين وبنى أيامه بأحجار الأمل.

والأنوثة إحساس داخلي، وروح إيجابية، هي طين المعنى و تتعارض تعارضاً كلياً مع معاني الغرور والغطرسة، لأن الإنسان صنيعة أنثى، والأنثى هي الأنثى: من أول سفر في الرؤيا حتى آخر موشور في الضوء.. في إحساسها العاشق، في صمتها، في لغة جسدها، وتصرفاتها، واخلاقها، في شغفها بعناق الحُلم، في لحظات بؤسها خلفَ أسوار الذاكرة، وحتى في صرختها الصّمّاء كلّما رماها الزمان بقسوته ؛ ليكون من قربان هذا الجسدِ سارقُ الحلم .. لذلك يقال :" علم رجلاً تكسب رجلاً، علّم امرأة تكسب أسرة وآخر ينقض ذاك الفكر : "المرأة لا تحتاج إلى التفكير بالمعنى الذكوري"..

واستأنفت (دليلة) الكلام وقد أفلحت في كسر امتناعي عن الكلام :

-من العجيب أن تطلق أم على ابنتها اسم أحلام، ولم يكن لديها أيّ مشروع حلم ...مثل أحلام كهذه هي الرغبات التي ولدت دون أحلام؛ كل ما في الحكاية يغري السَّرد خصوصًا المرأة الذكية، التي تقدم نفسها بكبرياء، ولا ترمي حبالها في الانقضاض على الرجل أو استمالته إلى البراكين الخامدة .

الصمتُ شيءٌ ميّتٌ لا يحيا إلا في اللحظة التي يغرق الحقّ فيه، ويتدخل القلم ويجعله بحراً له بين الأصابع ؛ تناهتِ القِصّةُ، ومن حيث تنتهي مبكرًا فصول الأنوثة الأربعة تبدأ.. وعليها في هذه الحالة أن تبحث عن النقطة التي تبدأ منها .

لم تَكُنْ تَدري فاطمة أن عينَ الموت كانت على زوجها (حسام)الذي واجهَ الاغتراب مرارًا بشجاعة قلَّ نظيره؛ يقاطعها القلق كيف لها أن تعود إلى فينزويلا دون شريك عمرها (حسام).. ؟

تمر السحب فوق المدينة عابرة أحياناً، ورمادية قاتمة أحيانا أخر وكانت الأم (فاطمة) تركض لاهثةً دون أن تدري لماذا، ولا إلى أين ، ودون اتجاه محدد ..

كان المطر ما يزال يسقط لما وجدت (فاطمة) نفسها تقف كمتسوّلة جوّالة بين مستحيلين ..بين أولئك القاحلة قلوبهم، و بين من يذبل في أعماقهم وردُ الإحساس .

بين حين وحين كانت رتابة الكلمات تكسر حدّتها بمنظر المقهورين، لذلك لم أشأ أن أسرد الكثير، قد قرأت: "إنَّ سرد الحقيقة دوماً يتطلّب جهداً أما الكذب فهو أسهل بكثير"، كما تقول فيليس تشيسلر. و هي عالمة نفس، ومعالجة نفسية، ومؤلفة، وأستاذة جامعية، وكاتِبة أمريكية.

تهمهم قائلة: من يدري كم من أمراضٍ جديدة ستظهر نتيجة القهر ..؟

- تعود وتكرر بصوت يشبه هسيس الحطب القول: لقد بلغت (سيلفا) مأربها أخيرًا .

نظرت (أمل) إليها مدهوشة وسألتها: من تكون (سيلفا) يا أمي؟

- أجابت الأم فاطمة :أنا لم أعرفها ولم أرها عن قرب، وصفها لي ابني منصور: كانت امرأة طويلة القامة في حوالة السابعة والعشرين من العمر،

بشعر أحمر اللون ذي سحنة نحاسية و وجهها يشع جمالاً رغم أنه خالٍ من مواد التجميل.

- قد كنت رأيت صورتها مع أحد زبائن محل ابني (منصور)أثناء تواجدي في سفرتي الأخيرة إلى فينزويلا إلى جانب العاملة (ريتا) التي تعمل في متجر منصور على صندوق المحاسبة في "أكريكوا " تلك المدينة الصغيرة في فينزويلا ..

وهو يدفع قيمة البضائع التي اشتراها سقطت الصورة أرضاً منه مع مجموعة أوراق ..فالتقطها بسرعة البرق، وبعدها سقطت صورة أخرى وإذ هي صورة (ليلى) زوجة منصور، هذا أثار فضولي.. في تلك الفترة لم أعلم أن جده كان صديقًا لوالدك حسام، لأني لم أعرف هذا الرجل من قبل .

- وبعيدًا عن ضبط النفس، صحتُ بأعلى صوتي: أريد من فضلك أن أرى الصورة ..أين هي تلك الصورة ؟

لن ينفعني الصراخ شيئاً ؛ اكتفى الزبون بالابتسام وتجاهل كلماتي وخرج مسرعًا .. وعندما أدار رأسه كان هناك شيءٌ أشبه بالنظرة الموحية بالعتب - التي تشي بالتساؤل والدهشة — وهو الأمر الذي جعل (ريتا) تجفل .

و ساورت (ريتا) الدهشة ؛ وظلّت متماسكة لنحو خمسة عشر دقيقة ثم كانت تصيح بصوتها المتهدّج الضعيف، وكأنما تريد أن تضفي طابعاً حميمياً أكبر على الأمر ..

وأخذ يستولي عليّ إحساس بالقلق، كانت تريد أن تفسر ما جرى، لكنها كانت تخشاه من جهة أخرى، وبصوت أكل نصفه الخوف، والنصف الآخر التدخين أخذت تصرخ ..

بدت في البداية أنها لم تنتبه إلى شيء، ثم توقفت وخفّضت من صراخها، ثم انهارت وراحت تقص على مسامعنا أشياء لا يمكن تصديقها، ربَّما مثَّل لها ذلك راحةً كبيرة، وأزاح حملاً ثقيلاً عن كاهلها.

ولكن برغم ذلك حتى عندما كانت تبكي وترتعش كنتُ أشعر بأن هناك شيئًا شديد الخصوصية والتعقيد قد تخلَّت عنه في مقابل الراحة والشعور بالأمان.. لم يكن من الممكن الإفصاح عن الحقيقة كلها؛ لأنها هي نفسها لم تصل إليها .

لم تستطع أن تشرح لنا ما كانت تريده، بل حتى وصلت إلى أنها لم تكن تريد شيئًا على الإطلاق منه سوى بعض من فُتَات الحب..

بكت (ريتا) مرة أخرى من شيء قاله لها الزبون نفسه، لكنها لن تقول الآن شيئاً لمنصور، وسقط منها منديلاً صغيرًا اثناء بكائها، صورة قبلة لشفاه أنثى طبعت على المنديل القطني المطرز بشكل أنيق ..

- التقطتُ المنديل بسرعة دون أن ينتبه لي أحد ، وقررتُ أن أخفي هذا المنديل حتى ألتقي بابني منصور في البيت على انفراد .

سألتُ منصور: ليس ثَمة خبرٌ عن السنيورة (ليلى)..؟

لم يكترث منصور بالسؤال مثلما لم يكن يكترث في حياته لنفقاتها وسفرها وتصرفاتها..

أوقدت (ريتا) الغلاية، وكان (منصور) يتمتم ببعض الكلمات لنفسه كما كان يفعل عادة وهو يجلس أمام شاشة الكمبيوتر.. ما كان يرفع صوته كثيراً، لأنه ما كان يحتاج إلى ذلك فهي كانت ذات سمع مرهف، ومع ذلك كانت قوى الكون تهيب بها أن تكون على حذر من منصور الذي كان يتحدث إلى الجهاز في بعض الأحيان، وقد يتفوّه بكلمة "مستحيل" عندما يواجه صعوبة أو تحديًا ما، أو قد ينفجر ضاحكًا على مزحة، ولكنه لا يتذكرها عندما تسأله عنها فيما بعد، هو رجل ساخر ناقم أبدًا، يحاول أن يطرد عنه المخاوف الزائفة .

- إنّ وجه منصور تغضّن كثيرًا، كان وجهه، في ذلك الفترة، يحمل شيئًا يشهد بقوة على طابع وجوهر حياته كُلّها، بالإضافة إلى الجيوب الطويلة والمتورمة التي برزت تحت عينيه اللوزتين اللتين هما دائمًا ساخرتان .

نادته (ريتا) قائلة: هل تريد قدحًا من الشاي؟

ولدهشتها الشديدة وجدته قد نهض من مكانه واتجه صوب الغلاية.

قال: إذن ريتا ...

ماذا إذن، ..؟ فقد اتصلت.. مَنْ ؟

السنيورة ليلى؛ لقد عادت باكراً اليوم .

-لم أسمع صوت سيارتها...

أسألك إن كنتِ قد سمعتِ ..؟

-إذن ما الشيء الذي اتصلت من أجله معكِ؟

-لقد كانت تريدك أن تذهبي وتساعديها في ترتيب المنزل.

هذا هو ما قالته. .غدًا.

-وبماذا أجبتها؟

-لقد قلت لها: بكل تأكيد، ولكن من الأفضل أن تحادثيها بنفسك وتؤكدي على ذلك.

قالت (ريتا) وهي تصب الشاي في الأقداح: ولِمَ أفعل طالما أنك أخبرتها بذلك؟

-لقد قمت بتنظيف المنزل بعد انتهائي من جرد الحساب اليومي بالفعل قبل أن تغادره، ولا أدري ما الذي يمكن أن أفعله ثانية بهذه السرعة.؟

أدركت (ريتا) على الفور ما يرمي إليه منصور، ولكنها أخذت الحديث على محمل المزاح.. يبدو أنه يريدني أن أراقب زوجته وأنقل له تحركاتها.. ومراقبة (ماركو)..

استمر (منصور) في حديثه كما لو أنه لا يُنصت إليها بالمرة.

فقال: بإمكاننا أن نقول إننا سنلجأ إلى القضاء؛ فالناس تحصل على النقود من وراء تلك الأمور طوال الوقت.. ربّما كان تلميحًا منه على سلوك صديق سيلفا..

-كيف تفعل ذلك؟

-ليس بإمكانك مقاضاة رجل يعيش كما يعيش الحلزون في أقبية القضايا المظلمة ..

قالت ريتا:

-لا أدري كيف استطعت البقاء كل هذا الوقت – ألا تكون ابنتك قد سمعت حديثنا ؟

-لا بد أنك تعيش في الخيال، أو أنت تمزح ..

رد منصور: لا، لا أمزح في الواقع.. كان صديقك يا ريتا عاشقاً، نعم، لكن لامرأتين، لم يتمكن من بلوغهما: الأولى اسمها سيلفا والثانية التي لم تقلّ عنها عنادًا هي ريتا ..

- أنا كنت أقول لزوجتك ليلى :أين أستطيع لقاء سيلفا لأنبهها عن ماركو؟

- وطرق منصور طاولة المكتب بأصابعه وقد نفذ صبره متسائلاً وماذا يهم؟

-إنه كما وصفوه لي، وأنا لا أتجنى عليه، أنه حقه في ما يرغب.

أخبرته (ريتا) أنها لا تريد أن تتحدث بشأن هذا الأمر مرة أخرى، فوعدها منصور بألا يفعل.

ولكنهما تحدَّثا بالفعل بشأنه في اليوم التالي، بل وفي اليوم الذي يليه ولعدّة أيام بعدها.

لقد كانت تراوده في بعض الأحيان أفكار وآراء جهنمية ولا يمكن تنفيذها، بل إنها قد تكون غير قانونية على الإطلاق، وكان يعبرِ عنها بشغف متزايد ثم يطرحها جانبًا دون أن يدري ما السبب.

وقفت (ريتا) عن قولها: بأن الأمر مجرد مزحة، وبدلاً من ذلك، أخذت تخبره بأنه لن ينجح، لسبب واحد؛ وهو أن الناس يتوقعون أن يكون سلوك القضاة على هذا النحو؛ لذا فالأمر لن يستحق سداد أي نقود للتغطية على الأمر وإخفائه.

كرَّر عليها هذا الحديث بهذا الأسلوب مرارًا وتكرارًا، وحاولت. أن تثنيه عن ذلك ولكن بلا جدوى، فقد كان مصرًّا.

سألتُ ريتا لماذا هذا الإصرار؟

أجابت ريتا :كل هذا بسبب ما قد كانت تحكيه له (سيلفا) المحامية، وهي أشياء لا تستطيع أن تتراجع عنها أو تنكرها، هي معه وضده في آن.

لمرة أو مرتين انفجرت (ريتا) ضاحكة وفعلت أشياء تافهة لمجرد أن تلطف الأجواء وهو الشيء الذي تفعله مع (منصور) عندما لا تكون حالته المزاجية على ما يرام، ولكن لم يعد الأمر يُفلح معه.

قطعت (ريتا) حديثها قائلة: يا إلهي، كدت أنسى.

ثم هبَّت من مكانها وبدت مكتئبة إلى حدٍ ما، ولم تستطع (ريتا) أن تمنع نفسها من الشعور إبَّان كل لحظة من لحظات التعاسة التي عبرَّت عنها وقالت لي :لا عليكِ، جميعنا نكون بحاجة للبكاء في بعض الأحيان.

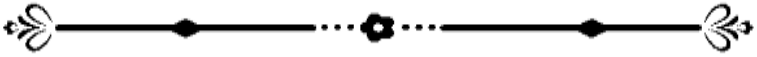

وتابعت القول :من الأفضل أن أُحضر كوبًا من الماء..

واستغرقت ريتا بعض الوقت لإحضار كوب من الماء البارد، وهي تفكر فيما ينبغي أن تقوله أو تفعله بعد ذلك، هكذا شعرت ..

شرعت (ريتا) في البكاء مرة أخرى وقالت:

- هل أهرب منه ؟ لو كان بمقدوري ذلك لكنت فعلته..

- سأفعل أي شيء لأهرب، ولكني لا أستطيع.. تساءلت في نفسي :

- ما الذي يدفع ريتا للهروب خارج البلاد ؟

وقلت لها: تتحدثين كما لو أنكِ قررتِ ذلك بالفعل.

استأنفت (ريتا) كلامها ببسمة صغيرة بعد أن أخذت نفسًا عميقًا وقالت:

-كيف يكون ذلك، - كان يفكر – إن كنت رأيتها منذ عشر دقائق معه في البيت ..كل ما يمنعني هو ذاك الرجل الذي سألتِ عن اسمه..

قالت صديقة لي غير مرّة: كثير من النساء في زمن السقوط سِلع تُباع وبضاعة رخيصة؛ من يا تُرى يحدد سعر هذه السلع..؟

- وأخرى قالت: احذري التعامل مع هذا الصنف ؛ إنه سيكسر قلبك في يوم ما هذا الرجل، وهذا أمر مؤكد..

- وقال آخر عنه: إنه هائم، واحد من أولئك الهائمين على وجوههم.. لذلك أخاف التورط في أي علاقة معه.

ربما كانت (ريتا)مرتبكة بصورة أكثر مما أتخيلها و رغم ذلك تابعت القول: حسنًا، الآن أنصتي سنيورة إلى ما سأعرضه عليك.. رجاء، لا تقلقي

يا سنيورة و أخذت يدي وكلمتني بصوت قلق قريب إلى الهمس وبلغة مبطنة.. دعتني إلى عدم تحميل الأمر أكثر مما يستحق.

وأخذت تحدثني عن شخصية (ماركو) صاحب الشخصية المركبة المثير للفضول والشكوك :

- لا بأس به، لكنه مسرف في الفوضى قليلاً.. هو من ذلك النوع الذي يلاحق النساء الساذجات، و لا يتمتع والده بالحقوق المدنية بالمعنى المقبول، هكذا أخبرتني سيلفا في لحظة غضب.

بشرتهم في هذا البلد يا سنيورة تصيب بالارتباك، فالرجال الذين يحرسوننا أو يسرقوننا ويبيعوننا هم سود.. وقد أكدوا لنا في عدة قضايا تعرضنا لها هنا في بلاد المانغو أن الرجال البيض لا يريدون ابتلاعنا، وعلى الرغم من ذلك استمر اختطاف رزقنا سنيناً.. وأرى إنه سيكون من الأفضل لنا جميعًا أن نتجاهل ما رأيناه، فالتصرفات غير المسؤولة من البعض قد تؤدي إلى ما لا يُحمد عقباه.

- وتابعت (ريتا)قائلة: سنيورة (فاطمة) أرى واجباً عليَّ أن أظل أتحدث إليك بشكل عام عن هذا المجتمع هنا وعن الهنود الحمر السكان الأصليين لهذه البلاد؛ لأن خلفية هذا الرجل يجب أن توضح لك.. فقد كان لحياة الفوضى التي تعيشها البلاد اليوم أثرها القوي في سلوكه.

- لمعت عينا (منصور) وحملق ببلاهة وقال :أتظنين ذلك ؟

- لكن يبدو لي أن هذا التحليل بعيداً عن المنطق.

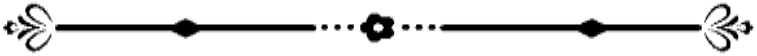

- وهل يوجد تحليل آخر؟

- اذهبي إلى ليلى إنها تنادي لك ..

-هاتفت ليلى، ريتا وأخبرتها أنها ينبغي أن تحضر إلى المنزل، وكان عليها أن تأتي سيرًا على الأقدام؛ فهي لا تستطيع أن تذهب إليها لتأخذها؛ إذ إنها لم تستطع وهي في هذه الحالة العصبية.

قالت ريتا :

- ذهبتُ لأفتح الباب الأمامي، فوجدتُ مظروفًا أُلقي من فتحة البريد ودون طابع بريد، ولم يكن هناك شيء مدوَّن فوقه سوى اسم سيلفا قالت ليلى:

- هل سمعتِ صوت هذا وهو يوضع في فتحة البريد؟ هل ترامى إلى مسامعك وقع خطوات أحدهم في مدخل البيت؟

-كيف أتى هذا إلى هنا بحق الله؟

فتحت المظروف وأخرجت منه سلسة ذهبية يتدلى منها اسم ليلى مع اسم ماركو ومن الوجه الآخر اسم سيلفا واسم ماركو

- قالت ريتا: لقد نسيتء أن أحكي لكِ ذاك الأمر.، وأن هناك رسالة قصيرة على الجوال.

- صرخت ليلى: لا تقرئيها، لا تقرئيها، لا، لا ..لا أريد أن أسمع ما بها..

قالت ليلى وهي تعني السلسلة: أبعدي هذا الشيء، أخفيه بعيدًا.. أخفيه الآن..

لم يكن منصور على نفس درجة الغضب التي كانت عليه ليلى.

قالت ريتا :

- كانت تبدو ليلى شخصية انفعالية تمامًا وكانت ترتجف حينما كنت أتحدث إليها، ولم تذكر شيئًا عن علاقتهما بـ (ماركو)أقصد(سيلفا) و(ليلى) أمامي على الإطلاق.

وأردفت ريتا قائلة :

إنها لم تكن لتفعل؛ فقد أرادت أن تصل لماركو مباشرة، يجب أن تذهب وتتحدث معه وإلا فعلتُ أنا..

قال منصور:

- سأضعها عند حدها، تمامًا.

- لن يكون هناك المزيد من المشاكل، يا له من موقف مخزٍ !

قالت (ريتا) وهي تدفع بالمظروف داخل جيب منصور:

- سأعطيها هذه، لا تشغل بالك ولا تهتم بالنظر إلى المظروف، إنها هديته الموسومة بصورهما، وأخبرها أن تكف نهائيًا عن فعل مثل هذه الأشياء وإلا ستزجُ الجميع في مشكلة كبيرة، عليها أن تكفَ نهائيًا. يكفي هذا ولا تحاول فعل أي شيء.

وتابع منصور التأكيد قائلاً:

-إن الأمر يعتمد بالتأكيد على ما تريده (ليلى).

هل ترغبين في مغادرة المنزل يا (ليلى)؟ أعتقد أنك أحببتِ المكان هنا، وأظن أنَ لك بعض الأصدقاء.

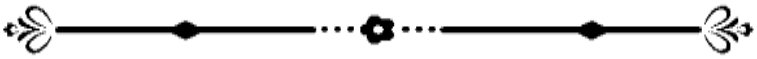

سألها (منصور): هل أنتِ بخير ؟ إنّك لست على ما يُرام .

قلتُ له: لقد كنت محقًّا، إنها في خطر محدق..

تنهد (منصور) قائلاً: لا، لا أعتقد هذا، ولكني اخشى الآن أن (ليلى) في خطر.

-توقَّفتُ عن محاولة اكتشاف سبب هذه المشاجرات؛ إذ وجدتُ أن لها في كل مرة سببًا مختلفًا ؛فقد استلقيت الليلة في الشرفة واعتقدتُ أنَّ هذه المشاجرات ربّما تكون بشأن رحيلها؛ بشأن اتخاذ (ليلى) لهذا القرار بمفردها، ربما كان السبب هو نفس السبب في كل مرة؛ أنهما لا يستسلمان أبدًا.

كانت (ريتا) أيضًا قد صرفت النظر عن فكرتها بأن هناك نقطة ضعف بداخلهما —فمنصور يمزح طوال الوقت لأنه كان حزينًا بداخله، أما (ليلى)كانت تتسم بالحدّة واللامبالاة لأن ثَمَّةَ شيئًا بشأن (منصور) كان يجعلها تبتعد وتحجم — وأنها إذا كان بمقدورها — أي ليلى — أن توضح ما بداخل كلٍّ منهما للآخر لسارت الأمور على نحو أفضل.

إذ كثير من الأمور كانت تثير فضول (منصور) لكنه لم يكن يجرأ على طرح أي سؤال على (ليلى)، كانت تنتظر اللحظة التي تنفرد فيها مع ريتا بفارغ الصبر.

- لاشك إن ريتا امرأة تعرف كل أسرار ماركو ؛ يبدو أنها تعيش عمرها طولاً وعرضًا.

حينئذ استدعت الأم فاطمة إليها ريتا وتهمتها بالتآمر على سعادة البيت والعمل .

-فأجابتها ريتا بكلمات تخلو من الذوق، قائلة: من المناسب التفكير في تنظيم البيت على خير وجه قبل توجيه أي اتهام لأحد .

وقد كان (منصور)يشير إلى مشاجراتهما بالخلاف، فيقول:

- آسف بشأن خلافنا؛ فليلى امرأة سريعة التقلّب، وكل ما يمكنني قوله يا أمي...لا يمكنني قوله الآن، من الأفضل ترك الأمور تجري على هواها..!

كل ما أستطيع قوله: إن مثل هذه الأمور تحدث، وصوّب نظره إلى (ريتا) ليرى كيف تتحمل الغمز واللمز، وكانت ريتا تحدّق النظر بصورة أربكت (منصور) أكثر مما آلمها مزاحه المبتذل.

لم يكن ثمة تشابه في الأخلاق بين ريتا ومنصور لتصبح عاملة مهمة في المتجر، ولا بين ليلى وبينه حتى تكون زوجة له، ولا بين حسام ومنصور ليكون أبًا له .

كان الأب حسام طوال فترة اغترابه أثير أصدقائه وعائلته بلا منازع .. فالتواضع سيد موقفه فلا يتحسس إلا نادرًا ..ولا يحاول أن يظهر قيمته لرفاقه، ولعلّ هذا هو السبب في أنه كان لا يخشى أحد.

آمن في شبابه كما يؤمن كل الشباب أن السعادة لا تكتمل إلا بالمال، فعمل بجد وسخّر قواه وأفكاره حتّى كوّن لنفسه ثروة ومكانة بين أقرانه.

كما حرم نفسه متعة السَّمر والعيش المترف، ومغامرات الشباب في بلاد الاغتراب، وساعد في ذلك التزامه الديني .. وتمتعه بسجايا الزوج الصالح، هو هادئ، ليس بالمتقلّب أو العنيف، فعجزت كل مغريات الدنيا عن استدراجه إلى مخادعها.

فضَّل أن يطوّر نفسه، لكن ظلَّت صفة الإنسان الطيب البريء ، الوطني المثالي المتحمس لوطنه ملتصقة به ؛ كان جلّ همه أن يجد في هذه العائلة من يفهمه بعد تجاوزه هذا العمر الطويل وإصابته بذاك المرض اللعين .

حدّثتُ منصور مراتٍ ومرات؛ أن على الرجل إدراك أن المراحل الأولى من التعامل مع الزوجة الانفعالية تكون بمثابة فك شفرة القنابل الموقوتة التي يجب التحلي بالذكاء والصبر لاحتوائها، ومحو آثارها الخطيرة التي وبكل تأكيد لن تؤثر في حالة الفشل في التعامل بها بذكاء على الحياة الزوجية فحسب، بل أيضا على تربية الأطفال وصحتهم الذهنية والنفسية فالأم والزوجة داخل البيت هي الترس الذي يدور حوله جميع أفراد الأسرة تقريبًا.

ورن الهاتف .. توقف الهاتف .. ثم عاد يرن ثانية، ثالثة .. ارتفع رنين الهاتف مدوياً كجرس إنذار، ازداد قلقي بعد الرنين الخامس، أو السادس.. كان يواصل الرنين في إصرار محموم لا يريد أن ينتهي وكأنه نذير ملتاع يريد أن يطرق باباً مغلقاً ليبلغ أخباراً سيئة.

قالت ريتا بلطف مصطنع :

- لحظة عليَّ أن أرد على الهاتف..

بعد لحظة، راقبتُ ريتا وهي تتحدث على الهاتف، لكن لم يصدر من حلقها سوي حشرجة غير مفهومة..

ورددت عدة مرات :نعم، إنه هنا الآن، وكان وجه ريتا مليئاً بالرعب، أدارت ظهرها على منصور ؛ولكن صوتها كشف كل شيء: لا ..لا .. يا إلهي ..تحول الصمت من مجرد لحظة حرجة إلى شيء آخر تمامًا .

نظرت ريتا إلى صورة ليلى المعلقة على الجدار وقالت: أخشى أنها قد ماتت، إنها ممددة إلى جانب الطريق ..والسيارة غير معروف شكلها من أثر الصدمة.

لقد كانت تخشى التغيير المفاجئ في مشاعرها، لدرجة استمرّتْ في الصراخ والبكاء المصطنع، وكأنَّ هذا الصراخ سيبقيها في العالم الذي كانت فيه قبل لحظات من سماعها الخبر .

تغلّبت ريتا على أولى بوادر خوفها، انحنت إلى الأمام بحذرٍ، مدّت ذراعها، وأخذت تدغدغ قطة ليلى برفق ودي وبكاء مصطنع ..

يطفح قلبها الآن بلذة وسعادة العيش القادم، لقد بدا على أسارير وجهها أنها وصلت إلى الفردوس، سيكون لها ما تريد.. وكأن كُلّ شيء يجري حتى الآن على نحو ما تتوقع .

توقف منصور عن النظر إلى شاشة الكمبيوتر، حدّق إليها مباشرة وأعاد ظهره للوراء ليرتاح في كرسيه، ضم يديه معًا، ووضعهما فوق رأسه، وكأنه عالم ذرة يفكر في حقيقة علمية عميقة عن الكون، وليس صاحبًا لمتجر

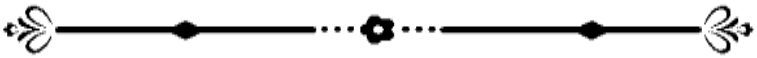

للأدوات المنزلية يتعامل مع موظفة لها حنكة في تمثيل أي دور يوكل إليها إنها شيطانة كبيرة .

اتجهت ريتا لتختبئ تحت سقف بعض المواد المنزلية ومن ثم الهروب - بشعور عميق وصحيح- بأن الأمور سوف تتجه نحو الأسوأ .

هكذا لم يعد أحد بحاجة إلى (ريتا)، لقد كانت فائضة عن حاجة المتجر ..انتهى بها المطاف حيث بدأت، في وسط الأسوار المغلقة ..

لكن منصور لم يعد يملك أسئلة كي يطرحها، كان عاجزاً تماماً كجندي هرب من معركة خاسرة بعدما شاهد فرقته تباد على أيدي اقرب الناس إليه..

كانت سيارته قد أصبحت مجرد كتلةٍ متفحمةٍ تُصدرُ دُخانًا .. فازداد لونه تغيرًا، ونكس رأسه إلى الأرض، وما كان جوابه إلا أن قال: هذا فضل كبير من الله .. حاولت أن تسرقني لكن الله كان قضاء الله أسرع دون وعي مدرك تلفظ منصور بتلك الكلمات .. صمت طويلاً، وأخذ يتنفس بصوت مرتفع أقرب إلي اللهاث قبل أن يردف في صوت خافت القول :

- تركوا الأمر هكذا فلم يكن هناك أي شيء يقال ... والصمت كان أكثر صخبًا من أي ضوضاء ؛ مطلقًا وصلبًا كالجدار المحيط بمساجين الرأي والرأي الآخر.

واصلت فاطمة القول :

- عدتُ كثيرًا لنفسي وقيّمتُ خياراتي، لكنني غالبًا ما كنتُ أغرق في الصمت، وقد احتفظت بأسوأ مخاوفي لنفسي ..في الحقيقة في هذا البلد الذي لا تعرف به متى تتوقف السماء عن البكاء، فالأمطار الدائمة والحرارة المرتفعة هما سيدا الأوقات الصعبة لكل غريب .

- أن تتألم بصمت وتحتقر المساومات، أن تكون أنت بذاتك خالصاً بلا أقنعة أو تنازلات ، أن تبلغ حالة عدم التطابق مع العالم بمكائده، لابد أن ترسل لك الحياة ملاك محبتها.

-رغم ذلك ؛ في تلك الحقبة، لم يكن لديَّ أي مكان لأذهب إليه، لم تكن لديّ أي نافذة، كنت وحيدة وخاوية، كأن اليأس قد انتشر من عقلي إلى جذعي وأطرافي أيضًا واحتل كُلّ جزء مني ..... تحرّكاتي كانت خاطئة، كُلّ قراراتي كانت كارثية، كُلّ يوم كنت أتراجع وأساوم على أحلامي .

- هل هو المأزق في عجزي عن قول ما أريد أن أقوله دوماً..؟

ربما وجدتُ في قراءتي بعض الإجابات، قرأت كثيرًا، وتعرفتُ على أن المرأة "كائن هرموني " أي تعتمد في أغلب أحوالها على حالاتها المزاجية المعتمدة أصلاً على الهرمونات التي هي جزء من كينونتها وفطرتها البيولوجية لهذا كثيرا ما تقول المرأة "نعم" بمعنى لا أو العكس .

هذا الأمر جعلني أروّضُ نفسي لتقبل أصعب الأشياء والبعد عن جلدِ الذات، واستوعبت أكثر الحالات صعوبة بعد معرفتي ؛أن الحالة النفسية مرتبطة بالناقلات العصبية التي يؤثر عليها هرمون الأستروجين.

إنها لحظات كهذه تجعلني ادرك مدى تناهي الخلق، وأحياناً أحتاج فقط إلى التراجع خطوة للوراء كي أجد الطريق المؤدّي إلى الحقيقة ؟

لا معنى للحياة تحت قُبَّة حديدية حارقة تَكبر معها الغصّةُ في حلق المهمشين، ويتلاشى معها كل معنى للمكان وللإنسان اليتيم..

- أنا امرأة لا تنسى شيئاً وترى ما تفتقده أكثر.. إني آخذة في السن، وغارقة مرة أخرى في حب الحياة، رغم أني كنت روحًا تنتظر أن تُلفّ بالكفن الأبيض و تنعم بسلام تراب الوطن ؛الوطن هو الوحيد، الذي يستضيف الحقيقة، وهو: ملكوت الروح..!

- هذا إن كفنوني، لا أعلم إنْ يعرفون هنا في فينزويلا معنى الكفن، مشيتُ حتى وجدت نفسي أمام بوابة كنيسة سانت ماريا العظيمة، فجثوت على ركبتي، غير قادرة على الحركة من هول ما رأيت وسمعت .

- لو أن (ماركو) رآني، لانتهت حياتي، إنه كما علمت رجل خطير، وأنا الوحيدة من التقطت له تلك الصورة وأرسلتها ريتا إلى منصور وربما إلى آخرين ..

- كنت مشيت وبكيت لسنوات عديدة أخرى، أكمل حياتي عند عتبة زوجة الابن الأصغر، أصلي لله ليل نهار وأطلب لها الشفاء من مرض خبيث ضرب صدرها وهي في ريعان الشباب.

كانت ثمة أمور أخرى من الممكن أن تبعث دهشة، حسام بيد أنه لم يكن شديد التفكير في أكثر من أمر واحد في وقت واحد، فلم يكن متلهفاً إلا إلى توفير حاجيات البيت وراحته .

وبين حين وحين كانت رتابة الجهات تكسر حدّتها والوراء والأمام طرفا نقيض، فكيف لهما أن يتأخيا ليصبحا جهة واحدة ولا فرق بينهما..؟

الزمن إنه لم يتغير فهو على حاله كما كان دائماً يذهب ويأتي مرحباً كأنما لم يحدث شيء ، لا أحد يستطيع العودة للوراء والبدء من جديد، لكن يستطيع كل أحد البدء من يوم المأساة التي وجد نفسه بها دون أن يدري و العمل على صنع حياة جديدة والعمل بقوة الحاضر على تصميم المستقبل بدلاً من ترميم الماضي.

لهذا حين ينتابنا دُوَار الغربة، يجمّد دوارُه ماءَ العيون الذي كان يدبّ جذلاً في شرايين حياتنا ؛ يحجب ضبابُه عنا الرؤية فتضيع طريق الحقيقة على المغتربين مثلي .

ما أغرب ذلك ..! وما معناه يا تُرى ..؟

مضت الايام في سلام كالعادة، وكان مسلك كل واحد من العائلة الكبيرة بدءاً بعمي أبو سالم وليس انتهاء بحسام تجاه الآخر ضربًا من الألغاز؛ كيف تنمو هذه الغربة، أراها كحشائش السافانا تنمو بقوة الأمطار ؟ كيف تتشابك أشواكها بصلابة حول كياننا ؟

ذات أصيل تحاول (فاطمة) أن تجمع قطبي الحقيقة، قطبان يجمعهما رمز واحد، أوَّل البداية، آخِر الحكاية، يصدم أَحَدُهُما الآخَرَ في لعبة أحرف وكلمات فوق صفحات بيضاء في محاولة لاستنطاق لسان الحال الذي يحاول الإفلات من اللهفة التي تهبنا شكلاً تهرب الأقلام منه حين اكتماله.

والكلمة حسب (باختين): "ليست خلية معزولة في يباس القواميس، بل هي"ظاهرة اجتماعية – اجتماعية في كل دوائر حياتها، وفي كل لحظاتها: من الصورة الصوتية حتى أشد طبقات معانيها تجريداً".. بل هي الوجود..

بين فتح زجاجة الكحول و شهقة الروح وسحر الحياة، وغَلْقها لصدـ محتشدات الخوف، والحرب، وهجوم "كورونا " تنهض سيرتها، وتقوم مسافة سيتعذر اجتيازها بغير إشارات مرور تنظم قبلة الحياة، وحركة الأمصال على وريد القلب .. فقد كشفت لي تلك الأنوثة السائلة إلى أيّ حدٍ هي أمٌ فاشلةٌ، وعاجزةٌ بشكل تام عن التحرك في مثل ذلك العالم .

تبتلع (فاطمة) عددًا من كبسولات الوهم، لحماية الحاضر من مخالب الآتي، وتبتلع معها تتمة الكلمات وتطلق آهةً عميقةً، من يسمعها يشعر أنها تنبعث من مركبة فضائية ..

تختصر بها المسافة والزمن والمستحيلات، فتتضاءل حدّ الحسرة والألم، ولكن ستطلق أخرى، فيسهل، حينئذٍ، مسح الأنا لسبر الأبعاد المجهولة لهذا القادم المجهول، أملا في كتمان منصور للسر، فذلك كان إفراطاً مسرفاً؛ وحتى لو لم يقل منصور شيئاً فسواه حريٌّ أن يتكلم .

ومن هناك غذَّت مسيرها ..ووضعت خدّها على راحة السكون المطلق .. هل ترقد في الظلّ وتدفع بحواسِّها في تقصِّي مركبة الحقيقة ؟ كيف ماتت زوجة ابنها الثاني أيضًا ..؟

هل كان حادث السيارة مفتعلاً من قبل زميلتها المحامية(سيلفا) التي أخذت منها قيادة السيارة وهي الشاهدة على خلافها الدائم مع زوجها وحقيبة المال الموءودة في سيارتها ؟ هل تلزم الصمت أو المواجهة؟ وفي أيهما الجدوى؟

ما معنى وجود المنديل المطرّز عليه شكل شفاه أنثى باللون الأحمر مع تلك الصور ؟ ومن أين أتى به المحقق بالحادث ؟ وإذا كان المنديل يخص (ريتا) ماذا يعني هذا ؟

- يا إلهي.. هل هو نفس المنديل الذي التقطته من فترة أثناء وجودي إلى جانب ريتا في المحل التجاري العائد لابني منصور قبل عودتي بأيام إلى سورية..؟!

خالجني الشك في كلام (ريتا)،أسئلةٌ كثيرةٌ جدًا، والإجابات تحمل عشرات الدلالات؛ ولم أستطع حتى الإشهار عنهم، فطائر الوسواس كان قد عاد وعشش في صدري من جديد.

كنت مستغرقة في أسئلتي تمامًا، وأنا في الحمام، لم ألتفت إلى ما يحدث حولي، وفجأةً خُيَّل لي أني اسمع شيئًا غريبًا في صالون البيت، ولم أكد ألتفت حتى وجدت نفسي أتعثر في الووكر والكرسي التي أضعها بجانبي كي

أمسك بها لأصل إلى الووكر بعد أن فقدت مفصل قدمي، ثم أسقط على يدي سقطة قوية وأحس بألم هائل كاد يفقدني الوعي .، وذلك بسبب انقطاع الكهرباء وحالة التقنين التي يعيشها الشعب السوري نتيجة الحصار الاقتصادي والحرب الظالمة على سورية ..

ما هذا الصوت الذي أسمعه: " انهضي كأنكِ ما سقطتِ ..انهضي كأنّكِ ما كُسرتِ.. "..إنها (أمل) عادت تقول: انهضي، أنت التي خضعتْ لهيبتك الرجال والتلال وماجت بكِ رحلات الطيران، أتخضعين يا أم منصور، والله ابنك ليس له من اسمه أي نصيب بالنصر لا تنتظري منه أكثر من ذلك .. قومي، قومي .. كي نتدبر أمر البنات الذي أرسلهم إلى سورية ولم يأت بعد ولم يفكر في احتياجاتهم العاطفية في غياب الأم بهذا الحادث المفجع.

لم يعد هناك شيء مخبأ في المنزل، وهذا شيء مخيف إلى حد ما، فليس من المنطق أن تخرج حفيدتك (سهى) بنت منصور من المنزل ليلا في هذا البرد لتشرب القهوة مع أصدقائها، فلا حسيب ولا رقيب .

_أمر مثير للغاية في مجتمعنا الشرقي أن تخرج كلّ ليلة في منتصف الليل لهذا الغرض ولم تبلغ الخامسة عشر من العمر .

اقتربت مني قليلا وأمسكتني أمل كطفلة صغيرة وتبادلنا الأدوار، وهذا يحصل في التقدم بالعمر وكانت تستمع إلي بصمت وصبر، لم تقاطع حديثي أبدًا ولم أجد في ملامح وجهها شيئاً من تذمر أو ضجر ..

كنتُ أتكلم بلا توقف إلا لالتقاط ما كان يثير شكوكي، وكانت تنصتُ إلي دون تأفف، وكنتُ قد توقفتُ قليلاً لالتقط أنفاسي، وإذ بها تدفعني للكلام قائلة :أكملي ماذا كنت تحدثين نفسك بالحمام .. وبصوتٍ ضعيف واهنٍ، وبعد أن أزلت بحرص أسناني الاصطناعية ووضعتها في كوب من الماء، اعتليت مقعدي الذي اعتدت الجلوس عليه بطقطقة مفصلية .

وعدت للقول: أنا منهكة بالتوتر ومتخمة بالاستنتاجات والانفعالات، كيف لي أن أطرد شبح الرجل الذي عرفت فيما بعد أن اسمه (ماركو)، تلك هي الأفكار التي توقظني من نومي فأهب من العذاب في منتصف الليل...لكن ما هو الشيء الذي يكمن وراء هذا الرجل ؟

إنّ ميراثًا عظيمًا من الخبرة تراكم بسبب هذا المسكوت عنه، والمشكلات التي لم تحل أبدًا، قضيت تلك الفترة في بيت ابني منصور في (أكريكوا) فيما يشبه المشي على البيض دون كسره، لتفادي انفجار القنبلة داخل منزله نتيجة مشاحناته الدائمة مع زوجته ليلى، ليس ثمة راحة هنا.

لا حقًا أحاط حياتي الصمت والغموض الذي أحاط حياة منصور ، وقد تجمع ببطء ذلك الإهمال القاتل البارد ما بين منصور وعلاقة (ليلى) بـ(سيلفا)، ونجح هو في مواصلة الكتمان كالمعتاد، وحاول أن يستمر في معاملة ليلى بالطريقة نفسها لا يرفض لها أي طلب، لعلها تعود إلى رشدها، هذا الانصياع ورطها في أمور كثيرة دون أن يشعر.

-ولكن هل نجح ؟

-لا أعتقد ذلك، وكانت نوبات الغضب تبرر نفسها بسهولة في ذلك الوقت، حيث أعصاب ليلى دائمًا ثائرة من فرط الغرور والتعالي ومشقة السفر اليومي ما بين "أكاريكوا " وجزيرة "متورين" حيث يوجد أهلها من أصل سوري وأصدقاء المسابح والملاهي والسهر.

كان الناس يتعاملون معها بود، لكن كان ذلك في البداية، وفيما بعد انتابها شعور بأن الناس من العرب يتحدثون عنها من وراء ظهرها، وكانوا يرمقونها بنظرات إلى حدٍّ ما كما كانوا لو سمعوا شيئا ما ... إشاعة كاذبة .

هكذا يردد منصور ؟

ما هي الأحلام التي صورتها ليلى لزوجها منصور بعد أن سحبت من البنك كل ما يملكه وأوهمته بأنها ستقوم بتجارة العقارات ..؟

-لقد تحاشى الاختلاط بالجالية العربية بعد ذلك وانغلق على نفسه، يا له من شعور غير سار أن يتغامز الناس عليك ويتحدث عنك..!

إن منصوركالمقامر الذي لعب بكل ثروته ثم ربح رغم الاحتمال الضئيل في الربح ..!

هل تعامل مع الأمر بشكل جيد ؟هل نجح في إخفاء مشاعره؟ هل أظهر القدر الكافي من الشعور بالإهانة والاشمئزاز وليس الذنب وعدم الراحة ؟

يصعب الحكم على الأمر ؛ فقد كان هناك بعض من اللغو الفارغ الذي يصعب تصديقه.. والكثير يدرك، "إن الصرح الكامل للسلطة الأنثوية

مبني على حجر الأساس ذاك: العفة هي جوهرها وركيزتها الوسطى التي تجعلهنّ يصبن بالجنون لحمايتها، ويمتن حين تسلب منهن ."

-إن مرور الزمن في أحايين كثيرة يجعل الإنسان أقدر على فهم الأحداث وإدراك أسبابها ومسبباتها، والمهم هو أن ننظر إلى المشكلة نظرة شاملة، نظرة تحيط بكل جوانبها ..

- هل هذا يعني أنهما كانا في اسوأ حالاتهما ..؟

- نعم، عرفتُ بعض الشيء، وعلى مدار الحديث تبيّن أنَّ (سهى) قدَّرتْ حجم الكراهية الكبيرة التي تسود علاقة أبويها قبل شعورهما بذلك ؛ ففي ليالي طفولتها كانت تبقى مستيقظة تستمع إلى مشاحناتهما المتبادلة.

نظرت إلى سهى وإذ أصبح نظرها مثبت في سقف الغرفة وجزعها لا يوصف في عظامها .. وتعود بذاكرتها وتوصّف لنا كيف كانت تمتمات أمها في مناجيات هاتفية طويلة مع اصدقائها تؤرقها، وكيف كان الصوت يصلها مشوهاً عبر الأبواب المغلقة، وكآبة روحها .

لم تكن تفهم معنى الكلمات، لكنْ مخيلتها كانت تمنحها المعنى، وكانت تدرك أنها تتكلم عن ثروة أبيها .. وحين استطاعت الطفلة أن تحل الرموز الصغيرة عبر رسائلها الهاتفية، عرفت أنها ستذهب بعيدًا ذات يوم ..

وهذا ما حدث فعلاً في آخر الأمر، لقد كانت أمها امرأة عابرة في الحياة؛ تقف متمايلة من جهة إلى أخرى .غير قادرة على السكون ، بصرها يضيع في المكان وتنتقل من موضوع إلى آخر بشكل مفاجئ أثناء الحديث، تسأل ولا تصغي إلى الرد .

بدهشة واستغراب تابعت كلامها سهى :

- وها أنا الآن تائهة، التعاسة تتسرب من جميع مساماتي، تغرقني، لم أعد استطيع إيقافها، وأصبحت حماية ليال من أي أذى أكثر صعوبة .. انظروا إلى عينيها، دائما شاردتين، لم تعودا عينيها السابقتين المعهودتين، لقد امتلأتا بالظلال والسواد وكأنهما يحملان كل وجع الكون، نعيش في هذا البيت حالة خراب واضطراب، ليته أبي لم يعد من فينزويلا، كان أرحم لنا، من أن نهرب من نار فينزويلا إلى نار تلك المرأة التي تزوجها أبي منصور (فراشة الفيس بوك) ..!

وهمست أمل بصوت منخفض حتى بات غير مسموع تقريبًا :

- لقد تفتحت الفتاة مبكرًا على اندفاعات الحياة، قد تعرضت لهزات داخلية وقلق مغامرات وكثيرًا ما كانت تلك الانفعالات العاصفة تعكر أحلامها وتبعث الحمى في أيامها، وهذا نتيجة أن الأطفال يسمعون دائمًا مالا يفترض بهم أن يسمعوه .

_ تتنهد (فاطمة) بحزن عميق وهي توصّف الحالة :إنهما وصلا إلى مرحلة الطلاق العاطفي، فأصبحت هي تعيش في عالم آخر بعيدًا عنه، فتسلل اليأس والعجز إلى قلبه دون أن يعترف بذلك .

كانت في الماضي (سيلفا) مجرد جارة عادية لأهلها في "متورين"و زميلة دراسة ل (ليلى) زوجة منصور والآن أصبحت تملك عدة عقارات في ضواحي جزيرة "متورين "الفنزويلية، وأصبحت مساهمة خطيرة الشأن في عدة قضايا كبرى، ولها علاقات مشبوهة، وقد استطاعت في بعض الأوساط أن تكون رقمًا صعبًا ولا غنى عنها على الإطلاق، ومن بين هذه الأوساط الوسط القضائي للاستشارات القانونية.

و(منصور)لم يحصَّل أي تعليم، ولم يجن أية ثقافة، وزوجته (ليلى) رغم ذكائها الذي كان يصفها به (منصور) ومباهاته الدائمة بها أمامي وبدخولها الجامعة، كانت لا تخلو من نقاط الضعف التي يمكن أن تغفر لها بعد فوات الأوان على كل حال .

_ لا تهتمي يا أمي يُقال :أن كلّ محدودي الذكاء أو غير المهرة يشعرون بفوقية شديدة وتعال على الآخرين .

بينما الأشخاص الأذكياء يشعرون دومًا بالرضا عن النفس وبأنهم ليسوا بهذه البراعة، وأتذكر الفيلسوف اليوناني الذي قال: "إني أعرف، إني لا أعرف ".

وكونفشيوس يقول: "المعرفة الحقيقية هي أن تدرك مدى جهلك ".

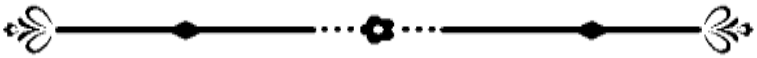

و يقول آخر :" مصيبة عصرنا هو أن من لا يفهمون يشعرون بالتفوق، بينما الأذكياء فعلا تملؤهم الشكوك ".

من الأجدر دائماً التحاور مع شخص يمكنه التعلم من تجارب غيره، و التحدث بعقلانية، ويجيد الإصغاء، بحيث تصبح المحادثة سلسبيلا تعليمياً ينهل منه الأصدقاء؛ فالأصدقاء هم أيضًا شموع الحياة .

إن معرفة كيفية انتقاء الأصدقاء من أعظم النجاحات في الحياة ؛لأن العاقل يعرف كيف يختار الأصدقاء والابتعاد عن الحمقى هو أسلوب احترازي قد يمنعه من التورط في شباك الجاهل.

كُلّ هذا والوقت يمرُّ عليها سريعًا، وأوراقها تتساقط دون أن تجد جوابًا لتحدّد مصيرها، ولكنّها فارغة اليدين وما هي الجدوى في الحالتين ؟

وكأنها تقول مع محمود درويش:" فأشهد

أَنني حيٌ

وحُرٌ

حين أُنْسَى!"

إنها يائسةٌ كيأسها من شفاء إنسان التهمتْ نسيج رئتيه كورونا المطامع والشهوات والملذات، والزلازل الاجتماعية والطبيعية، وأضافته على قائمة النسيان إلى جانب ملايين الوفيات في هذا العالم، فتهدأ بعد فوات البكاء، وضياع جدوى العزاء.

رقدت (فاطمة) في فراشها مفتوحة العينين تحدق إلى سقف الغرفة، وقد أضاءت المصباح المجاور لها، لقد كانت تخشى الظلام .

- يا أبو منصور:.. أبو منصور .. لماذا أشعر إنك قريب جدًا مني الليلة..؟

- أين هو حقًا ؟ لا أعلم ولن أعلم، فقد ذهب بعيدًا..بعيدًا وتركني أصارع هذا الزحام من الطمع وحدي ..

كأن عضلة ما في وجه "فاطمة "قد انقبضت إلى الأبد فأضفت على ملامحها طابعًا من المرارة لا يزول ..كأنها باتت تترنَّح بحملٍ ثقيل جعل خطوتها بطيئة وظهرها مقوسًا بدلاً من مشيتها الجبلية ..كأنها فقدت قدرتها على التركيز فبدت معظم الوقت وكأنها تنوح إلى الفراغ .. لم يعد يشغلها إلا سؤال واحد: كيف أصابت أكبادها هذه اللَّعْنَة ..؟

قد يكون أكثر ما يمنح الطفولة براءتها وصفاءها أننا لا نُعمل العقل، نرتمي في أحضان الحياة مستسلمين لغوايتها من دون مساجلات ..

دخلت كلمة جديدة قاموس حياتها، لا تعرف كيف، تنطقها، " قرونا "" كورونا".. هي ليست سيدة متعلمة، لكنها تحاول أن تتابع شر هذا الفايروس القاتل الخفي عن طريق البرامج التلفزيونية، وكيف لها أن تتعامل مع هذا الذي زلزل بيوت ملايين الناس ونشر الرّعب في كل من حوله .. ولم يتمكن من هز الضمائر كي يعود الحق لأصحابه ؟

وأي مفهوم للألم سيعانيه الناجون من الموت ؟

وليس هناك أشد ألمًا من أن تجد أن الله تعالى نجاك من الموت ويمنحك فرصة أخرى للحياة، وتسلبك ظروف الحصار والعقوبات السياسية على بلدك هذه الفرصة بسبب عدم توفر الآليات لانتشالك من تحت الركام ومشاغبة قوارض الليل.

ودواليب الحرب على سورية تدور بطريقة غريبة وباتجاهات يختلف فيها الواحد عن الآخر، فإذا بك ترى المواقف في تغيِّر مستمر ..والحرب ليست مجرد قذائف أو انفجار قنابل، الحرب أن تعيش دون كهرباء، الحرب هي أن تذهب إلى المستشفى فلا تجد الطبيب أو الدواء، إنها إغلاق المدارس وخلو الشوارع من المارة والسيارات ..

ورغم بشاعة الحرب أظهرت مقدرة الإنسان السوري على الصمود وعلى تحدي القهر والجوع والغلاء والدمار النفسي، و "أسوأ ما في الحرب أنك تعتاد عليها ".

ليس هنا الكلام إنشائياً، من خلال الأزمة السورية والزلزال المدمّر تبيّن أن لا شيء يجمع السوريين أكثر من طائر الرماد .. فهم على اختلاف مذاهبهم ومعتقداتهم، كنت تراهم كلَّ مرّة ينفضون عن أجنحتهم رماد اليأس ويحلّقون في السماء ناشرين الحب والأمل.

لم نجد في تلك اللحظات التي ضرب بها الزلزال تلك المناطق الآمنة في سورية في ليل عاصف يشبه ليل القيامة أثراً للحقد أو الغضب المجنون الذي يورث ضغائنَ لا تنتهي.

تحرّكت الأرض أقل من نصف دقيقة تسببت في أضرار أكبر من أن يستوعبها أكبر فلاسفة الأرض والفلكيين والمفكرين والمنجمين والجيولوجيين ..

تحتشد الصور والأفكار مدرارةً في عقلي وتتزاحم غزيرة في ذاكرتي، فيما ذهني مشوّش؛ لكني لا أعتقد أنها سوف تُمحى من الذاكرة هذه الحركة التي تسبب بها زلزال شباط **2023** في سورية وتركية .

لا أعتقد أنها سوف تُنسى جلجلة الشتاء للأطفال والرضع والشيوخ والعجزة القابعين تحت الأنقاض في كل من حلب واللاذقية وجبلة في انتظار وصول مساعدة الهلال الأحمر وفرق الانقاذ من الدول التي تبرعت بالمساعدة وتحدي الحصار القائم على الشعب السوري .

كنا نلهو بسحر الكلمات، لكن عندما أتى الخراب الحقيقي، خراب الأمكنة والأرواح، نفد الكلام؛ هذا الخراب ليس سورياً فقط كما نعتقد، فسورية هي مرآة خراب هذا الكون .

لقد سرقت الزلزال أماننا وسلامنا وراحنا وبتنا أيامًا في الشوارع بالسيارات وافترش الفقراء الحدائق العامة، ووضعنا في فخ الحاجة الماسّة للراحة النفسية والمادية، فبتنا ضحايا العولمة وما تنشره من تقارير العلماء حول الهزات الارتدادية التي لم تتوقف .

مهما يكن، فإنها في تلك اللحظات، أدركت بعد سنوات من الوهم، كيف يتحول الغيث الرحيم إلى حجارةٍ من سجّيل، وأنّ المرء لا يحيا، إنما يناضل

من أجل أن ينجو من الموت وهو على قيد الانتظار، ويتعلم بعد فوات الأوان أنه مهما طال به الوجع، لن يستطيع أن يتعلم أكثر من كيف يصنع من قلبه كفنًا لربيع عمره الذي أحرقه بيديه في سبيل حلم((لا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ))..

قالت أمل بصوت يغلفه الحزن: منصور سوف يكذب بوجهٍ وقح إلى يوم القيامة .. يكذب حتى على نفسه، ربما لم يكن كاذباً على طول الوقت، ولكنني ارى أنه اعتاد الكذب .

لم يكن منصور قلقًا قلق الزوج على زوجته أبدًا ..!

أستطيع أن أؤكد أن منصور كاذب بحق، لديه القدرة على اختراع القصص الطويلة وروايتها ببراعة، لم أكن لأصدقه قط، لا شك أن هذا أمر له أهميته، وميراث له قيمته على مستقبله العائلي والاجتماعي .

لقد كان ابنك (منصور)كالقطة على صفيح ساخن أمام ليلى، خائفًا أن تتركه والأولاد وتذهب والأموال إلى أحضان آخر ..سمّهِ إذا شئتِ انتقام الله ؛ونظرت بعينين لامعتين، ورفعت رأسها للسماء وقالت: هل تعتبرون أنه من المستحيل أن يصب الله جام غضبه على المذنب ؟

الجملة التي قالها المحقق إلى منصور - نقلتها لي (سهى) عندما ذهبت برفقة والدها للتعرف على الجثة أثناء الحادث -لا يمكن نسيانها، " نأسف لما سمعناه بشأن زوجتك يا منصور، لقد أخبرنا الطبيب الآن "..

نظر إليه وأومأ برأسه قائلاً: أعلم، إنها لعنة المخدرات .. وهل وجدت الإجابة ..؟

أقول إنها ليست حادثة، إنه جزء لا يتجزأ من الأمر برمته، إنَّ كُلّ شيء مرتبط ببعضه.

أردف المحقق لمعاونه قائلاً: تلك المحامية المنبوذة لم يكتف ضميرها بارتكاب خطيئة تعاطي وترويج حبوب السعادة الكاذبة، بل ترتكب في كل مرة خطيئة جديدة وأكثر فداحة، لقد قامت بعدة حوادث مشابهة وتثبت للقضاء أنها الضحية .

- يبدو المشهد المصور أن الضحية هي من ألقت بنفسها من السيارة ؛ تأمل المنظر لدقيقة ثم قال: إنه أمر مثير للفكر أليس كذلك؟

كانت عيناها مغمضتين، ولكنها ربما كانت على قيد الحياة، لأنها بدت للمحقق أنها تئن، وقبل أن يغطيها بعض رجال الشرطة بقطعة مشمع، رأى أحدهم منديلاً طبع عليه "قبلة أنثى"، كان شعرها مبلولاً وبشرتها محروقة .. ربما لوجود بعض الحفر المملوءة بماء المطر في ذاك اليوم .

حيث الكثير من الجرائم لا يمكن اكتشاف مقترفيها ..كجريمة قتل في المستشفى ..على طاولة العمليات إنها آمنة ..

تنفس المحقق بعمق وقال: دعنا ندخل إلى لب الموضوع الآن، ما هو القاسم المشترك بين عدة ضحايا لشارة الوشم بشكل " قبلة أنثى " الموشوم على نهد الضحية، بحيث يصعب أن يكون مصادفة ؟

نظر المحقق إلى تلك الجثة التي تشوهت معالمها بشكل مخيف، وكان كلامه يشبه الهمس: ما سر هذه الجريمة ؟ (ثم نظر إلى مساعده قائلا): انظر إلى تلك العلامة على نهدها، هنا تبدو كأنها إشارة على شكل "قبلة أنثى "

لا يحمل أي فرد يتمتع بقوى عقلية سليمة أن يتحمل مادة الوشم هذه على النهد وعلى جانبي المنطقة الأكثر حساسية بالجسم .. ولا يوجد إخصائي واحد في كل البلاد قادر اً على أن يعمل هذا الوشم بهذه الحرفية العالية .

تم إشراك منصور في الأمر بسهولة، وعبّر عن موافقته الفورية بمناقشتهم، لأن باعتقادهم أن هناك نوعاً آخر من الألغاز ربما يتمكنوا من خلاله إلى الوصول إلى دليل ولو ضعيف جداً ..

قالت أمل بصوت صارم :

حسنًا، ماذا حدث فيما بعد؟

قال المحقق: إن ما نبحث عنه هو رجل فنان وغريب في هذا الصنف من الوشوم وكأنه لا يعمل إلا لحساب جهة ما وهنا اللغز الأكبر برأي ..

كانت هناك نبرة غريبة في صوت المحقق، قطع منصور حديث المحقق بقليل من الجهد كما لوكان يستجمع قواه لاستقبال ما يوجهه المحقق من أسئلة .

_ربما إذاً نقتل جميعنا في أسرتنا.. قال المحقق: آمل ألا يحصل ذلك، وسنعمل على أخذ كل الحذر الممكن.

لو قدّر لي أن أرصد بذور الخوف بعد عودة (منصور) إلى البيت فسأقول إنه وجد في قلب تلك المدينةالفنزويلية الصغيرة "أكاريكوا".

لم يكن الخوف، آنذاك، مما يجهل فقط، بل مما عرف وسمع من أقاصيص وحكايات تقشعر لها الأبدان، فقرر تهريب (سهى) و(ليال) خوفا من اختطافهما، وبسرعة البرق حجز لهما بطاقات السفر عبر طيران الشرق الأوسط وبسرية تامة وصلا إلى بيروت ومنها إلى سورية .

هبت (فاطمة) واقفة على قدميها ثم جلست مرة أخرى وتوجهت نحو أمل قائلة :

-يا إلهي، يا إلهي .. آسفة يا ابنتي كنت أود أن أتحدث لك عما جرى أكثر ولكنني لا أدري كيف ذلك، أشعر ببعض الدوار .

_ دوار ..؟ لا تخافي يا أمي إنها صدمة متأخرة، يمكنني أن أعطيك شيئاً ما..؟

قالت: لا أود أن أتناول أي شيء على الإطلاق سوف أجلس هنا فقط بهدوء حتى ينتهي الدوار .

وكان ما شعرت به فاطمة عن قلق لا يقل عما خالج ابنتها أمل، وأخذت تفكر فيما حدث بشيء من القلق وسوء الظن، وأكبر الظن أن فاطمة استسلمت لهذا الأسى لا ليخفف من مصابها فحسب بل لأنها كانت ترى في صمتها شريكًا للذي يحصل لأولادها دون أن تدري .

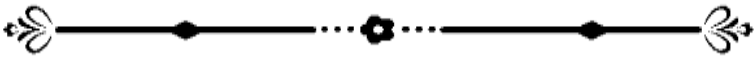

" الوعي الشقي هو الوعي الذي يحمل حقيقة، هو يجهلها، ولا مناص له من الاعتراف بها"

-هيجل-

الفصل الثالث

سنوات مرّت على الحرمان العاطفي، وبدأت أحب الليل لأنه مختلف تحت ملاءة العتمة، حيث يستطيع قلبي أن يلتقي طيف وحيد هذا الشاب الذي تمنيت أن يكون أبًا لأفكاري وشريك أنفاسي، لكن لعنة الغربة أحاطت بالأسرة التي حرمتني من أول حب.

هكذا كمن يمشي في مسارب، بعد سنوات عديدة، تجد (فاطمة) نفسها في وطنها من جديد، لا تنفصل عن الأزمنة والأمكنة التي توهمها بالحقيقة وما هي بحقيقة، تقضم أظافر الفراغ، وتتكئ على لغة التلاشي، كبحر يضيق في أوج اتساعه.. من هناك ومن اللاهنا .. هنا تسامر الظل على رنين شلالات تلوّن وجه الحكايات الحزينة .. هناك راحت تراقص طيرًا وحيدًا ترجّل عن شجرة الروح ..

هذه الحديقة التي قالت عندها وداعاً، دارت نحوها غير مرة، وتلمَّستْ أشجارها و أودعتها عطر أحلامها، لن يتسنَّى لها، لأجلٍ طويل، رؤية وردة جورية كوردتها " ورد الجوري "، هو الاسم الذي يطلقه عليها ربّ العائلة .

صوت يأتيها من خلف سور الحديقة، إنه صوت تعرفه لكن لا تتذكره، إنه قطع سلسال التفكير هل سيكسر طوق الصمت لدى أمل ؟

لم تكن وسائل التواصل الاجتماعي حلا للعزلة التي تعاني منها أمل، بل هي من صنع هذه العزلة ؛ بل حولتها إلى مشروع حياة، لم تزاحم أحد، لم تنتظر الثمن لأنها تعرف قدر الحقيقة .

هي ترغب دائمًا الجلوس مقابل المتحف وتكتب وتدون كل شيء.. حاولتُ أن أكون حذرة، لكنها عرفت أنني كنت أراقبها .

حسنًا، سأستمع لما يدور بينهما من كلام .

- آسف على الإزعاج يا سيدتي.. اسمعيني، الأمر مهم، دعيني أخبرك .

ثم تقدم ليقول بهدوء مفرط: ما بك يا أمل لا بد أنكِ متعبة.. ؟

- هل تتذكريني؟

لم تكن (أمل) لتبدأ بالرد حتى يمر وقت كافٍ تتحرر خلاله من أفكار الكتاب الذي كانت منهمكة في قراءته أو كتابة أهم أفكاره .

- وصوّبت إليه النظر باحترامٍ واضح قائلةً: كيف لا أعرفك، أعرفك حقّاً ..لا.. لا أعتقد أني نسيتك .. وهل من متعة أعظم من أن ألتقي بصديق الزمن الجميل، انك هو المصور، وكانت تلك المرة الأولى التي أراك فيها منذ سنوات مضت ؛ كان قصير القامة، نحيفًا، وسريع الحركة وصاحب حضور نبيه ..

وتابع القول :

- أنا ابن المصور الأرمني" زافو " يمكنكِ أن تخبريني عن نفسك. أخبريني عن مكان إقامتك، وظيفتك، أي شيء. أحب فقط أن أسمعك تتحدثين.

- كانت هناك قوة جديدة في صوته، وتغيّرٌ في وجهه، ولكنه لم يكن توهُّج الشباب الذي كان عليه سابقًا؛ فيبدو الأمر كما لو أنه كان مريضًا ... ليس مريضًا للغاية، ولكنه متوعك بعض الشيء بسبب هذا الطقس المتقلب ويريد الآن طمأنتها أنه أفضل. والتفت إلى (أحمد) مبتسمًا :

- وهذا الضابط البحري زميلي يسكن بجوار منزلكم .

- ابتسم (أحمد) وعرّف عن نفسه بكل اتزان ..

ابتسمتُ لأنه لم يكن بحاجة للتعريف بنفسه مجدّدًا فقد تعرفتُ إلى هويته من النظرة الأولى ..

- ابتسمتْ وطفتْ على خديها حُمرة الخجل، وأيقظت بسرعة البرق تلافيف الذاكرة وكالقارب المنسيّ تحزم شوقها، لتصارع ألف موجة وموجة بعقلها..

- حاولت التماسك وعدم إبداء ما يمنحه الفرصة لقول المزيد، غير أنها ابتسمت وتوهجت خجلاً، ولم يزيِّن وجنتيها سوى ذلك الاحمرار الشديد الذي يشبه الالتهاب، والذي يحتمل أن يكون إما ناتجًا عن خروجها مهما كانت حالة الطقس دون التفكير في حماية بشرتها، ثم قالت بنبرة هادئة:

- داهمتني الذكريات، و اقتادتني عنوة إلى منابع دهشتي الأولى..تعيد وتذكرني: إن الدرس الأول في الآداب قد تعلمته من كتابة الرسائل إلى نفسي..

– بالطبع، أنت لا تتذكر أمي أو أبي ..هل سبق أن عشت غريبًا، مستحيل أنسى تلك الصورة التي التقطها لي في أحد المهرجانات المدرسية ورفضت أن تأخذ مني الليرات الخمس مقابل ذلك ..

– فابتسم ، ودنا يمسّد على رأسها، كان يسري فوق عينيه حزن شفيف ثم استدار فانتبه لي وأنا أراقب بلهفة ما يفعل، فتلاقت نظراتنا في أروقة الزهور فشعرت بالارتباك وتعرّقت أطرافي وأنا انظر إلى أحمد ..

– يا إلهي: إنه هو بشعره الموج بلون الكراميل، وعينيه البنيتين اللتين يطل منهما القمر ..أحقاً هذا أحمد أم وحيد..؟

-ذلك البريق ونظرات العزم والتصميم التي تطل من عينيه لا يستطيع أحد أن يقلِّدها ولا يمكن توارثها، ولا حالة التفاؤل والبهجة التي تغمره طوال الوقت.

– بلا فواصل بادرها بالسؤال .. لكنه على أية حال ليس أكثر إيلامًا من شتائم أخي التي ظلت متواصلة طوال العمر.. سألها عما تتذكره، وهي لا تقوى على التفوه بكلمة تدفع عنها ظلم القدر .. لتقول كبرتُ ولم أنس، وما زلت أسمع أملي يتدحرج خلفي مقطعًا في أزقة منطقة" المنشية " في طرطوس.

– اطمئن كل شيء سيمضي، وليست هناك استثناءات فكلنا في قانون الحياة سواء؛ رغم قساوة هذا القانون وقلة الاعتبار به لا يكفّوا عن مضايقتي ، وما زلت مرصوفة في ساحة هذه المدينة أبتلع الطعم تلو الآخر..

– لقد ولدت هنا، ما زلت هناك ، ولا شيء يشغلني عن هذا المكان، وقفت في مكاني بلا حراك وأنا احبس أنفاسي، رحتُ أنظر للطفولة التي تشكل مدارًا حسّيًّا يدفعني نحو التمرّد الدائم، إلا أنني أعجز عن تفسير بلاغة التضحية.

– ماذا قلتِ..؟

– اعتقدت انه سيقول شيئاً آخر، إذ فتح فاه وأدار رأسه باتجاهي قائلاً: أول مرة أعرف أنك عزباء يا أمل... وتتفوهين ببلاغة، كنت أظنك متزوجة، أرملة، يتيمة.

– ما الفكرة وراء هذا الظن ؟أرجوك أن تدع هذه الأشياء ولا تتحدث فيها، فأنا كل ذلك.. !

– سامحكِ الله، لماذا؟

تملكه الحرج و ردّ بنبرة حاول جاهداً أن يضبط انفعالها.

– ربما كلامي فيه شيء من التطفل أو قلة الأدب، لكن حرصي وخوفي عليك من الأخوة الأعداء هو من دفعني إلى ذلك.

– تلك حكاية يطول شرحها.

-أنا لم أخش اليُتم يوماً ولم أهبه، هو حاضر دوماً في وجداني ومن حولي .. وهمس حانقاً: يا إلهي.. أيُّ يُتمٍ هذا الذي وصلنا إليه؟

-دعني أكتب لأحاولَ فهم نفسي، وأنقذُ روحي من مآزقها، كي أعيشَ بهدوءٍ، وأعرفَ المجهولَ داخلي، وأكشفَ الغامضَ ضمني .. مع الكلمات

يُغزل نسيج الحياة بألوان مختلفة بعيدًا عن التغطرس والكبر ، و بنفحات القلم تنضبط الذات مهما تكن المغرياتُ التي تواجهها .

-هل من كتابة من دون أن تنطلق من رحمٍ يسكنه اليتم والفقد والنقص؟

- دعني أبحث عن الهدوء في عائلةٍ بديلةٍ، عن أبٍ جديد يمنحني القدرة على تشكيل العقل والوعي وربطه بتفاصيل ما كان أو قد يكون، أو أمٍّ أخرى تهزم الحرمان ويشرق بها النهار..

-دعني أرحل في تيه جغرافي وتاريخي يشبه البحث عن لغز الخطيئة .. عن المعرفة وعن الذات، وعن معنى الحب في زمن اللاحب.

- ليس من الضروري أن يكون اللغز مستعصيًا على الحل لأنَّ أحدًا لم يستطع حله ..!

عجلة اللسان دارت، وعلى الرغم من احتفاظ أمل بالهدوء، ابتسمت وبسبابتها تتبعت المكان الذي ربطها فيه خيط لا يمكن أن ينقطع وقالت القليل، وتنهدت بصوت مخيف: الأمر معقد، كشجرة تُفكِّر بالوصول إلى الماء.. ما الهدف من العودة إلى تاريخ ميلاد عائلة لا تورث إلا اليتم، القهر والحقد، وقتل الأمل ؟

- نحن الذين نبتلع الإحساس ولا نتجرأ على البوح به، لا نعرف معنى العطش والفضفضة، نبتلع الدمعة تلو الأخرى، ثم نمضي ممتلئين متورمين، قابلين للانفجار .. واتجهت نحوي سائلة: هل هذا يا وردتنا الجورية ميراث أمة أم إنها لعنة الأسماء ؟

- لا شيء عندي لأنكِ سبقتني إلى الجواب لكن هناك قائل :" من يولد زيزًا يموت مغنيًا ".

- لا حظ "أحمد "تلون وجهي بالأحمر، فاتسعت ابتسامته، وتلاشى ارتباكي وابتسمتُ له بالمقابل، وفيما ابتسمنا لبعضنا البعض، فقط في تلك النظرة الخاطفة لاحظتُ عينيه، كانتا فاتحتين، ولكن رماديتان، كأنهما لوحيد، وأدركت أين كان يبدأ جماله الو حيد.

سألته: كيف بلغت المكان ؟

تفوّه بما لا يمكنني فهمه، عمّ صمت باهت المكان، والطقس تحول إلى سديمي كالأمس فيما تحاول الشمس عبثًا تحقيق أي اختراق قائلاً : لا، لا، استطيع أن أجيبك أنا نفسي قد يكون الآن الكتمان مستحسنًا .

لكن بحلول ذلك المغيب قد فات الأوان للكلام ؛ ولست بحاجة إلى الكلام مادامت الافعال تنطق بأفصح ما يمكن ان يُقال، كنت خجولة جدًا للحديث معه، وضحكنا معًا ..كان و قتاً خارج الزمان، وكان كالحلم .

بالطبع لم يتحدَّ ث أحمد معي، وكما أتذكر، كان على المرء أن يصرخ لكي يسمعه

الآخر.. وما أتذكره، في حقيقة الأمر، لا يختلف كثيرًا عما كان في مخيلتي في ذلك الوقت عما عساه الجنس أن يكون؛ المقابلة التي حدثت مصادفة، الإشارات الصامتة وإن كانت قوية، القبلة الصامتة تقريبًا والتي كنت أرى

نفسي فيها أسيرة على نحو أو آخر، الاستسلام الحالم الخيالي؛ فجسمي الآن ما هو إلا تيار من الرغبة الجارفة التي تجتاحني.

لم يكن هناك شيء خاطئ في نظراتنا، ومع ذلك صار الصمت ثقيلاً، هنا توقفتُ وابتسمتُ ابتسامةً طفوليةً، وبعد لحظةٍ وهي تنظر إليّ مباشرة، استأنفت أختي جديتها وقالت بنبرةٍ غلبت عليها الحميمية والصراحة والهدوء :

- أحيانا عليكِ أن تلقِ نظرة على ما توصل إليه غيركِ وتنظري بعين الرّضا على ما وصل إليه الآخر حيث يقول " بول أوستر "الروائي الأمريكي: (نحن نكبر في أسمائنا التي تُعطى لنا، نختبرها ونصارعها إلى أن نقبل بها كأسماء سنحملها طوال حياتنا، فإذا تعلمنا الكتابة ملأنا آلاف الأوراق بأسمائنا في محاولة لإقناع أنفسنا بأنها أسماؤنا فعلاً، وبأنها هويتنا في نظر العالم).

- إنَّ مشكلتنا يا أمل ليست مع التاريخ إنما يكمنُ التحدّي الأكبر في أسلوب الحياة والإجابة على سؤال كيف لنا أن نعيد قراءة التاريخ، كي نفتح للحقيقة كوة من الضوء و نكشف معنى التربية، و كيف تكون الرعاية الشاملة والمتكاملة لشخصية الإنسان من جوانبها الأربعة، الجسدي والنفسي والعقلي والاجتماعي بهدف إيجاد فرد متوازن يستطيع التكيف مع بيئته الطبيعية والاجتماعية ؟

- العالم يمضي باتجاهات مروعة، الهراء والتفاهة تملأ الرؤوس الفارغة، المعادن والشرائح الالكترونية، تحول البشر إلى روبوتات مبرمجة ...

ما هو مصير الكائنات المشوهة التي يتم تحضيرها للمستقبل..؟

السيليكون يفيض من أثداء الأمهات بدل صمغ الحليب، الشفاه الرقيقة المخلوقة للحب والهمس والقبلات صارت كقبلات الدمى المطاطية .

الحب لا يؤخذ من ضلع زائد أو عقل ناقص، من قبلة أو بدون قبلة ؛ سيبقى الحب حلمنا المشترك والمستحيل.. كقبلة أنثى العنكبوت كأسلحة كاتمة للحب.. خذوا من ضرائحنا إجابة واختصروا علينا السؤال: كيف تُفتحُ قنوات التواصل مع هؤلاء الذين دفعوا شبابنا إلى الهجرة خارج أوطانهم بحجة الهروب من القهر لدفعهم على قول الحقيقة ؟

ما الذي تفعلينه لتبدي دائماً في حالة من الكمال، مطمئنة باسمة ؟

- لم يُراودني هاجس أن أهاجر مع من يهاجرون كما هاجر أبي ..الأزمنة السيّئة تجبرني على ان أكون قوية دائمًا وأن أعمل بإصرار..

هل الهروب سيكون حلاً؟

-ما ينفع في هذه الحالة هو الحبُ فقط..

-وهل هؤلاء الذين باعوا ضمائرهم يعرفون ما هو الحب ؟

هكذا تضعيني دائمًا بين قتامة اليتم وضوء الأمل وتدفعي قلمي إلى ربيع القلب .. لكن تدفعيني بقوة إلى تجنّب الخوض في الموضوعات العاطفية متى سنتمكن من حل هذه المعادلة ؟

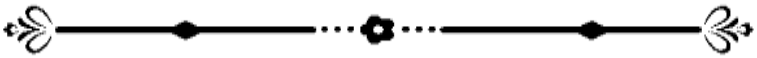

- سأختصر المعادلة ؛ كِلانا من نفس الطين الذي خُلقنا منه، كِلانا يبحث عن الحقيقة لكن بعقلين مختلفين، اشعر أن العشق له قلب يشبهني .. يخفق بالأسئلة :

من هو العاشق ومن هو المُعاق فينا ومن الذي يحتاج إلى الرعاية ومن يتكفّل القيام بهذا الدور أكثر من القلم؟

يقولون: إن الصبر منهل المستحيل، والنساء العاشقات تتشابه مظلوميتهن في أسبابها و مآلاتها، وتتقاطع مصائرهن مرغمات على الدوران حول أوجاعهن كحجر الرَّحَى وهي عبارة عن حَجَرتَيْن صلبتين نصف دائرتين تُوضع إحداهُما على الأخرى وتُدار أعلاها باليد على قُطْبٍ ،إنها دائرة من القسوة تطحن الجميع.

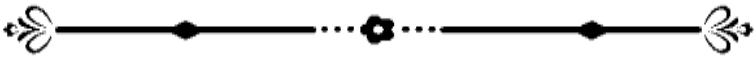

" تعلمنا جميع الأجوبة الممكنة لكننا لاندري أين يكمن السؤال.."!

(أ.ماكليش)-

الفصل الرابع

أسوأ ما يمكن أن يحدث لي بعد توقف قلبي عن النبض هو أن يأخذ الآخرون آمالا مما أبنيها الآن، أن تصير أيامي جرحًا نازفًا، أن تصير حلمًا لمن لا حلم له، عبرة هي الخطيئة ذاتها .

لذلك، انصرفي إلى دراستكِ يا ورد الجوري، ودعيني أبحث عن صدرٍ يحتويني، وأوراق أستر عورة هذا الجحيم، أبحث عن هذا الأمان المفقود، أرحل من نفسي إلى نفسي وأكتب وأعرّي تفّاح الخطيئة وأعترف:

إنَّ القلبَ يتيمٌ في التاريخ، في المكان والزمان وفي -اللحظة – الآن..في عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين، في مدينة طرطوس وفي شارع يمكن اجتيازه بثلاث قفزات، شارع القيصرية الذي لم يعد يشبه نفسه الآن، لا أعرف ولا أحد يعرف لماذا يُطلق على هذا المكان اسم"القيصرية "..

لكن، أعرف: أن "كا تدرائية " كنيسة طرطوس حجر الأساس، وجرح المكان والزمان، ميزان الوجود في زمنٍ زئبقي .. منها انطلقت رسالة المحبة والسلام إلى العالم .

في هذه الكنيسة المريمية العتيقة، يحق للمرء أن يختار أي رُكن يشاء، ويحقُّ للمرء هنا أن يؤدي الصلاة بعيدًا عن رجال الصف الأول واهتمامهم المفرط بالمظاهر الدينية وغير الدينية الواهية، هنا يمكنك أن تفرش

سجادتك والتي هي نسخة من صحيفة آلامك اليومية وأن تؤدي الصلاة، وتجمع الصحيفة كي تفرشها في أي مكان يحلو لك أن تقابل فيه وجه الله .

كيف تتصور اللعنة حينما تصبح الأنا ذاتًا للآخر ؟

لم تكن (فاطمة) نفسها تعي كم نضجت خلال الغربة، إلى أن دخلت البيت المسقوف بالخشب، وواجهت جيشًا من الزواحف يشارك أطفالها خبزهم، وبدأت على الفور بالعملية البطولية لإعادته صالحًا للحياة .

لسان حالها وردة جورية تفتحت من تفاصيل الحناجر المتراكمة والمشبعة بالمرارة والحنين، تتلظى في وجه الحلم لتغزل حريراً يتسع لكل الضمائر الغائبة عن الحب.

عائلة ولدت مع أبنائها في العصر الجوري لكي تبعث السرَّ السّرمدي، وفي فيضهم يرتلون الراحة الأبدية، وحينما كانوا يتوقفون، بدت أغصانهم، وأزهارهم، وألسنة الريح كأنَّها تردد ألحانهم بخجل شديد ....

في ظلمة الفجر العاشقة، كان (حسام) يقصد مرفأ اللاذقية ليستقل السفينة إلى بيروت ومنها إلى بلاد لا يعرف بها إلا وجه الله.. ذهب حسام على متن سفينة تحمل اسم "أرواد "- (وهو اسم لجزيرة أرواد البحرية التي تقع مقابل مدينة طرطوس إلى جانب جزيرة النمل وجزيرة أبو علي)، وهي الجزيرة المأهولة الوحيدة والتي تبعد عن طرطوس حوالي 5كم -

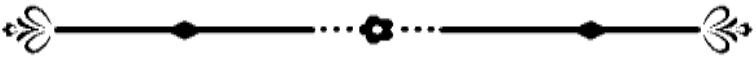

(ويعود عمر مدينة طرطوس إلى العصور القديمة، وكان يطلق عليها أنترادوس أيام الفينيقيين ثم طرطوسا أيام البيزنطيين، حيث قامت على المدينة العديد من الحضارات.)

كيف لذلك أن يحدث ؟

كل ما يتعلق بالسفر أفزعه كثيراً –بعده عن بلده، الحشود لحظة الوصول إلى ميناء بيروت، عدد السفن في الميناء، ثقة الناس على متن السفينة التي اتجهت به إلى أمريكا اللاتينية - حتى إنه وجد نفسه غير راغب في البداية الكلام بسبب القلق الصرف، ولاحقاً عندما اكتشف أن الصمت منحه القوة كسياسة للهروب من المنزلقات الحرجة ..

هي سفرةُ موتٍ لا تُشبهها في الحياة من سفرة، نام طويلاً، وهو لا يعي كم من الوقت فاتَ، ينهض فلا يستطيعُ الحِراك فيعودُ للنوم، ولا يستطيع أن يستيقظ، هذا يعني أنّه يعاني من دوار البحر والسفر وحالة عدم انتظام ضغط الدم في القلب..

البحر شيء شديد الغموض وكوننا نعرفه بدقة بالغة لا يعني أننا نعرفه، الأمر أشبه ببرهان من براهين إله البحر ..

وهكذا كان ينظر إلى البحر دون أن يحاول أن يرى، ويسمع دون أن يصغي، مع ذلك لاحقاً – تماماً مثلما يكون ممكناً بعد المرض لشخص ما أن يتذكّر كلّ شيء كان قد شاهده عندئذ نصفَ مشاهدةٍ- سيكتشف لاحقاً، أنه احتفظ بكل تفاصيل العبور الأوّل المذهل .

يريد أن يعرف، لا أن يستسلم للمنطق _كيف بقي داخل نفسه طوال الوقت في حبس انفرادي، وبقي الصباح ينام كطفل مدلل في كفِّ البحر - والسماء تمطر، وثمّة ريح غربية شديدة تهبُّ ورذاذ الأمواج يصل حتى نافذة الروح التي تستّر عري القلوب البريئة.

استطاع التركيز وأصبح لبعض الوقت أشبه بأذن عملاقة تنصت للدمدمات والأصداء والهمسات، الأصوات البعيدة التي ترشح من جدران الذاكرة..

يتساءل(حسام) أين، و متى، ولو ، وحتى، وكيف نجحت الحياة في مراوغته منذ ولادته..؟

ولد الشاب الخلوق الجميل(حسام) في قرية " الروضة" والتي تبعد عن مدينة طرطوس بعض الكيلو مترات، من أبوين نبيلين وعاش في بيتٍ مُتكامِلِ الأضلاعِ إلا أنّ أركانَه ما تلبثُ تعبثُ بها الرياحُ الهوجاء وتقتلع شجرة العائلة من جذورها وتنمو مكانها شجرة الزّقوم..

يا إلهي ما الذي حصل ..؟

حصل طوفانًا عائلياً كان نتيجته طلاق الجد (أبو سالم) والد حسام لزوجته (سعدى) وطلاق (عزيزة) زوجة ابن أبو سالم (علي)، فتركا القرية معًا، والفارق بينهما :أن "عزيزة" تخلت عن زهرتين من أجمل أزهار القرية، بينما "سعدى " حضنت بعضَ أبنائها وعادت من حيث أتت ..

هنا، تكسَّرت أغصان العائلة، منها ما ترك القرية ومنها من بقي فيها، وكان قوته اليومي فايروسات الحقد والكره والتي كانت تفتك بهم أكثر ما يفتك الآن -كيوفيد 19- بأرواح الناس في العالم.

بدأت الأقاويل والإشاعات تجلد العائلة بسياطها.. وانقسمت العائلة إلى أحلاف واستغل الأخوة كل بطريقته هذا الجرح، وكل بطريقته حاول أن يرش بعض من ملح الاستغلال والبعض ينثر بعضاً من مسحوق الكراهية والأنانية، فتنمو بسرعة البرق الفيروسات القاتلة على هذا الجرح الذي لم يندمل أبدًا في الزاوية اليسرى وخلف الحجاب الحاجز لصدر (حسام) ذاك الشاب الذي خُلق والقيم الصادقة في لحظة واحدة..

(حسام) الذي تأدّب بأدب الدنيا، ولشد ما أضلته أكاذيب الناس، وكان لا يذكر ذلك الأمر من حياته إلا بخجل واشمئزاز ..

جاءت تلك الأكاذيب مغالطة لعقله مشوشة لأفكاره في ريق صباه، حتى أنه صدّق أن تسونامي قد اقتلع جذور العائلة، فتنكر لوالدته التي اضطرت إلى بيع بعض الأعشاب البرية، كالزوفاء (الزوفا) والصعتر، وبعض أوراق عرائش العنب، وثمار التين والعنب المجففة ..كانت تأتي مشياً على الأقدام من قرية "جارة القمر" مسقط رأسها إلى طرطوس .

دقّت الأم "سعدى "بلهفةٍ أبواب الابن مرات ومرات، لكن (حسام) اتبع أفكار ووصية والده، و رفض الاعتراف بها رغم أن لا دليل لديه يثبت ممارستها لأي أمر مشين.. ربّما ظُلمتْ ..بسبب زواج الكنة المطلقة من

نفس الشخص الملقب (بالآغا) والتي اتهمت بعلاقة غير شرعية معه، كان تأثيره على الأم " سعدى " تأثيراً قاتلاً أمام أبنائها دون استثناء، لكن (حسام) لا يمكنه العفو أو المسامحة، أو حتى المواجهة، والبحث عن حقيقة ما جرى أو بسبب صغر سنه، أو عدم نضج محاكمته الوجدانية، آنذاك.

_ للإنصاف، أو الحق يقال :إن التشريد والنفي خارج الأوطان أنكى من أي عقاب اجتماعي ..لا يدرك عذابه إلا الله .. هو الماء الذي يحطم الصخرة، وهو الريح الذي يثير الغبار في وجه من يأكلون حق اليتامى، ويتعالون عليهم غروراً.

كان يعرف (حسام) أن (كركاس) مدينة كبيرة مدهشة، فكرته عن المدينة الكبيرة عَنَت موطناً ساحراً من الألق والراحة، وعندما وصل إلى كركاس، وبدأ يتجول في شوارعها شعر بخيبة الحلم . الكتيبات أو المنشورات الصغيرة التي التقطها من محطات تحت الأرض لم تساعده - كانت منشورات تفترض أن المناظر المحلية التي تشرح عنها مشهورة ومفهومة جيداً، والحقيقة أن حسام لم يكن يعرف شيئاً عن (كركاس) سوى اسمها .

تعج (كركاس) بالمارة والحرارة والضجيج والزحام، والفرحة الصغيرة التي غمرت جوف "حسام" تتلاشى نهائياً من لحظة الوصول.. هو القادم من أقاصي الألم، يحمل اسمه ومنفاه ..رغم كل الفروقات ما بين مجتمعه

والأضواء البراقة؛ هنا في تلك المدن التي لا تنام أبدًا ..لماذا لا يستطيع أن يدرك السعادة ولو ليوم واحد ..؟

سؤال كان يردده بشكل دائم "حامد شماميس" على كل من يلتقي به وجها لوجه وهو يدخل تلك الخرابة المتاخمة لبيت (حسام)في بلده والذي اتخذ منها مخدعًا لتأوهاته وانكسار قلبه من بنت عمه " مارية " والتي خدعته بعد قصة حب كانت حديث أهل المنطقة .

ولا بد أن (حسام) استعاد حسّ الاتجاهات بعدما قطعا شارعًا طويلاً عند بلوغهما تقاطع طرق؛ متوجهًا إلى صديقه عدنان وهو يجوب تلك الشوارع الصاخبة بنفس السؤال مستغربا :

- لماذا لا نستطيع أن ندرك السعادة حتى بالحلم، وما هو معنى السعادة ؟

- هز رأسه عدنان وقال بعفوية :

- أنا أيضا لا أعرف كيف نقود مركب السعادة إلى ضفاف المعاني التي نريد ؛ جدي قال ذلك لأحد أقربائه، وقال أيضا: إن هؤلاء أبناء عائلة بعد أن تحفّظ على الاسم ..لا يستطيعون أن يعيشوا بسعادة ليوم واحد رغم كل ما يملكون .

- التحف (حسام) ومن معه الصمت رداءً، أذهلهم ما قاله عدنان، لم يفهم أحد ما كان يقصده وغرقوا في الصمت وكأن وسط بحر الدهشة " مثلث برمودا" سقطوا فيه في غمرة النميمة.

لذلك يلاحظ، عندما تلامس قسوة الرجل قلب الأنثى يتمزق، وتموت العاطفة وكل شيء جميل، تموت الأنوثة ..فتولد فتاة ولكن بروح وقسوة رجل لا يعرف الحب..!

"يحدُث هكذا أن أتعب من قَدميّ ومن أظافري، ومن شَعري، وظلّي، يحدُث هكذا أن أتعب من كوني إنساناً."

- بابلو نيرودا

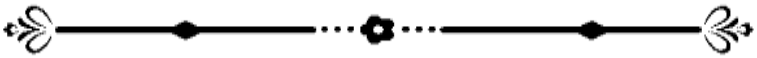

الفصل الخامس

كانت (أمل) البنت البكر و الطفلة المدللة عند والدها، ربما كانت أم أبيها، وبأسلوبها الحنون كانت تعوِّض الوالد المحروم عاطفة الأم و قساوة الأب الذي عانى منه الكثير، حتى أصبحت أمل مع الأيام والليالي ورغم البُعد ورسائل الغربة عبر بريد الدموع والقهر والظلم، بالنسبة إليه ربّ الأرض.. هي فقط يحق لها فتح كتاب العائلة ..والمناقشة به.

في ذلك اليوم الذي لا نهاية له، ورغم مخاوفها القاتمة من المستقبل، بدأت تنفض (أمل) بأسلوبها البسيط غبار الحزن من روح والدها، ربما هي على يقين إن نفض الحزن من الروح هو كنفض سجادة البيت من الغبار ..

بصوت يشبه البكاء تقول أمل :

-إن نفض الأحزان لا يعني إزالتها أو التخلص منها، وإنما يعني أن تهذب أحزانك، فلا يمكن لأحد أن يمحي أحزانه، لكنه ينقلها بين تلافيف دماغه.

ذات يوم مشينا معًا عكس التيار، وكنا أكثر عقلانية مما كنا عليه، ورحلنا مع سرب من الفراشات، لنستكشف أن القلب المتفحم لم يظهر منه أي برعم، من يحرق هذه القلوب، كيف امتدت ألسنة النار من جيل إلى جيل ..؟

لا شك في أن الأبناء أمانة عند آبائهم يُسألون عنها يوم القيامة، وكما على الأبناء أن يبرّوا آباءهم ويحسنوا إليهم، فإن على الآباء أن يبروا أبناءهم .

هناك نوافذ وأبوابُ، تحاول "أمل" بشتى الطرق أن لا تفتحها، كي لا توقظ شياطين التفاصيل وتصل لمبتغاها فالمهمة الأساسية هي تعقيم بناء البيت وتطهير القلوب المصابة ب –كورونا- النفاق فبناء البيت لا يصلح إلا بصلاح الأبناء.

صوت من الداخل يقول :

-تلك التفاصيل التي نهملها ونراها بأعيننا صغيرة، هي مفاتيح اللعنة.. ليس جنود الموت أو"كورونا " ما يثيرون الخوف في نفوس البشر .. إن ما يثير هذا الرعب هو السبب وراء هذا الموت وتوقيته .

لا تنسوا أن " لعنة الأم" لعنة أقوى من لعنة الكورونا التي حلّت بهذا الكوكب من القطب إلى القطب، لعنة مميتة ولا تموت هي، لا يمكن أن نوجهها أو نواجهها إلا بأن نعيش آلام العوز والحرمان وظلم العائلة والمجتمع التي عانت منه الجدة الأم (سعدى)..

أدركتْ (أمل) بفطرتها مسألة الخلق، و كتبت في أوراقها أن الإنسان لم يخلق عبثًا، ولم توكل إليه المسؤولية ببناء بيت سُدى، ودون جدوى، بل كانت أمل بإيمانها المطلق أهلاً لهذا البناء.. فلم تتخاذل رغم المآسي التي وقعت عليها، و تتراجعْ رغم حالة الاكتئاب التي أصابت زهرة الروح .

دائمًا صديقتي (نجوى) رحمها الله كانت تردّد:

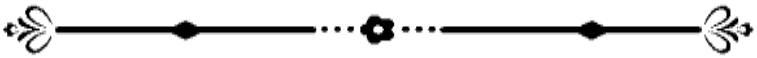

أمل، مخلوقة تكونت من طينة لا تشبه أحداً من أبناء جيلها، يدها ممدودة للخير، هي للعطاء أبجدية وللتفاني في سبيل أهلها، هي معلمة ومربّية من طراز رفيع، علّمت أجيالاً وأجيال كيف يتطهرون.. وبأي الطرق يدخلون منازل القلب، وكيف يصلّون في هيكل الحُبّ و يحافظون على سرّ البيت من عبث الحاقدين .

اختلجت ملامح وجه أمل وقالت باضطراب :_ ألحَّتْ عليَّ أن أفتح لها باب الدار، جدّها وأمها غائبان عن الدار، تطلعتْ إلى الجدة، امتزج بها الحب مع الكراهية، الشفقة مع العتب .. لكن أمل لم تعلم أن هذه العجوز هي جدّتها ..

مدّت لها يداً، تحمل رغيفًا يفوح منه رائحة التنور الطيني والسلق والبصل والزعتر البري.. وشدت على يدها بقوة وصرخت:

- لا تمسكيني من يدي هكذا، وقالت لها بغضب: امش، امش من هنا، ماذا تريدين ..؟

في هذه اللحظة و في وقت غير متوقع، التقت الأم (فاطمة) مع الجدّة (سعدى)وجهًا لوجه، فاطمة التي تجهز مفاتيح حقائب الغياب، وأخذا يتكلمان عن الرجل العنيد، الجد الكبير(أبو سالم) وعن الابن (حسام) الذي هاجر وترك القرية بما فيها من ذكريات لا تفارق الذاكرة، وتلك قضية تافهة في ذاتها لمن لا يعني له الوطن شيئًا.

لامست الجدّة (سعدى)،وجه محمد الصغير وهو يمسك بيد أخته ورد الجوري و الذي لُقب بالبطل منذ نعومة أظفاره، انزلقت يدها الخشنة ملاطفة وجهه، لم يعرف ما يقوله لها، لم يعرفها، لكن داخل الصبي يغلي، فكرهه يخوض في الأحلام ومشاعره تتمنى أن تذوق دفء حضن الجدات .. ماذا أقول عنه: هذا الإنسان الأكثر نبلاً وإنسانية وهو الأخ والابن والصديق والأب ومن النوع الذي نادرًا ما نقع على مثيل له.

لا أريد أن أسترسل الآن في ذكر التفاصيل، على أية حال، حافظ محمد رغم صغر سنه على هدوئه واستطاع أن يهدئ من انفعال الجدة ..كان يدرك تماما بأن نفسًا متعبة كنفس (سعدى) البسيطة، التي يرهقها العمل والبؤس، ويضنيها الظلم والخطيئة، إن نفسًا كهذه لا توجد بالنسبة إليها حاجة أقوى من أن تجد إنسانًا طيبًا يستمع إليها علّها الحقيقة تقف بينهما ؛ إلا أنه كان واثقًا بأن في الأمر فخًا مدبرًا من بعض الإقطاعيين آنذاك .

وصرخت (فاطمة) بغضب: يجب أن تغادري المكان ..خمس دقائق ويأتي عمي (أبو سالم)وتحل الكارثة فوق رأسي.. ولم يعد يقبل أن يبقى مع الأولاد في غيابي.. وبحركة بَهلوانيَّة لا معنى لها إلا الطَّرد، اسْتَجَرَّتْها إلى خارج الدار وأغلقت بسرعة باب الدار وتَنفَّستْ الصُّعَدَاء .

- في حياتها، كانت الأطيارَ والأزهار صاحبة أعظم الأثر فيها ..فيما يبدو رائحة عطرة واضحة وأخرى غامضة تلوح بالأفق، بوتقة انصهرت في باطنها

وقائع الاستلاب والاغتراب، وتداعيات الطفولة المسروقة يحصدها يومياً آلاف الأطفال، تستطيع أن تلامس الكثير منها إذا نظرت إليها بالعين الثالثة، أما ورد الجوري فسرٌمغلق على نفسه .

مبارك لكل من يحمل على كتفيه من دون أن ينحني، ذلك السرّ العظيم: حتى هذا الواحد الجبّار القهار، الرحمن الرحيم كيف لنا أن نتفكّر كي تتفتح البصائر وترى ذلك النور الكبير الذي اسمه الحب..!

هو الفقر ..أم القَفْر الروحي ممزوجا بالوهم .. بالحلم .. بالخيبة .. بالصراخ، وبالأسئلة التي لا تنتهي..!

كل العائلات البسيطة تبدو متشابهة بالعذاب الروحي، لكن لكُلِّ عائلةٍ مُعذَّبةٍ طريقتها الخاصة في مِحْراب الآمال المعذبة والأحلام الهاربة إلى ظلال البامبو والرقص حول طبول الهنود الحمر..

لا سبيلَ إلى الشَّكِ فيه، عائلة تضع حلمها بعنقها، وأخرى تريد أن تطيرَ في الهواء، وثالثة عبَرتْ خلفه لدولة أخرى، وواحدة لا تحلم لأبعد من غدها، تختار ذكراً وعندما يفرغ العالم من الذكور ستختار حائطاً من الحوائل تبكي عليه.. فينزويلا احتلت رأس العائلة كما احتلت غيره، حبسته في زنزانات الوهم اللامعقول .

إنها مِرثاةٌ للدمار الاجتماعي التي ترعاه الأعراف والتقاليد و الذي يصنعه الاغتراب بالأشياء والناس إن غفلت عن أجنة القلب .. أحسنوا تدفئة قلوبكم فخلف هذه العيون الصغيرة جداً تقوم جميع أسرار الدنيا .

يحدث أن تضع أحلامك داخل شغاف نبضك، وتعلقه مثل منبه ضوئي حول هامة شخص ما، فتنبض كل وردة وهي مطمئنة للحياة ..

تنهض عقارب الجهل، فتجري بين يدي الزوجة (فاطمة) أنهار من الوهم تضغط على أنفاسها كي تستيقظ من سبات بلاهتها.. فلم يكن ذاك الذي أمنته على حزمة من سنابل القهر غير سارق لرغيف العمر..

أيّ المنهجيات التي ينبغي توسلها للوصول إلى مفتاح حقيقة هذه اللعنة التي حلّت بهذه العائلة..؟

تجد نفسها(أمل) البنت البكر للعائلة، تتوقف لحظة لتصغي حزينة إلى الكلام المعسول الذي تقصه والدتها بصوت عالٍ، (فاطمة) الأم التي عاشت يتم وقهر وظلم زوجة الأب بلقيس ..كيف لها أن تخلع ثوب الفقر والجهل واليتم وتلحق بزوجها إلى بلاد الحلم الجميل ..؟

لم يبق للطفلة الصغيرة (أمل) إرادة، وحاولت أن تجري مع الزمن وأصبحت ككرة من الثلج في حضرة جدها (أبو سالم) تقاذفها عقدة النفسية، ويتعامل معها كامرأة ناضجة وينسى أنها لم تبلغ حتى أنوثتها ..... بعد.

الرجل الذي عاش زمن الإقطاع، رجل قلبه من الفولاذ، يمسك بيده عصا لا تجيد الرحمة، اعتزل النساء بعد (سعدى)، وأكمل حياته كالناسك في صومعته المبنية من الطين والمسقوفة بجذوع السنديان والمرفوعة بساموك من الصفصاف ونوافذ من خشب الحور.. و يزين سطح البيت عرزال من

أغصان وأوراق الخرنوب، فعندما يمر النسيم به تصدر أوراق الخرنوب ألحانًا وكأنها حورية تعزف خلف شغاف القلب .

أما ورد الجوري حبست أنفاسها و فتحت باب الفضول دون ضجة وجلست خلف عتبة الغرفة، تكاد لا تأتي بأي حركة كي لا تسمعها أمها المنشغلة في حياكة ثوب الحكاية وتجميل المستقبل لابنتها أمل كي تقبل أن ترعى إخوتها الصغار بعد سفرها واللحاق بزوجها إلى أمريكا اللاتينية وفينزويلا تحديداً.

في ذاك اليوم كانت الأم (فاطمة) تؤدي كل شيء على ما يرام فتعمل بهمة الحصان، ودون أن يبدو أنها تقوم بعمل ما و أمل في بهو البيت تبدو وقد تسمّرت في صمت يقسم ألا يعكّر شدّ أحزمة السفر الذي يضاعف ويباعد كلّ شيء.. وتبرز على صفحة هذا الصمت أكثر صنوف الضجيج بُعدًا فلا يمتّص هذا الوجه الصغير شيئاً منه .

وتتنهد أمل وتضرب على صدر ها عندئذٍ وقالت: آه يا ربّي ..أدعوك ربي لتشهد على ظلم هذي الحياة لي ..وتردف القول: كيف لي أن أكون طفلة في العاشرة من العمر أماً وأباً لأخوتي الأربعة، وأقوم بكل متطلبات البيت والمدرسة في كنف جد طلباته ونفسيته تقابل طلبات ونفسية قبيلة من رجال الجاهلية .

ثم غيرت الصورة شيئاً فشيئاً من أساريرها، إذ زاد من ابتسامتها الصفراوية فافتر عن ألمٍ خفيّ، وامتلأت عيناها السوداوان دموعاً ونورا، مما جعل

صدرها يعلو وينخفض بالتنهدات وهي تزفر زفيراً يشبه أول هبوب العاصفة .

علقتِ المرارةُ بروح ورد الجوري واضْطَربتْ لهذا المنظر اضطراباً شديداً، وظلَّتْ أمواجُ الأخذ والرَّد تتلاطم بعنف هذا النهار، مِمَّا أثر في صميم قلبها وسألت أمها : ما هذا الحنان الباطل الذي يؤدي إلى الهاوية ..!؟

أجابت (أمل)، غاضبة: إن كان الأمر كذلك، سيبقى الحنان شاهداً على هزائم الأخوة وخيباتهم حتى لو ظلَّ هذا الحنان في أحلك الظلمات رافعة ضوئية ومعنوية تضرب بتوترها العالي قلب المسرّة ..

ولقناعتها أن علاقة الأخوة على هذا القدر من الصعوبة لا يمكن فهمها، ويجب أن لا يُسمح لنعمة الأعذار أن تجبرهم على الإبحار تحت مطر اللعنة حاملين متاعهم الوحيد المتبقي لهم من الحياة .

تطرح أسئلتها العصية على الجواب والتي تشغلني بشكل دائم وتشغل كل من يفكر في تركيب هذا الفكر الشرقي: هل يمكننا فعلا فهم الكون من حولنا دون أن نفهم أولا ما يكمن ويختلج في داخلنا ؟

تقاطعني بالحديث صديقتها (نجوى) وهي تهم بالجلوس أشارت بيدها قائلة: إنه سؤال كبير، ويحمل مجرّات من الوجع، آه، أ توافقين ..؟

- لا أظن، هذا الأمر يحتاج إلى عين اعتادت على التأمل، فالذين يحيون بالجسد يبصرون الأشياء بمخيلة الجسد بشكل تقريبي ؛ أحيانا تأخذنا

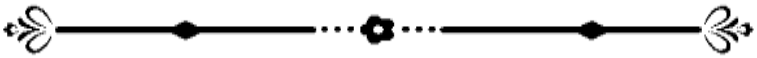

الموجة إلى الحلم ..لا ندرك كيف تبدأ الأحلام ولا كيف تنتهي .. لكن، لم تجدِ الحقيقة إلا في الركون إلى شمس العقل .

- إن الأمر يبدو غريباً بالنسبة لي ..

- وهل يوجد تحليل آخر ؟

- هذا ما أسأل نفسي عنه هل وجدت المحامية (سيلفا)مع (ليلى) زوجة (منصور) صدفة، أم ماذا ؟

كم كان أمرًا غريبًا حقًّا إنْ سيلفا فكرت في الزواج من ماركو، كانت هذه ستكون بمثابة خيانة؛ خيانة لمهنتها التي تتباهى بها كمحامية لقضايا بالشكل تبدو إنسانية، والمضمون غير ذلك تمامًا، ولكن قيادتها لسيارة (ليلى) ليس خيانة؛ لأنها تعرف أنها فعلت أمورًا من هذا القبيل قبل ذلك، وهي عرفت الكثير والكثير عنهما وهذا هو الأهم ..

كانت الشمس ترسل خيوطاً ذهبية لتدفأ لنا المكان كانت تسترق السمع لحديثي مع أمل لم تتكلم لكنها بدأت بالمغادرة وامتزج حديثنا بغروب هادئ.

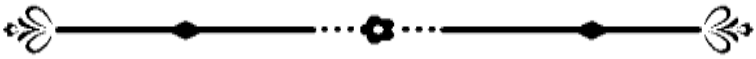

"عندما خلَقت الآلهة البشر، فَرضَت عليهم الموت، واستأثَرتْ هي بالحياة"

(ملحمة جلجامش).

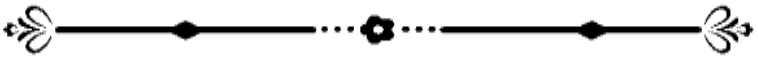

الفصل السادس

ها أنا اليوم، أختار من علبة الأعشاب البرية التي ملأتها ابنتي بالأعشاب المتعددة الأنواع، من الزوفا، والمريمية، والبابونج، والنعناع البري، والقصعين، والصعتر، وإكليل الجبل ..إلى ما هنالك من خلطات شامية، لأختار منها النعناع البري الذي يمنحني طعمه الواخز الراحة إلى جانب الدفء، كوننا في زمن الصقيع الروحي؛ وأنتقي له كوبًا من بين الأكواب المزينة بصور الأبناء والأحفاد وصوري الشبابية، ليضفي المزيد من ياسمين البهجة والفرح على نفسي .. وحين أجلس لأرتشف هذا الشراب السحري الدافئ، أشعر أني عائدة من ميدان حرب خاسرة سيرًا على الاشواك، أجتاز معها غربتي عن طفولتي، أتوقف عند أول رشفة، أتأمل في اللحظة الراهنة وأدرك أنني مغتربة عن نفسي، وعن أهلي، وعن محيطي .. كمن يعود من زمن مختلف ؛فمن الصعب جدًا أن تسير وحيدًا بلا مشعل في نفق قد امتلأت نوافذه بخيوط العنكبوت ..وأحاط بك البرد صمتًا لدرجة التّجمد.

كيف أتنفس ..وفي رئتيَّ يسكن صراخُ المغتربين ؟

كيف أهدأ ...وفي هدوئي يصدح صمتُ اليتامى والمقهورين ؟

من الشرق انا، شرق قائم في الليل و نائم في النهار، يتباهى رجالُه بالتكفير، وعنهم تُكفِّر النساء ..

أصبح الليل قلب الخوف، ومخزن قصص الرعب التي تسربتْ إلى صدري ولكن هل تبدد الخوف من طريقي؟ وحين تنفست الصعداء وأنا أغادر بلادي .. هل منحتني فنزويلا الأمان المنشود؟

رغم أني كنت أشتاق إلى بلدي في كل لحظة من غيابي، كنت مصدومة منه عندما وصلت؛ لا شيء كان كما أتذكره، الأصدقاء، الأبناء، وكل الناس الذين التقيتهم أصبحوا في زمن التسويق العاطفي تجار عواطف وسماسرة في روابط النفاق الاجتماعي، ذلك بوساطة قنوات رقمية متعدّدة .

أويت إلى الفراش، ولكن كان من المستحيل البقاء في غرفة النوم طويلاً، فأخذتُ غطاء خفيفًا واتجهتُ صوب صالة المعيشة واستلقيتُ فوق الأريكة، حيث اعتدت النوم خلال استنطاق الحواس .

لم أكن أعتقد أنني سأخلد إلى النوم على الأريكة كذلك، ولم يكن هناك ستائر على حافة النافذة فاستطعت أن أتبين من خلال منظر السماء أن القمر يضيئها بالرغم من أنها لا تراه، والنجوم حرّاسها بالرغم من أنها لا تأمرهم بذلك ولا ينتظرون مقابلا منها .

وضعت (أمل) كتابًا مفتوحًا على ركبتها، ولكنها لم تكن تقرأ، فلم ترفع عينيها عما استرسلت به ذاكرتي من أحاديث.. جلست على مقعد مزدوج،

وفي مواجهتها مقعد هزاز آخر كانت تشغله (ليال) ابنة منصور، وكان هذا هو المكان الذي يتحول فيه مقعدها لفراش في المساء.

(ليال) بنت منصور فتاة طويلة القامة، ذات بشرة بيضاء، ومظهر جميل، وشعر أسود الشعر لا ينتفش إذا ما طاله رذاذ الماء؛ رأسها دومًا مرفوعٌ عاليًا، ولها ذقن دقيق مستدير، وفم عريض ذو شفاه ساحرة، وعينان لامعتان، وجبهة تتوهج غالبًا من فرط المجهود والوقت الطويل الذي تعيشه ضمن متاهات مواقع التواصل الاجتماعي؛ كما لو أنها لم تكن تعيش في العالم حتى الآن، كأنها كانت في اللامكان.

وعلى أي حال، فالأقدار الفردية ليست هي النقطة الأهم؛ إذ أن ما كان - يلفتني في ذلك- هو تلك اللامبالاة، وعدم الاهتمام، ونسيانها بسرعة غريبة لوالدتها (ليلى) بعد وفاتها ..

وكانت (ليال) تدرك ذلك؛ فهي تعلم أنها قد تبدو بالنسبة لكثيرين شخصية غريبة الأطوار ومنعزلة -وهي، إلى حد ما، كانت كذلك بالفعل - ولكنها قد مرت – في جزء كبير من حياتها -بشعور أنها محاطة ببعض الأشخاص الذين كانوا يرغبون في الاستحواذ على انتباهها، ووقتها، ودواخلها، وكانت عادة ما تتركهم يفعلون ذلك .

كان صوتها ناعمًا يوحي بالشفافية، وكانت حنجرتها تُصدر أصواتًا باللكنة العربية المكسرة والجميلة جدًا ..

فقلت لها: من الأفضل أن تجلسي في المطبخ؛ فالفوضى تسود كل شيء بالداخل. سأعدّ لك بعضًا من القهوة.

كان المطبخ مضيئًا، وبه نافذة تتوسط سقفه العالي المنحدر، وتراكمت الصحون

والأكواب، والأواني في كل مكان، وتبعتني (ليال) إلى المطبخ، وراحت تلعق بأصابعها ما تخلَّف من بقايا طعام العشاء.

قالت وهي تعبرّ عن عدم رضاها: كم أحب مذاقه، إنه جيلي الليمون، و تناولت وهي واقفة كعادتها الدائمة بعض قطع البيتزا وفطائر الجبن، و ينمّ صوتها عن التظلم الشديد؛ حتى إن أختها (سهى)شعرت أنه عليها أن تقول:

عندما أنتهي من هذا يمكنني مساعدتك .

قالت: لا، لا أعتقد هذا، إنني أعرف مكان كل شيء.

كنت أتحرك في أرجاء المكان دون سرعة كبيرة إنما بفاعلية وتصميم من يعرف هدفه جيدًا .

بين ثنايا الزمن تعيش (فاطمة) تفتك بها الوحدة وتلتف الجدران الباردة حولها تكتم أنفاسها الدافئة هي لا تعلم (أين، وكيف ، لماذا، و متى) لا تسمع سوى دقات الساعة، و تتنفس اليأس الذي أشبع المكان ..

تتأمل هذا الضياع بين الأزمنة والأماكن صمتت كما تصمت القبور إذ هربت الكلمات وتلاشت، تكسّرت مراياها لأنها تظهر الحقيقة المرة وتظهر غصة رسمت عقدًا من الألم حول عنقها.

هذا القلق الوجودي وهذا الاضطراب والتردّد والإحساس المَرَضي بالخواء واللاجدوى جعل (فاطمة) تعترف عن بعض معاناتها مع ابنها (سيف) حيث تنزلق منها الكلمات غير مرة: أعيش في بيت ابن لا يعرف أن يعيش، ولم يكبر روحيا، ابن غير مجد، يستند إلى دعامة الانتحار لكنه لا يُقدم عليه .

ويهددني به بشكل دائم بعد أن توفيت زوجته بعد معاناتها بمرض السرطان زاد به التهديد فيما يسمى الانتحار..

لم تكن مسألة معاقرته الخمر هي التي جعلتها تفكر على هذا النحو المخيف منه وعليه، ولم يكن الانتظار على حالته المتردية حتى في شكله وعنايته الصحية بنفسه كذلك، أيّا كان هذا الانتظار، لا يعرف أين كان وأين هو الآن.. وطوال الوقت، يشرب الخمر، أو الحاجة إلى الشرب؛ كان هذا مجرد نوع من الإلهاء، أو الهروب من أسئلة الأخوة ومطالبتهم بحصتهم من ثمن الأرض الذي باعها وقبض ثمنها وأعطى الفتات لأخوته، أو استعطافهم شأنه شأن أي شيء آخر.

ها هو ذا لساني يعود للكلام، و ها هما يداي يجدفان بالووكر، حاولت الصراخ، فبدوت كالخرساء، واكتفيت بضرب الووكر في الأرض، ليقاطعني

صوت (سيف) الصارم المتواتر، ويبعثرني كلامه في لجّة من اليأس وعذاب الضمير.

- فهو يشبه طناجر الضغط البخارية – جاهز لإطلاق البخار حينما تتاح له الفرصة ومسدسه جاهز دائمًا كي يسدده هجومًا وتهديدًا على من يعارضه الرأي.

-كُل ما هنالك أني رأيت الموت خيراً للمرء من المسير بعكّاز الخوف والحياة بَين زِنزانتيْن، زنزانة الضمير وزنزانة (سيف).

هذه الحوادث القديمة الجديدة تؤثر في مفاهيمنا، و تعيق مسيرنا في جوانب محددة من حياتنا ..

من هنا، فمن الحكمة أن نسأل أنفسنا هل يستحق (سيف) أن نبذل كل هذا من أجله..؟

العصبية، الكره، الشفقة على الذات، الغضب، كلها تعطي نتائج رخيصة على المستوى العائلي والاجتماعي ..

إن أزمات الحياة هي فرصة للنضج والتوسع والتجربة والتطور..لكن لا منصور ولا سيف ما فيهم الوالدة فاطمة ، لن يتقدموا خطوة واحدة نحو الأمام ..

يقال: " المثيل يجذب مثيله " فالوجع يجذب وجعاً والحب يجذب حباً ..

نحن نتلصص على الوقت، لكن الوقت المنتهي يلاحقنا ويتجاوزنا، الوقت الذي في الحقيقة لم ينته ابدًا .. في ذلك اليوم الذي لا نهاية له

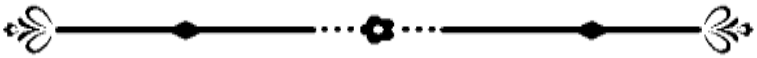

؛أتعسف الآن على الحقيقة، في خضم سلطة القلم الذي بين يدي ورغبته في الانفلات مني واستباقي، وبدافع التسرع في قول كل شيء دفعة واحدة.
لا بد لي الآن إلا أن أصدقكم القول وأخبركم أني حاولت الاتصال بأحمد قبل أن أكتب هذه التفاصيل، جئت إليه مرّة متردّدة، تائهة، إلى حيث يمارس رياضته المفضلة وهي المشي حول الحديقة المركزية وسط المدينة.
- سألت نفسي :هل وقعت بالحب مجدداً الأسى تجربة مشتركة فيما بيننا .
- والآن عندما نلقي نظرة على الرغبة التي حجبها الخوف التي قد تكون ممزوجة ببعض الأسى، هل كل هذا الأسى بسبب ضياع الكثير من فرص لقائي بأحمد في الماضي ..؟
كان هو – ولا مجال للشك في شكله ؛هناك أنظر إليه لبعض الوقت دون ان يراني، وكان يضحك الآن ؛ فتجمّدتُ.. إنَّ الضحك صوت مميز لكل شخص، عن الأصوات تتغير وتتشابه والاندماج مع الآخرين يجعلك تتعرف عليهم ولكن الضحك ..أليس كذلك ؟
-لا، إن الضحك مختلف، مشيتُ لأتأكد قائلة في نفسي: إنها خدعة عاطفية يستحيل أن يكون هو ..كان قد سار بسرعة كبيرة .. كان هناك انفعالا ما في حركات جسده وهو يمشي، ذلك القلب الذي كان يمتلئ بعواصف مبهرة ومترعة من العشق.
ما رأيته لم يهدئ من أعصابي ؛ يا الله: كم يشبه وحيد حتى في طريقته بالمشي.. لون اللباس الرياضي و قبعته المخططة باللون الأحمر والأبيض

والأسود، بالذعر وغادرت المكان، ولا يزال يتملّكني شعور غريب بوجود خطأ في مكان ما ؛ على أنّ الأمر الأسوأ هو أنه في أوراقه الرسمية اسمه " وحيد".. يا للغرابة.. والعجب ..!

لم يكن الصمت الطبيعي نفسه الذي يُخيّم كُلّ مساء، و لم تسعفني عودتي إلى المنزل للخروج من عقدة الشكّ القاتلة، فالعودة غريبة دائمًا بعد وجودك في مكان مختلف عما تريد .

لكن الآن، ومرّة أخرى، ومنذ السنوات التي تلت غياب وحيد، كانت معدتي تنقبض لرؤية مشية مشابهة، أو لون شعر مشابه، أو إمالة للرأس نفسه، حاولتُ التخلص من الكآبة التي ظللتها رؤيته .

مُجدّدًا اعتراني شعور بأن الحاضر بلا معنى، و لا شيء قادر على كبح الماضي، دفعتُ الفكرة بعيدًا خطوت خطوات واسعة...

اقتربت، ابتعدت، درت حول نفسي حتى تدفّق الدم في كُلّ عروقي، ابتلعت ريقي، ازدادت ضربات قلبي وأنا استرجع بعض الأرقام التي كتبها وحيد ذات مرة على كتاب كان قد أهداه لسامية وبدورها جاءت به إليّ وكانت قد نسيته عندي أم أنها تقصدت ذلك لاختبار ي إن كان بيننا أي تواصل أو لدفعي للتواصل ..وربما كانت صدفة..

تقدمت قليلاً ..حاولت الاتصال به هاتفيًا، ولمّا سمعتُ صوت أحمد عبر أسلاك الهاتف: صباح البنفسج، أقفلتُ الخط كجبانة حقيقيّة، يا الله ما هذا: لم أسمع أحد قالها بلغة ملحّنة غير مرة إلا وحيد؛ لقد تفاجأت

بعبارة :" ليه يا بنفسج بتبهج وانتَ زهر حزين ". الأغنية التي كتبها بيرم التونسي ولحنها رياض السنباطي، وغناها مطرب صالح عبد الحي: كم سمعتها من مرات ومرات ..

"ليه يا بنفسج بتبهج وانتَ زهر حزين
والعين تتابعك وطبعَكْ محتشم ورزين
ليه يا بنفسج بتبهج وإنتَ زهر حزين

ملفوف وزاهي يا ساهي لم تبوح للعين
بكلمة منك كأنك سر بين إتنين
ليه يا بنفسج بتبهج وإنتَ زهر حزين

بدأتُ أشتم رائحة حزن البنفسج، وبدا كأنّ القمر يمنع حلول الظلام، ويجعل بنوره شجرة الورد الجوري تبدو بيضاء وسط الخضرة، حتى في الليل، ويبدو زهر البنفسج في الأحواض مُتّشحًا بالسواد .

أخذتني أمي من حيرتي المتماهية مع الأغنية، و أجفلتني بصوتها الذي جاء أشبه بيدٍ على ظهري تدفع بي إلى الأمام، واستدرت نحوها والخوف مستمر من ورائي، نظرت إليَّ كما لو أنني طلبت منها تكفين شخصٍ ميّت.

وقد اتفقت الوالدة (فاطمة) مع سيف، رغم أن خيانته للأمانة وضع الوالدة في مأزق: فأولادها لم يعودوا متساويين ولو أن الخطأ في ذلك هو خطؤها.

أما الوالد حسام رحمه الله فلم يمتلك مثل هذا التورّع، إذ سبق له منذ وقت طويل أن اتخذ موقفًا منحازًا عندما وضع حصيلة العمر بيد زوجته فاطمة كي يحميها من غدر الايام، فغدرت بنفسها عندما تنازلت عنها أمام أول تهديد بالانتحار من سيف.

إن أحد ثمرات أزمات الحياة التي وجدتُ نفسي ضمن دائرتها دون أن أدري هي وعي الذي أصبح أكبر من أي ثروة مادية ؛ فلا يمكن لأي ثروة أن تعوض شعور الفقر الداخلي، وتعلمت كيف أبتعد عن التعلق بالظواهر الدنيوية من خلال تعاليم أساسية تقول :" كن في هذا العالم ولكن ليس منه ".

صحيح أن المشاعر تولّد الأفكار، لتختزل الأولى الثانية ؛يمكن استبدال آلاف الأفكار أو حتى الملايين منها بشعور واحد فقط، فالمشاعر فطرية وجوهرية أكثر من العمليات العقلية هكذا قرأت .. والتعبير بالقلم عن الغضب هو العلاج الشافي وافضل من الاستغناء واللامبالاة والاكتئاب، فهو يتولى مسؤولية عقولنا بدلًا من تسليمها إلى جهاز التلفاز والصحف والمجلات والجيران و التعليقات التافهة عبر وسائل التواصل الانتهازي ، تلك الميديا الآلة السحرية التي يمكنها توجيه الرأي العام الشيء وإبعاده عن آخر، وتحويلة إلى النقيض وتعبئته وتصوير ما ليس له وجود على أنه واقع ليس منه مفر.

والتفكير الأمومي جعلني أتلمس خيوط الحب غير المشروط الذي لا يتغير رغم الظروف ورغم تصرفات الآخرين – وهنا ينير الجمال الأخاذ العالم داخلي، حيث يمكن رؤيته في كل شيء، وحسن الخَلق لا يحتاج إلى دليل .

جعلني هذا الحب أن أركز على جوهر الموقف لا تفاصيله، الذي يتعامل مع الكل لا مع الجزء .

- تأمرني الحقيقة أن أسأل :هل كان (منصور) ليكون شخصًا أفضل، لوكان لديه بعض من الضمير الحيّ مدفونًا تحت شعوره بالخوف على ابنائه ؟

- لكن هذا الشعور لم يكن موجودًا ..

- عندما صرخ عالياً وأخته أمل تترجاه أن يرسل وثائق أولاده المدرسية كي يجرى لهم تعديلاً ويتابعون دراستهم في سورية .. ضاعت الوثائق بين اليوم وغدًا، و حجة البعد عن العاصمة كركاس حيث توجد السفارة السورية .

- ووبخ نفسه محتجاً قائلاً: كيف كنت بهذا الغباء الذي جعلني أفقد جواز سفري ؟

- الآن لا يوجد متسع من الوقت لاستخراج بدل ضائع ولا ظروف السفارة تسمح لي نتيجة الحصار على سورية ..ولم يبق لدي المال الكافي، قد ذهب المال حيث ذهبت ليلى، سأعرض البيت والمحلات التجارية للبيع، وها أنا أنتظر من يشتري الهم عن صاحبه ..

- لذلك، كنت قد عدت في هذه الظروف مع أولادي إلى سورية ..

- أغلق الهاتف بعصبية وجنون في وجه ابنته(سهى) والتي جن جنونها لا تملك لاهي ولا أختها أي وثيقة تمكنهما من متابعة دراستهما ولا يرسل لهما إلا القليل القليل من المال ..

- وصاحت أمل قائلة، اهدئي يا سهى: أعرف والدك منصور أكثر منك أنا أخته وأمه، ربيته طفلاً عندما ذهب جدك حسام وجدتك فاطمة إلى فنزويلا، إنه خبير في التهرّب والتملّص من مسؤولياته، ولا يفي بوعده، ولا يعترف بفشله أو تقصيره..

يجيد لعبة التنقل بين موقف وآخر، مستخدمًا أحدث أساليب المراوغة، وبسرعة فائقة، معتقدًا أن لا أحد يمكن رصدها .

مواعيده كثيرة، ووعوده أكثر منها، ولكنه عند وقت الجد يروغ كما يروغ الثعلب ويتنصل من كل ما قال أو التزم به أو وعد .. هو عاشق للعبة كرة القدم، لكنه لم يتعلم منها إلا المراوغة .

الذين لا يعرفونه حق المعرفة يعتقدون أنه رجل أعمال كبير وحمل العائلة على كتفيه، وبسهولة متناهية ولكنهم بمجرد التعامل معه للمرة الأولى سرعان ما يغيرون قناعاتهم تلك ويعرفونه على حقيقته، فاللسان أحلى من العسل والبقية تأتي ..

و أثبت زواجه الثاني فيما بعد من الملقبة بفراشة التواصل الاجتماعي؛ أن لديه استعداد فطري للتخلي عن جميع القيم ويمكن أن يضرب بمستقبل أولاده عرض الحائط في سبيل تحقيق رغباته.

أسلوبه المعروف بالعائلة، الابتعاد عن أي شيء يفضي به إلى الالتزام بما لا يريد الالتزام به، و يحاول أن يوهم الآخرين بأنه ينتمي إلى عالم القديسين، وهو غير ذلك..

وجهه كتاب مقروء بالنسبة لنا، فلا يخجل من قرين ولا يحسب حسابًا لكبير؛ يتلون بألوان السحالي ودمه أخضر مثلها فلا تستطيع أن تميز أهو منصور أم مهزوم ..؟!

لا تستغربوا تصنيفي له: إذ وجدتُ له سمةً مشتركةً مع السحالي التي تعيش على جزيرة غينيا الجديدة بواحدة من أغرب السمات لدى أي حيوان، وهي لون دمها الأخضر. ويسعى العلماء جاهدين لاكتشاف الفائدة التي ربما تعود على هذه السحالي من هذه السمة الناجمة عن مستويات عالية من عصارة صفراء مخضرة سامة بطبيعتها..

فلا داع للبحث، يكفي أن هذا الدم يخالف الطبيعة الإنسانية التي تعتمد على الحواس؛ تلك النوافذ الطبيعية والضرورية للتعلم والإدراك والبيان والتواصل مع العالم الخارجي.

تلاشت كلمات أمل بينما كانت الأم فاطمة تُحاول إعادة الوضع إلى وضعية التوازن المقبول، لكن سقوط الجوال على الأرض من يد (ليال) جعل اللسان يعود إلى الدهشة .. لا، لم تكن ترغب فاطمة مهما كان الأمر جارحًا في إسقاط هيبة منصور أمام أولاده .

مالم تنطقه فاطمة .. ولكنها تقوله بلسان الحال...إذ أصبحت أنفاسها لاهثة، حادة ومتقطعة، بينما كانت تفكر في الطريقة الفُضلى لتتضرع بها من أجل حياتها ومن أجل عائلتها ..

فتحت لها (سهى)الجوال لتقرأ لها رسالة كانت قد ارسلتها لها تلك الفراشة اللعوب تصف أم منصور بكلبة العائلة الكبيرة ..

تراءت لها الصورة المفاجئة للماء وهو يغمر رئتيها نافخًا إياها مثل بالونات حفلة ميلاد "فراشة التواصل الاجتماعي" التي أغرت منصور بالغزل الناري والرقص وسط الفرقة الشعبية الحلبية لدق الطبول، ذاك الغزل الموثق على صفحات العنكبوت.. من خلال التواصل المرئي وفيديوهات الزمن المجنون..

إنها تجيد التعرّي وتتفوق عليه من خلال التلاعب بالأشياء المشتعلة..

- لا شك، إنها امرأة غبية، ذات ميول استعراضية، تريد أن تظهر للآخرين انها رأت اكثر مما رأوا، وأنها فعلت أكثر مما يفعلون، وإن أي رجل تحركه كالخاتم بيدها، إنها شخصية لعوب صاحبة تجارب فاشلة، تحب لفت الأنظار إليها فقط.

مدت يدها الأم فاطمة متوسلة، مستعيدة صوتها المسجون: رجاء، رجاء، لا أريد أن أموت ..امتلأ عقلها بعدم التصديق، بالرغم من أن وعيها بدا يخبو، كانت تعي أن يديها بدأتا بالارتعاش الشديد، لقد اقتضى منها الأمر

أن تعيش كل هذه السنوات لتعثر على هذه المسامير اللعينة كي يدق بها نعش ايامها الباقية.

تأسفت فاطمة جدل وانقسامات واختلافات في الآراء، وأحكام مسبقة، لقد كانوا أولادها انتقاديين للغاية يثرثرون مثل الهراء.

بدا لها أن مثل هذا الهراء يختلف ويزيد الاختلافات، بينما يعلم الله، أن الناس مختلفون بما يكفي دون ذلك .

وتوجهت فاطمة للجميع قائلة: هل أحد منكم يستطيع أن يتغافل عن ذلك الاختلاف فيما بيننا ؟

وردت أمل متسائلة :

- هل افهم من هذا أننا سنصل إلى السبب الذي دفع منصور إلى الاقتران بفراشة التواصل الاجتماعي.. فراشة الفيس بوك..؟

- علينا أن ننتبه ؛إنّ أحد أكبر أسرار التواصل الاجتماعي هو التقدير، ففي تصرفات الآخرين معنا هدايا خفية، حتى لو كان هذا السلوك يبدو سلبيًا ففيه شيئًا لنا وكثيرًا جدًا ما يظهر شيئًا ما بشكل إشارة لتصبح أكثر إدراكًا.

- لا يهم الآن، كل هذا الإبحار في مستنقعات السلوك المضاد، أنا لا أعرف ما الذي تريده، وأنا مندهشة لرسالتها الآن .

- هل تريد شيئا على وجه الخصوص؟

- ألا تعتقدون أن الأمر واضح ؟

هل تعتقد هي أننا يمكن أن نتجاهل هذه الإهانة ببساطة، كما لو أنه لم يحدث أبدًا ؟

- إنها تخطط هذه الأخرى لسرقة ما تم تهريبه إلى سورية من أطماع الأولى، يبدو أن لديها أفكار وتطلعات للمستقبل، لكن قد لا تتناسب مع حياة منصور وعائلته وأمه فاطمة التي دفعت ثمن غربتها مفاصل ركبتيها..

- وماذا تغير منذ ذلك اليوم المشؤوم ؟

- يصبح السؤال بلا معنى عند تكراره مع هذا المزيد سيأتي؛ لأنني مسرفة في مراسم المجاملات وبسبب رغبتي المفرطة بأن تكون عائلتي بالمجتمع مقبولة إلى حدٍّ ما .

- علينا قطع الحبل السري كي لا نبقى على تواصل مع استرجاع الأحداث المقلقة، واتهام النفس، والتفكير في نوايا الشخص الآخر، إلى آخر هذا التسلسل المُعَوِّق الذي يُدخل الشخص في دوامة من الاحتراق الذاتي، مما يشل أفكاره، ويربك حياته.

- وذلك بالتركيز على الفكرة المقلقة، والصراخ بكلمة "قف" -ولو في ذهنك- لضمان إنهائها..

- يبدو أنكم مصرون على التعلق بأهداب الماضي ..

- نعم، لأن الماضي أبو الحاضر، والسنوات الماضية مجرد فاصلة.

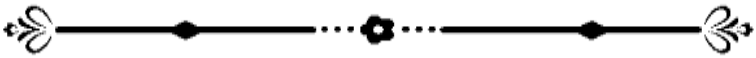

""يجب صون الحرية من الابتذال، وإنّ ممارسة الحرية من قبل أكثر الشعوب تمسكاً بها، تحملني على الاعتقاد بوجود أحوالٍ ينبغي أن يُوضع فيها غطاءٌ يسترُ الحرية مثلما تُسترُ تماثيل الآلهة ".

الفيلسوف مونتسكيو

الفصل السابع

خيم الصمت ..بينما تكثّف الظلام ففقدت الأشياء أشباحها واختفى شريط الضوء خلف متحف طرطوس ..أما النجوم فأصبحت أكثر إشعاعًا، وبدا تأثير الإضاءة هذا جميلًا وحسيًا أثناء الليل.

لم يحدّثني القمر، كيف تكون المسافة كأنها القلب وأنت ما زلت، أنت تحاول في كلّ مرّة أن تعود بي لنفس النقطة .

- لا، كلّ ما في الأمر أنّني أخاتل – متى أشاء- حرّاس الليل، فأذهب في المدى، أقطف قبلة، وأعود بسلال الحروف..

- حدّثت عنه أحلامي السّابحات، وقلت لها: سوف تلدنا الشمس، ولا حاجة لنا بسفينة نوح، كلّ ما في الأمر، مناورات غزلية، نستكين فيها، والحقيقة المسكوت عنها، هي تتمرجح بين المبتدأ والمنتهى .

أحيانًا أسأل نفسي إن كانت بعض الذكريات حقاً ذكرياتي، ألا تكون ذكريات دخيلة لأحداث قمت بمشاهدتها بلا وعي ثم قاموا بعد ذلك باطلاعي عليها..؟

أيقظني رنين الهاتف، قفزت من على سفينة تأملاتي، واستعدت هاتفي المحمول من مأخذ الكهرباء التي بتنا في سورية ر هن إشارتها.

- رأيت الرقم، إنها (أمل) تقول: أتصل كي أعلمك بخصوص شجار عنيف وقع بين سهى وعمها (سيف) وجدتها (فاطمة)أثناء قدوم سيف فجأة و لغيابها المتكرر، انتظرها أمام مدخل المنزل ووسط الشارع اخذ بضربها وتعنيفها، ووضع مسدسه في رأسها ويبدو إنها في ورطة كبيرة، ولا بطاقة شخصية لديها ولا أي شيء يثبت شخصيتها كي تتمكن من الهروب به خارج البلاد، كل ذلك بأيدي سيف، لذلك الخوف ليس من السفر، لكن الخوف إن أحد ما أخذها إلى السفارة الفنزويلية لأنها تعتبر أحد رعاياها.

- حسنًا، هي لا تعرف بعد هذه الميزة، كانت استخدمتها، وعادت أدراجها ..

- لكنها كانت في مزاج رهيب طوال اليوم، بكت أمها كثيرًا، ولم تأكل أي شيء.

- نعم، ما الذي فعلته هذه المرة ..؟

- كسرت قفل باب البيت وهربت هي وأختها ليال و البحث جاري عنهما..

- يا الله: سهى تحب التحدي، وهذا جيد، لكن لديها القدرة على اختراع الأكاذيب والقصص الطويلة وروايتها ببراعة، لم أكن أصدقها قط .

- مع كل هذا، أشعر بالأسف لرؤية فتاة في ريعان تفتحها تمتلئ بأصدقاء يدخنون ويشربون نهارهم ليل وليهم نهار وخارج أسوار التربية والتعليم.

- ربّما يا أمل لم تكن كاذبة على طول الوقت، ولكنني أرى أنها اعتادت الكذب، إنها شيطانة كبيرة .. ومن هنا معك الحق عندما أطلقت عليها اسم "أبليسو "

- يا إلهي :كيف يمكننا أن ننتحي جانبًا في غياب هذا الأب الفاشل منصور؟

ليس السَّببُ غامضًا، إن مرحلة المراهقة من أخطر مراحل العمر لما فيها من التغير وشدة الانفعالات واكتمال تكوين الشخصية وغير ذلك من التحولات.

وهناك عنصر خطير له دور بارز في الانحراف وهو الفراغ، وعدم وجود ما يشغل المراهق فيما ينفعه قال الرسول صلى الله عليه وسلم :" نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ".

في ظل آفات الانفتاح العشوائي الحادث الآن و تداعيات العولمة وتأثيراتها على الأسرة والقيم المجتمعية ؛ ليصبحوا الآباء هم أنفسهم عبئًا على الأبناء كما في حالة منصور، ونحتاج بسرعة الضوء إلى نموذج يحمى الآباء والأمهات أنفسهم، ويعلّمهم كيف يربون أبناءهم، ويكون بمثابة بوصلة لهم، فما لا يُزرع في الطفولة لا يُنتظر حصاده في الكبر..

-هذا أمر فظيع، و أشعر بأسف شديد حيال ما حدث ويحدث لسهى وليال، إنهما يشكلان لوحة هذا الزمن العنكبوتي .

قالت فاطمة: اتمنى لو بوسعي أن يكون لي كوخاً صغيرًا بمكان ما في قرية بمكان ما .

- قالت أمل :كفى يا أمي من فضلك، أم أنك تريدي الموت لابنتك ؟

هطل المطر، وأطاحت الريح القوية آخر ما تبقى من علبة السجائر التي كانت قد رمتها سهى في الأرض بعد أن فرغت منها.. مضى يومان الآن على غياب سهى واختها ليال وهما في الخارج، وأخذت فاطمة تبكي وتندب حظها، ووقعت ما بين السيف وحدّة سيف .. كيف لا تكون مع سيف؛ هو وكيلهما في غياب منصور بكل شيء.

حدّقت إليها أمل وقالت: لا افهمكِ يا أمي.

تناولت كتاب الله الكريم، وذهبت لتجلس قرب النافذة، فتحته ثم بعد دقائق من التردد وضعته جانبًا، وذهبت إلى الهاتف فترنّح الهاتف بين يديها، وعادت تطلب النجدة من أخيها المحامي محمد.

- اعذرني يا أخي، لكن لا يمكنني أن أخفي عنك قلقاً كبيرًا، هل هناك أي خبر عن سهى وليال .

أجابها محمد: لا تقلقي أنهما في بيت خالهما في القرية، واتصل بي من خمسة دقائق كي أعيدهما إلى البيت وهو ليس بإمكانه تحمل مسؤوليتهما في هذه الظروف الاقتصادية الصعبة التي تمر بها سورية وهو صاحب عائلة ولا بإمكانه حتى القيام بواجب أولاده، واعترف أن أخته ليلى كانت قد أخفت بعض من مصاغها عنده أثناء زيارة لها كانت إلى سورية، هو حريص أن يأخذ حصة ويعطي الباقي لابنتيها .

قالت الأم فاطمة: له الشكر والله أنه اعترف بالأمانة، إنها أزمة رديئة على الجميع يا بني وعلينا أن نتعاون حتى يأتي من الله الفرج .

- كم من المرّات قلت له هذا، غيابك يا منصور سيرمي العائلة في ألسنة النار الاجتماعية؟

- ولا تقولوا لي أن الحفاظ على سمعة العائلة هو أمر عفا عليه الزمن .

- الزمن يتبدل، لكن ليس لهذا الحد.

- لم تجب أمل بشيء، لكنها أطفأت التلفاز داعية إياها بذلك للبوح لها بما تكنه، فتنهدت فاطمة كمن لسعه عقرب :عليَّ أن أكلم فراشة الفيس بوك ليس غيرها له القدرة على استمالته وحضوره بسرعة بحجة الزواج منها وهو الأرمل المغرم .

- إني قلقة جدًا بشأن ليال يا محمد..!

- وتابعت تقول: لست أدري في أي عنكبوت تزج نفسها، ولا أعرف من هؤلاء...هل هم المخنثون الفينزويليون الذين يواصلون الليل بالنهار معها على النت ..؟

- أصبح النت بالنسبة لها المطبخ والحمام وغرفة النوم .

- إنها تغيرت بطريقة ما، أصبح هناك انطواء في شخصيتها الآن، وبرود تجلّى في ملامحها، ولم تعد تتمتع بالصبر عند التعامل مع بقية الناس.

- لماذا لا تذهب إلى النادي الرياضي مثل اختها، لتلعب وتتعرف على فتيات وشبان نعرفهم بالواقع ويعرفوننا.

- إنها تتذرع بعدم وجود حتى هوية شخصية لها، معها حق يا أمي، مع كل هذا، غدا إن شاء الله، سأذهب برفقة أختي وصديقتي وأمي أمل كي

نحضرهما ونعيدهما إلى البيت، وسأسجل لهما بأحد المعاهد الخاصة دروسًا باللغة العربية، ريثما يأتي منصور،

انتبه يا محمد إلى هذه المقولة قرأتها بحكمة اليوم: "كل الطرق مراقبة بأجهزة ضبط السرعة، إلا الطريق إلى الله" تعالى مكتوب عليه: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم).. فأسرع فيه كما شئت، فإن منتهاه الجنة!

- و" لا توجد شجرة لم يهزها ريح، ولا يوجد إنسان لم يهزه فشل، لكن توجد أشجار صلبة، ويوجد أشخاص اقوياء، فكن منهم " يا بني، وأعلم أنك جذور هذه العائلة التي صارعت أعتى العواصف .

- إنّ ما فعلته الآن يا بني كان هو الصواب ..

وعلى الرغم من المصاعب التي كان يجد نفسه بها بسبب هؤلاء الأخوة، فقد كان محمد يشعر بالرضا عن حياته، وكان يشعر بالسعادة بعلاقته مع كل أفراد العائلة الصغير قبل الكبير، هو الصديق والأخ والأب والجد للجميع، و لم تقلقه منذ سنوات شبابه العاطفة العائلية التي حددت مسار حياته وطباعه وعلاقته مع الكل.

شعرت فاطمة بارتياح فوري، لكنها شعرت فيما بعد بالخوف، لم يكن العيش مع قنبلتين موقوتتين سهلاً، ولا النشأة بين عالمين مختلفين أكثر سهولة ..

أن من أبرز الأخطاء الأولى التي يرتكبها أولياء الأمور ولا البعد عنهما أمرًا مثالياً، لن اهتم ببعض الانزعاج مقابل الحصول على عودة الهدوء إلى البيت وعودة سهى وليال..

تركت نفسي للطيران على أجنحة الكلمات لنصل معًا إلى هذا العالم المختلف عن عالمنا، كيف يتغلب أبناء المغتربين على تحديات العيش في خارج الوطن وداخل الوطن؟

يا للحيرة، المصيبة تتربص بنا عند باب الدار، و أصبحنا كمن ابتلع ماء وجهه وتقيَّأ حياءه وكرامته .

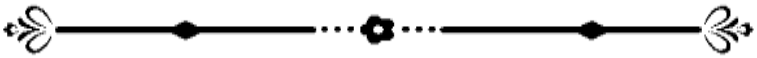

إن المفاهيم مثلها مثل الأفراد، لها تاريخها، وكما البشر ليس بمقدورها مقاومة الزمن.إضافة إلى ذلك أنها مثل البشر تحافظ على الحنين إلى صور الطفولة .

الفيلسوف الدنماركي: سورين كيركغور

الفصل الثامن

كانت أمل هي أول من يستيقظ وآخر من يأوي إلى الفراش قبل صياح الديكة تكون في المطبخ لتحضر القهوة، وتأخذ الحليب الطازج من الحلاب الذي مازال حتى اليوم يأتي بالحليب إلى البيت ..

لا تعود إلى الجلوس فهي مشغولة دائمًا بالغسيل على الغسالة اليدوية – ما كانت تعرف سوى العمل والتعب في بيت منصور – بل تجد نفسها أحيانًا محظوظة لأن زوجها لا ينزعج من خدمتها لوالدتها القاصر .

ضحكة خافتة جعلت أمل تلتفت، كانت واقفة في المدخل، كانت عينا سهى دامعتين.. اقتربت من أمل واحتلت مكانًا إلى جانبها، قالت لها امل بسخرية لطيفة وقاسية في آن :

حسنًا، أعتقد أنك ورثتِ جينات الذكاء من والدك منصور، ومني البكاء يا حلوة قالت وهي تلكز سهى في جنبها بلطف في جنبها ..

بالرغم من أن هذا مستحيلاً إلا أن الكلمات تسببت لها بغصة في حلقها عندما فكرت كم كان من الممكن أن تحظى هي وليال بمصيرين أفضل .. وعلى الرغم من أن سهى الصغرى، وقادرة على الاعتناء بنفسها جيدًا، إلا أن ليال عرفت أنها لا تزال الأخت الكبرى التي تحميها، وبالرغم من الغيرة

بينهما وعدم الانسجام، إلا أنها كانت مشغولة البال عليها، ولم تستطع السيطرة على هذا الشعور.

الكلمات جعلتها تبكي، لذلك قد اكتفت سهى بالإيماء برأسها، والأشياء ستمسي أصعب على التفسير..

من الشرفة الأخرى، حيث الياسمينة لم تنبت أوراقًا ولا ازهارًا بعد، أطلّت ليال .. كانت ترتدي ثوباً رقيقاً بلون جلد النمر، متبرجة بمكياج صاخب .. وتحمل في يدها كأسًا من الماء وبداخله بعض شرائح الليمون وبعض أوراق من النعناع لتسهيل الهضم وتنقية البشرة.

نادت أمل رائحة القهوة المتسربة من المطبخ ، ودفعتها كي تنهض وتأخذ فنجانها لتملأه ثانية.

بينما كانت تسكب القهوة في فنجانها، قرع جرس البيت، كانت (ليال) هي التي مضت لتفتح باب البيت، فتحت أمل فمها مندهشة، إنه صوت (ندى) "أم حسن" صديقة الوالدة فاطمة من أيام الاغتراب الطويلة في فينزويلا ..

رحبت بها باللغة الفنزويلية التي كانت قد بدأت بالفعل في الشعور بقدر أكبر من المرح، وبدت شديدة الارتياح، فقد شعرت انها عادت من جديد إلى محيطها الذي تحب ..وهمست بأذن ليال السيدة (أم حسن) عائدة إلى اللغة الاسبانية: ما الأمر؟ ما الأمر ؟

- أأنتِ يا بُنيتي في حاجة إلى شيء ما ؟

- أنا آسفة، تبدين في حالة غير جيدة ..أتمنى ان لا أراكِ حزينة هكذا، أليس من الممكن ألا تفكري في هذا الآن وتفكري فيه في يوم آخر؟

- هل هناك أي فائدة من حديثي معك أم هل ستضربين بكلامي عرض الحائط؟

- كانت ثمة نظرة ساكنة جدًا في عيني (ليال) قد حرّكت إحساسها بالمسؤولية واشتدت أكثر نحو حديث "ندى" بينما حدّقت أولاً في الأرض ثم في البعيد، وداومت على الابتسام لها .. و بعد لحظة قالت: أنا لست بالفتاة المُعاندة ولا المشاغبة، فأنا حقًا أرغب في متابعة دراستي.. وأنا مستعدة للتّخلي عن كل شيء والعودة إلى مدرستي في (أكريكوا)..

- كنت أتوقع هذا الأمر، وكنت دائمًا أقول لوالدك ذلك، لكن والدك منصور أغرق نفسه في متاهات الأنا .. كان عليه أن يتوقع تلك المُعطيات والتحقيقات التي لم تكن يومًا في صالح أي غريب يتعرض لأي مشكلة هناك.

- حتى منصور هل هو الشخص الذي كان في ما مضى " هل هو الشخص نفسه الذي كان قبل الحادث المشؤوم لوالدتك ؟

- لا أظن، لم يجرؤ أحدٌ على انتزاع الحقيقة، في غير جدوى يمر الوقت من بين يديه، والتقرير الأخير يسجل القضية قضاء وقدر، ودونما كلمة إضافية.. هكذا حدثني ابني في اتصاله البارحة بي،ومنصور لم يعترف لكم

أنه في ورطة كبرى من تهديد له من قبل مافيات متعددة الجنسيات، و تحذيرهم عبر أحد العملاء بعدم استئناف الدعوى .

- إثر ذلك، كان منصور مضطرًا لدفع تكاليف الدعوى طمعاً بالتعويض المضاعف من شركات التأمين،و تسديد أقساط البنك الذي ورطت سيلفا به والدتك ليلى بحجة الشراكة في شراء العقارات والحساب المصرفي والسجل التجاري وكل شيء باسمه .. لم يتم التعويض له ..

- والآن لا شيء بين يديه يعيد له خساراته الكبيرة في التبدّلات الاقتصادية العالمية نتيجة الأوبئة و الحروب التي تشنها أمريكا وأدواتها الذين ينشرون الفساد و يضربون الاستقرار هنا وهناك وتدفع ثمنه الآن فنزويلا كما تدفع سورية عن العالم كل هذا الخراب.

- قالت فاطمة: نفسي لا تتسع لحالات بؤس الآخرين، إنني أحمل على كتفي حملاً لا يُطاق من الآلام والمظالم، وكثيرًا ما كنت أعاتب الخالق الذي يختبر إيماني بهذه القسوة، إذا كان الحب الإلهي موجودًا فإنَّ كُلَّ هذا الألم البشري لا يعدو أن يكون أكثر من سخرية .

- ضربت سهى على الطاولة ونظرت إلى جدتها بلا تعاطف فهي على خلاف مبدئي ودائم معها وخصوصًا فيما يتعلق بصديقاتها وأصدقاء أختها ليال، لم تكن تقبل أيضًا بتوجيه النقد لوالدتها التي ارتفعت روحها إلى السماء، إلا أنها رأت (ندى) محقة فيما تقول، أو ربما هذه الصفعة من عمها (سيف)أيقظتها من نومها في العسل .

- وفي تلك اللحظة أصبحت وسيلة التواصل بينهم هي النظرات التي كانوا يتبادلونها بصورة لا إرادية تقريبًا، بدأوا يغضبون جميعًا بعض الشيء، دون أن يكون واضحًا ذلك الغضب، هل حدث ذلك بسبب سلوك الأب أم بدافع ما اكتشفوه الآن.. ؟

- فكلُّ ما هنالك هو أنَّ ثمّةَ لغزٌ، إنّه عقابٌ إلهي ، أو لعنةُ أنثى يتمُّ بمقتضاهما معاقبتهما معًا .. المرأة التي خدعت زوجها، والزوج الأناني الذي لا حدّ لطمعه ..

وتهدّج صوتها وهي تقول: حينما يموت ربّ البيت تحل مصيبة كبيرة، هؤلاء الذين كانوا يتباهون بالثراء ليسوا سوى أناس ذوي جيوب فارغة، اليوم يبيعون الذهب وبعد غد سيبيعون كل شيء ثمين يملكونه .

ربّما كان لا يروق لمنصور انني صريحة هكذا .. لقد ظلّ جدكِ حسام رحمه الله وجدّتكِ فاطمة، يقيمون زمنًا طويلاً في بلدة "تكوبيتا الفينزويلية قبل انتقالهم إلى "أكريكوا"؛ ولهم فيها سمعة ومكانة جيدة ..

سأذكر لكم بعض التفاصيل الحكيمة التي كانت تتحلى بها جدتكم فاطمة في الغربة :

- ذات لقاء يضم عددًا من الجالية العربية، رأيت بعيني فاطمة اللتين تشبهان عيني نسر، فيما راحت تتابع النسيج بسنارة مفردة، ولكن بعصبية زائدة عن إيقاعها المعتاد، وأنا أسترق النظر إلى تصرفاتها الصامتة، كأنها تمنت أمنية يائسة ..هي ألا يراها (عدنان) هذا الرجل المغرور الذي

يعارض حتى مطر السماء ، والمدمن على لعبة النرد..ثم استغرقت في تحريك سنارتها .. ولم تكن بحاجة إلى مثل هذا الاستغراق، فطالما نسجت دون أن تنظر إلى خطوط نسيجها .

- أذكر قالت له من الأفضل أن تذهب إلى بيتك لتنام على خسارة ..

- أجابها لعبت مع الهندي وغلبني، مع أن مكعبات النرد والطاولة ملكي.

- ردت: لأنك صرت نصف أعمى، ولهذا يغلبونك .. عليك أن تسافر إلى سورية لأن فيها أطباء حكماء يبدلون عيون الناس من أمثالك بعيون ترى البساطة والحياة بعيداً عن الطمع وتجارة الأوطان.

- احتج بصوت واهن: هذه التي تقولين عنها استبدال عيون هي (عدسات) توضع فوق العينين وتكبر الأشياء، لكني لا أحتاجها .

- ساد صمت طويل بينهما .. تابعت فاطمة أثناء ذلك استغراقها في سنارتها ..وامتد الصمت بين فاطمة وعدنان المغرور إلى حدود ألف دور من أدوار نسيجها .

- ثم جاء صوت عدنان ليقطع هذا الصمت .

- لم يكن لدي فاطمة وقت للمجادلات العقيمة.

- ورأيته يقف فوق راس فاطمة وسألها بصوت حاد مقتبس من صوت بوم خرافيّ: كم شجرة نارنج لديك هنا وفي سورية، كم شجرة شاخت وتوقفت عن الإزهار، تودين قطعها وبيعها حطباً .. أسعار الحطب هذه الأيام في سورية مرتفعة بسبب عدم توفر الوقود ولصالحك هذا .

- ردت فاطمة: ليس لدي أشجاراً للبيع، كل أشجاري رقدت كأمهات فوق الأرض، وكلما ازدادت عطشاً امتدت الجذور إلى ما لانهاية ..

- وشعر أنه صار زائداً كزيادة الملح للطعام .. ومضى مبتعداً

- نعم هذه هي جدتكم فاطمة مثال المرأة العربية الحرة.. كانت وعائلتها يقيمون في بيت يتوسط محلهم التجاري الصغير، حيث ظلوا يحيون – سنينًا طوال –حياةً جديرةً بالاحترام، وواصلوا عملهم ليل نهار. . وهذا أكسبهم تقدير كل من تعرف عليهم من الجالية العربية والأجنبية .. ولكن، ما اتصفت به (كاترين) زوجة سيف الأولى الفنزويلية من برود طباع وثقل الظّلّ كان يبعث على الاشمئزاز الشديد ..بحيث إذا قيس بهما وقار السيد حسام، و المرح الصاخب التي تتصف به فاطمة .

كانت الجالية العربية تتباهى بأناقة مائدة السيدة فاطمة ومهارتها في نسيج السنارة الواحدة وصنع الشالات للهنود القادمين من الأرياف،وحسن نظام بيتها وأخلاقها الرفيعة، وكانت تجد متعة كبيرة في المآدب التي تقيمها بالمناسبات الوطنية رغم بعدها عن وطنها سورية .

ولكن الجد حسام كان يجد متعته الكبرى في الاجتماع بعدد مهم من الجالية، فيلذ له أن يجمع حوله من الشباب العرب أكثر مما يتسع له منزله، ويزداد سرورًا كلما علا ضجيجهم كلما اختلفوا بالتقييمات السياسية، مؤكدًا لهم: "الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية" ومشيرًا بهدوئه وابتسامته على أن الاختلاف في الآراء ووجهات النظر هو ظاهرة صحية.

ولم يكن الرجل لا ظالمًا ولا جاحدًا للمعروف كي يحرم بناته من حقهم في الميراث.، وكان حريصاً على مصلحة زوجته فاطمة وبناته، فقد سجل القسم الأكبر من أملاكه في سورية باسم فاطمة وكتب وصيته أنها خاصة هذه للبنات والأم فقط .

إلا أن فاطمة كانت معصيتها أنها وهبت كل هذا لابنها الصغير (سيف) الذي استمال قلبها بشتى الطرق، رغم أنه لم يتصف بما كان يتصف به بقية أفراد الأسرة من قوة العاطفة..

وأقسم لها أنه سيوزع ثمن هذه الورثة على أخوته بالتساوي بما فيهم البنات .. ولم تشكّ في صدق هذا الوعد ولم يتأثر بهذه الوصية، ولم ينفذ الوعد اكثر مما شك فيه زوجها حسام الذي أقسم أن يسعى بكل ما وسعه لتنفيذه.. لكن للأسف كان القدر أسرع .

وكانت (أمل) -هذه البنت الكبرى التي كانت لنصيحتها أثر فعال- تزدان بقوة الفهم، ورصانة الرأي مما أهلها لأن تكون أم أمها وأم أبيها، لأن تكون الناصحة الأمينة لأمها، ومكّنها في أغلب الحالات أن تعمل على مصلحتهم جميعًا، ولولا ذلك لأدت هذه التصرفات الجنونية إلى التهور والحماقة .

وتتميز أمل بطيبة قلبها، فهي مطبوعة على الحنان، قويّة العاطفة، ولكنّها كانت تعرف كيف تتحكم في هذه العاطفة، وهي خصلة كانت أمها (فاطمة) بحاجة إلى تعلمها، وأختها الصغرى أبت أن تتعلمها .

وكانت خيبة الأم شديدة لعدم تنفيذ ما تعهد به سيف لها، وقطعت الأمل في التماس أي عزاء في المستقبل.. وتأكدت حكمة المثل القائل :" وعد بلا وفاء عداوة بلا سبب" .

- إن عدم الوفاء لتنفيذ الوصية هو بداية اللعنة التي أصابت العائلة في الجيل الرابع .. لا شك أن هذا أمر له أهميته وميراث له قيمته، وأعتقد أننا كنا بحاجة إلى ميراث الحب أكثر لنزيد من جمال ما عندنا عنه، وكانت هذه الحجة مفحمة، قطعت الشك باليقين .

- وقالت امل :أعتقد أنك على حق فيما تقولين يا ست (ندى).. لكن، لم تكن ظلال الخوف من الحرب الدائرة في سورية بكل ما تحمل من رائحة الموت وحدها التي مثلت ضاغطًا على روح وعقل (فاطمة) فقد أُثقلت أمي وأُنهكت العائلة بحوادثَ فاجعةٍ كثيرة ليس بدءاً بموت زوجة الابن الكبير (سعيد)، وموت ابنه الوحيد جمال في ريعان شبابه بظروف غامضة في فينزويلا ..وتربية جيل من ا ليتامى .. الجيل الأول والثاني من أبنائه .

ومن ثم تربية الجيل الثالث - أبناء منصور- بعد وفاة زوجته بحادث سيارة مدبر، ومن ثم تربية _ الجيل الرابع – لأولاد (سيف) بعد أمهم بعد معاناتها بمرض عضال .

ولا انتهاء بالأصدقاء والأقرباء الذين كانوا يستشهدون في الحرب الظالمة على سورية وتداعيات هذه الحرب .

لذلك، يباغتني شعورٌ حاد بعدم الجدوى التام لحياتي .. هذا شيء يشبه الركض برأسك صوب حائط في نهاية حادة.

قاطعتها ندى قائلة: الحياةُ تفرض قوانينَها ؛ برغم من هذا نحتاج للشجاعة والصدق مع أنفسنا لرؤية سلبياتنا والقصور داخل أنفسنا، وعندما نستطيع أن نتعرف على السلبيات التي ورثناها من العادات البالية، سيكون لدينا القدرة على التسليم وأن نتحرر منها ومن العادات المكتسبة من المجتمع الفينزويلي التي تجعلنا نعيش الصراع بين ثقافتين .

-يا بنيتي: هؤلاء جهلة تمامًا، ليسوا على الصراط المستقيم، ولكنْ لديهم بعض المزايا الطيبة وهذا لا يمكن نكرانه ، مثلهم مثل كافة الشعوب الأخرى لذلك، فإن "المجتمع هو في الوقت نفسه كل شيء وهو بالتالي لا شيء، وبمثل هذا الشيء واللاشيء فإن أعمالهم تنتفخ حتى تصل إلى أحجام غير منطقية .

- على أي حال هذه هي الحياة، كيف انتقلت بنا بسرعة الضوء إلى هذا الضياع المبرمج ؟

- إنه أمر يدعو إلى الشك ... دحرجت ندى كلماتها كما تفعل الكرة وهي تدهس أزهار الليلك والسوسن قائلة: علينا البدء من حيث نحن .. لنصل إلى حيث نريد، إذا ما أردنا أن ننتقل من هنا إلى هناك، فلن يمكننا أن نصل بسرعة إذا ما خدعنا أنفسنا وقلنا أننا نبدأ من مكان قريب، أو

اعتقادنا بأننا أقرب إلى هدفنا مما نحن عليه فعلا، فهذا يجعل المسافة أبعد .. "إن غابت الرؤية هلك الناس".

الحياة هي ما نراه في عيون الناس ؛ هي ما نتعلمه ونكتسبه بالرغم من هذا نحاول إخفاءه ونجتهد في التوقف أحيانا عن الوعي، سيماء التكتم كامنة في كل الوجوه، شفاه مغلقة، عيون يغلفها السواد وأجساد يغلفها التخفّي .

واستدارت بوجهها وصوتها إلى "فاطمة " هذا ما يحدث هناك دائمًا ..

إن الامر فظيع، مخيف جدًا .. إني لا استطيع ان أصدق ما يحدث ..

وما حدث هناك في بلاد نعتبرها أفضل منا، واستأذنت ندى فاطمة باستذكار واقعة حصلت مع فاطمة وهي كانت مرافقة لها آنذاك:

-قبل خمسة عشر عامًا، وأضيفوا إليهما خمسة عشر أخرى وأخر ى مضت على اليوم الذي ولّدت فيه فاطمة (منصور) في مستشفى (كركاس) – لكن فاطمة – تستطيع أن تتذكّره، كما لو أنه حدث منذ وقت قريب .. فيما أنها كانت قد أنجبت مرات عديدة، فقد وضعت مولودها بسرعة، ورفعت نفسها مستندة إلى مرفقيها، كما كانت تفعل، لترى الوليد وهو يخرج من أعماقها، متحققة من شبهه بأولادها الآخرين .

-الشعر الناعم الأشقر كشعر الأب حسام والبشرة البيضاء التي يتميز بها حسام .

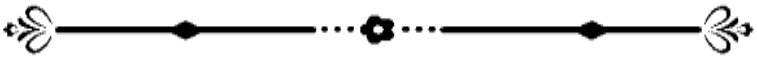

- لهذا حين حملوا طفلاً ملفوفًا بحرام ملون ولمحت زغبًا أسود يغطي جمجمته شبه الصلعاء عرفت دون أدنى شك أنه ليس ابنها ..

وكانت ردة فعلها الأولى أن أنكرته واحتجت، لكن الممرضة كانت على عجل من أمرها، فرفضت الاستماع إلى حججها .

- بدأ الطفل بالبكاء، فتحت فاطمة قميص نومها بحركة تحمل نداء الوجود، ووضعته على ثديها ؟؟

-فلم يأخذ الطفل ثديها، فتأكد لديها بأن هناك خطأ دون ريب متعمّد أو غير متعمّد، هذا ليس ابنها، وقصص التجارة بالأطفال البيض كانت قد سمعت بها كثيرًا في هذه البلاد من تجارب الآخرين والإعلانات والأفلام التلفزيونية التي كانت مغرمة في متابعتها.

-بعد ساعات هرعت إلى عدد من الممرضات والأطباء الذين استفزّتهم الضّجة، وجاء مدير المستشفى بنفسه، لتطرح مشكلتها بأشد الأساليب لطافة لأنها لم تكن راغبة في استفزاز أحد، وهي الغريبة ؛لكنها أوضحت بجرأة قل نظيرها، أنها أخرجت إلى الدنيا طفلاً أبيض وإنهم جاؤوا بآخر..

- امتعض مدير المستشفى من هذا الكلام، وأخذها بأسلوب التأنيب، والإهانة، متهما العرب بأنهم غير شاكرين لنا أننا أنقذناكم من براثن العوز الاجتماعي والقتل الجماعي وجماعات الإرهاب الاسود، متوجها بأسى العبارات :جئتم إلينا عبر آلاف الأميال كي تعلموننا دروسًا في الإنسانية..

وجاءت رئيسة الممرضات ووبخت فاطمة ورمت الطفل في حضنها كـأنها ترمي سلة من النفايات.

- فحمّلت فاطمة نفسها مسؤولية ما حدث ؛ فجميع أولادها حتى ذلك الحين ولدوا في البيت بمساعدة الداية (هدى) التي كانت تراقب الحمل منذ شهوره الأولى ثم تأتي قبل الولادة بيوم فتبقى تراقب حالة الولادة .

- كانت تأتي بأعشابها التي تساعد على ولادة سهلة، وضمّاداتها المعقمة، ومراهمها من اجل حلمات الأثداء، وأدواتها التي تستخدمها للقص والشق وخيوطها .

- وحتى يخرج الوليد إلى النور أخيرًا تقطع حبل الخلاص بمقصها الحنون، لتمنحه قوة الحب والعافية والحياة، ثم تفحصه للحال من رأسه إلى أخمص قدميه، وتحمد الله وتبادر إلى إدخاله في حركة الحياة بضربتين ويبادرها الشكر في البكاء .

- تلك المرأة الرشيقة صاحبة أجمل ضحكة رحمها الله، العابقة بشذى دائم من البخور العُماني والخزامى العربية، ساعدت في ولادة جميع اطفال المنطقة وكأن سجد بين كفّيها كنائس الكون ومساجده .

كان ذلك بلا شك صوتها السابق، لكنْ ما زجته، كما لو كانت قادمة من البعيد البعيد، زقزقةٌ أليمةٌ لم يكن هناك سبيل لوقفها، وبمفعولها لم تكن الكلمات تحافظ على تمايزها إلا في لحظة النطق بها تحديدًا ؛ وتترك

الجمل ناقصة للشك في كيفية إتمامها، هي أشبه بزمرّدة على جبل من الضوء.

في الشهور الأولى التي تلت ميلاد (منصور) ندبت حظها وسوء طالعها وفكرت بأن الله يعاقبها لذهابها إلى المستشفى بدلاً من البقاء في البيت .

وكانت تفضّل عدم الخوض في التفاصيل ، لأنّ هناك أمور أخرى ليس من اليسير طرحها من الذهن على هذا النحو، فالأمور سيئة سوءاً كافياً في الاغتراب، ولكن ليست أسوأ ما في الإمكان، فلم يزل لدى فاطمة الشكوك، ولكنها كانت دائماً تؤجل السؤال .

و فكّرت أن تذهب لكنيسة المدينة كي تشرح لهم أمر شكوكها فيما حصل معها يوم الولادة وتشعل الشموع للسيدة العذراء ..

والسنوات الرديئة لا تأتي فرادى، ولكن فاطمة تعلمت الصبر وتقبل ما يأتيها به الحظ، وبعد شهور مضنية بالشك والتأويل والتردد، لم تشعر فاطمة بنفسها إلا جالسة في الكنيسة تحاول ان تصلي، كانت الكنيسة مظلمة وبعض من رجال ونساء وأطفال يقفون في منطقة الاعتراف .

وفي مقدمة المذبح شمعتان تتقدان، كان المصباح الأحمر الثابت يتوهج مثلما كانت المصابيح الصغيرة في منطقة الاعتراف .

ووصفت حالها فاطمة قائلة : عينايَ معلقتان بما أرى، ولكني أعجز عن تفسيره، وعقلي يرفض أن يكون ما أراه حقيقة .. شعرت بالبرد، فقد بقيت حوالي ساعة في الكنيسة، سمعت الهمهمات الخفيفة للمعترفين .

راقبت الناس الذين يتحركون إلى الأمام حينما يقتحمهم أحد ليدخل إلى صحن الكنيسة، مغطياً وجهه بيديه، ورأيت الملفات الحمر المتوهجة، كان ذلك حين فتح أحد القساوسة باب غرفة الاعتراف، ونظر إلى ما حوله، ليرى كم من الناس لا يزالون ينتظرون.

بدا عليه أنه أُحبِطَ من رؤية ذلك العدد الكبير من الناس، وعاد ودخل إلى مكان الاعتراف.

وتتصاعد ثانية همهمات المعترفين، وبدت لي مرة أخرى وجوه أولئك الذين صدفة قد التقيت بهم اليوم في صحن الكنيسة، وهم يتناقلون فضيلة التمسك يتلك الطقوس منذ أجيال.

سيقال الكثير عن طقوس الاعتراف، بل إن ما قيل فيها فاق كل ما قيل عن أي شيء في الكنيسة أو البلاد، وكان أكثر القول همساً في مجالس النساء والرجال ايضاً برموز علنية.

وقد تكون الحكايات المتداولة بين الناس منذ عشرات السنين حول هذه الكنيسة في غرف الاعتراف هي نفسها التي تسجل في قلوب العذارى والثكالى واليتامى و أبناء السبيل.

وكان تسجيل الأخطاء اليومية جدّية كانت او تافهة، من الأعمال التي استهوت أولئك الناس، فكان منهم العامل والمعلم والكاتب ولهذا تباينت سمات تلك الوجوه.

وكان لابد من صوت يعلو بين حين وآخر، يمثل طبقة من المظلومين وبالرغم من قسوة المشهد من جديد تختل مواقيت الاعتراف من معترفين وقساوسة، و عاد وفتح باب غرفة الاعتراف مجدداً أحد القساوسة، واقترب من مني لأجد نفسي واقفة كتمثال أمام كاهن الكنيسة، وقد بدت قامتي بين جموع الغاديين والرائحين علامة لم يظهر مثلها في الكنيسة إلا مرات نادرة .

بعد صمت رهيب، مخيف، فلا أحد سوى نصيحة واحدة يقدمها الكاهن لي، فيقترب من أذني ويهمس: يا سيدتي عليك بالكنيسة .. إذ للكنيسة أساليب خفية في الإنقاذ ..

هكذا تكلم الكاهن القس وتراجع خطوة ليلفَّ حول فاطمة التي لبثت ساكنة مستسلمة لتفحص الكاهن لها وهو يتمتم: لكن الكنيسة تطالب بمعرفة الحقيقة يا سيدتي .. وإجراء التحاليل والفحوصات والتحرّي والكشوفات ومجلس القضاء المختص بهذه القضايا يطلب مبلغًا باهظًا ؛كتأمين حقوق الطرف الآخر في حال كان الادعاء تشهيرا وزورًا ..

وقد يودي بك إلى السجن، لذلك نصيحتي هذا الأمر حجمه أكبر منكِ.. وهؤلاء الأطفال ليس مذنبين لسقوطهم من كوة الضوء، لماذا لا نحضنهم؛ من المعروف إن كل فتاة في داخلها أمٌّ، وإن لم تتزوج، إذ تغلب على تصرفاتها "فطرة الأمومة"، وهذا ما يظهر جلياً في تجارب "الأمهات البديلات" اللاتي قمن بتربية أبناء أمهات أخريات بسبب ظروف مختلفة.

يجب أن تعلمي سيدتي: الأم ليست المرأة التي تلد فقط، بل الأم هي التي تربي، وتعلِّم، وتتحمّل كل ما يصدر عن الطفل في هذه المرحلة الحرجة من العمر..

آنذاك عرفت فاطمة أن الانتظار الطويل قد أفقدها القدرة على الاستمرار في طلب المعونة، فقد اقتنعت تماماً أن قلب الإنسان كالعلامة تظهر لك من الغيب، وما عليك إلا أن تصدقها وتؤمن بها ..

غادرت فاطمة الكنيسة وعاهدت نفسها أمام السيدة العذراء أن تنسى هذا الأمر إلى الأبد.. وغادرت الكنيسة وامتطت الصمت ، و كان لصمتها قوة الزلزال الذي حررها من عقدة الذنب ..

ألقت فاطمة نظرة خاطفة تحوي الكثير من اللوم على (ندى) بانتظار أن تسمع منها شيئًا، لكن ندى طأطأت رأسها دون أن تضيف أي كلمة أخرى ..

يبدو قد وصلت لها كلمات فاطمة غير المنطوقة، حتى بدت مرتبكة جداً، لأن فاطمة اعتبرت كلامها انتهاك للسر الذي أودعته في صدرها .. كان صوت أنفاسها مسموعًا- تعاطفت معها حينها وقالت في نفسها: عليَّ أن لا أقسو عليها، إنها امرأة مسكينة، أرهقتها العاطفة، وليس من اللائق أن تخرج مكسورة الخاطر من بيتنا..!

لم تكن ندى تدخل ضمن هذا الصنف القاسي من البشر، كانت تحس بالحنان تجاه التجاعيد، والأصابع المقوّسة، وضعف البصر وكانت تتخيل نفسها ومنظرها في سن الشيخوخة والكهولة .

بدأ الألم يعتصر أمل فجأة في مثل هذا العرض للحقائق، ثم أخذت تنفجر بغضب هائل إلى حدّ أنها لم تعرف كيف تهدئه، ربما لم تكن تريد أن تهدئه ..قائلة: هيا بنا نستأنف حكاية اليتيمة فاطمة:

كانت فاطمة منذ صرخة الحياة الأولى يتيمة الأم أيضاً، وقد أرهقتها الحياة مع مهجة قلبها، لم تعرف الانحناء لأنها تعرف أن هناك من يتكل عليها .. ولذلك كان شغلها الشاغل هو تزويج أولادها، فسعت جاهدة لتحقيق هذا الغرض بقدر ما اتسع له الحال، ولم تدع فرصة تمر دون تدبير خطة لتزويج بناتها في زيارة خاطفة للوطن .

وكانت الفائدة المباشرة التي تعود عليها من وراء ذلك لتكون قريبة من منصور كي لا يقع أي خلاف مع والده الطيب حسام والزوج الطيب حسام لا يمكنه العيش دونها .

أطرقت أمل رأسها ثم عادت للتذكر: ليس لفتاة في الرابعة عشر أن تشعر بالحب مع رجلٍ تجاوز من العمر الثلاثين ؛ و في نظري أن مثل هذا الزواج لا يعد زواجًا على الإطلاق، بل ليس بشيء، إنه في نظري ليس إلا ضربًا من المبادلات التجارية ..

تراءى لي في هذه اللحظة ، تلك الأيام البريئة التي حدثتني عنها بطفولة نادرة ورد الجوري، أذكر ارتعاش جسدها الآن من الخوف وهي تقول :نوره الوحيد الذي سيضيئ قلبي إلى الأبد ... وتلعثمها البريء في الماضي وهي تسرد لي ببراءة لهفة قلبها: ذات يوم ربيعي بعد أن انتهت من حصة الدراسة مع وحيد ..

وبعد ذلك بقصير، اكتشفت أثناء لعبها مع وحيد ، أن للقبلات طعم الكرز ورائحة النارنج ، وإنه يمكن لأكثر المداعبات أن تلهب الحواس .

كانا يختبئان لتبادل القبلات، موقظين الرغبة الكامنة فيهما، وقد احتاجا لبضعة سنوات قبل أن يصلا إلى المتعة القصوى، وذلك إما لخوفهما من العواقب أو إنهما لم يبلغا في تلك الفترة الحلم .

- كنت أعلم أن ورد الجوري قارئة نهمة دون تحفظ، رغم عين أختها المتيقظة المراقبة، فهي تضع يدها على أي كتاب تحصل عليه، أما تلك الكتب التي لم تستطع إظهارها أمامها، وكانت تقرأ صفحاتها في منتصف الليل تحت شرشف السرير، مستخدمة للإضاءة مصباحًا يدويًا ، وبهذا توصلت إلى معلومات أكثر من تلك التي تصل إليها فتاة من وسطها، وعوضت بالخيال الرومنسي ما كان الواقع يحرمها منه .

أمام هذا الكلام الجريء ؛سرعان ما أدركت (فاطمة) على أي حال أن هذه السيرة لا تخدم العريس القادم عبر الفيس بوك لبنت منصور ليال، فبدت

فاطمة أكثر رقة من المعتاد وأكثر إبهاجًا، ربّما لتبث الطمأنينة في قلب سهى وليال .

والآن، ها هي ورد الجوري التي تسلم جدلاً بمثل هذه الأمور، قائلة: لن أختره بنفسي، لقد فرضوه عليَّ، إنه لأمر غريب أن يأخذنا الحديث إلى تشعبات لا متناهية .

ضحكت أمل بتهكم قائلة :

- الحقيقة إن ورد الجوري قليلاً ما كانت تفكر بالحب، ولم تكن تجادل في أمرِ تعاستها الطويل، مع من رتّبتْ السماء قدره، كانت تتقبلها كشيء طبيعي مكتوب على جبينها منذ صرخة الحياة الأولى، فطالما سمعت أنها تشكل معه الثنائي النموذجي، حتى أنها اقتنعت بذلك دون ان تتوقف للتأكد من مشاعرها .

ولكن ما رأيكم بقلب توقف عن النبض قبل أن يعرف طعم الحب ؟

هل هناك في هذا الكون أب يطلب السماح من ابنته ..؟

- أجل أبي حسام، الرجل الكريم، الإنسان الطيب طلب من ورد الجوري أن تسامحه .. ورد الجوري لم تنقطع عن زيارته أبداً رغم حالات التَّنمُّر التي كانت تتعرض لها من قبل سيف.

- أما أنا (أمل) اختلق سيف مشكلة ما وهددني بالقتل إن تواجدت في البيت، كي يخلو له ولشيطانه الأخرس موسى و منصوره المهزوم المتواصل

معهما عبر الواتس آب وهو لم يقفل بعد ملف طمعه في الغربة ..من تمرير وتزوير وتهريب أملاك الوالد حسام ..

وأشارت إلى صورة الوالد التي مازالت حتى الآن تقبع على كرسي من الخيزران ولم تعلق على الحائط الذي تصدرت صور المرحومة زوجة سيف المكان بجدرانه الأربعة.

- لا تتأملوا الصورة كثيرًا وإلا جاءتكم الكوابيس ..

وجهت نظرها أمل إلى صورة الأب حسام وقالت: ورد الجوري كانت تأتي إلى والدها الذي لا يستطيع إمساك قلم بأصابعه المتيبسة، والذي يملي عليها رسائله عادة إلى أمل، إنه يكتب إلى أمل يوميًا، وإلى أصدقاء طفولته، وإلى أصدقاء الزمن الجميل في فينزويلا، وأقرباء مدفونين منذ عشرات السنين، وأخوة، وجيران وابناء أخوة استشهدوا نتيجة قصف الغارات الصهيونية على مواقع استراتيجية مهمة في سورية وكانوا ضباطًا في هذا الجيش العروبي، لكنها لم تكن تبعث هذه الرسائل المحزنة، كي لا يعاني خيبة أمل حين يعيدها البريد لعدم وجود من يتلقاها .

كانت تخترع ردودًا وترسلها إلى والدها لتحول دون حسرة معرفته أنه وحيد في هذه الدنيا، لأنها تعلم أن أمل كل حياته ..

وأخذت تردد ما قاله جبران خليل جبران: (لا تعطوا الرجل الكبير بل خذوا منه وهكذا تكرمونه).. وهم لم يأخذوا منه سوى أمواله، ليتهم أخذوا كرمه وحسن خلقه ..!

مضى الوقت و قد انشغل منصور في أحلامه الخاصة، ما كان يفكر إلا بمتع الحياة، بجوهرته النادرة، بالوسائل التي ستسجلها ملكًا نهائياً له، وعلى العكس الباقي من أملاكه في سورية سجلها لها وعلى نحو لا فكاك منه، كان مستعدًا لأن يفعل أي شيء لأجلها، قطع حبله السري وابتعد عن أمه، وبتر صلات الرحم ليثبت كل المؤشرات التي تقول: ينتظر عقابًا محتومًا قادمًا لامحالة، كل شيء يغدو عصيّاً على الرؤية .

عليه ان يتذكر نصيحة (ندى)أم حسن صديقة والدته فاطمة :

- انتبه يا منصور، لا يمكن عمل هذا بالقوة .. اذهب بعيدًا من هنا.. هل من داعٍ للتشديد على هذا الأمر ؟

- يا بني، اذهب إلى حيث لا يعرفك أحد، لأنهم سينتهون إلى قتلك، إذا كنت تطمع بتعويض مادي عن الخسارة التي لحقت بك على أثر الحادث المفتعل لزوجتك رحمها الله (ليلى) فإنك تسرع في فتح قبرك بيدك، عد إلى رشدك هذه نصيحتي إليك، يّمِّم ذنوبك بتراب والدك عساك تتعلم منه التواضع أوَّلا والتضحية اخيرًا.

كانت تتكلم ندى كرجلٍ قوي ؛كأنَّ الارواح الهازئة اللماحة التي تراقب نيابةً عنا حتى في المُلِمَّات، تعود الآن زرافات إلى موطنها مرة أخرى، إني بإضافتهم إليّ، أنا وحيد، أنا هذا، و ذاك، والآخر .. لن أخضع إلى هؤلاء الذين لا هدف لهم .

في تلك اللحظة، امتلأتُ بفجوات وفراغات ومساحات وحالات من الصمت، تخيلت إني أطير فوق بساط من الزهر ؛أحتضن خصر وحيد، ويلتصق وجهي بنسيج سترته الفضي، فيما شعري يتطاير مع الهواء .. تائهة في تخيلاتي مستحضرة طفولتي، وكأني أعدو على فرس عبر الفضاء، ولكن بإعجاب .. اين هو الآن؟

لا يهم كثيرًا من هو، أو أين هو، و لا جدوى مما نسميه جوابًا، الكواكب تصمت فوقنا ..

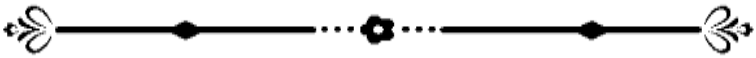

"البحث عن الحقيقة يعني دائماً المخاطرة برؤية ما يكره المرء أن يراه"

(رولو ماي)

الفصل التاسع

كان هناك شك طغى على كل شيء، لكن هناك ترتيب للزمن، وصياغة جغرافية للمكان وأصبح الموت في كل مكان، والبحر يحتضن موت الدلافين .. وورد الجوري تعتبر نفسها كوكبًا يبحر في الريح ولخوفها من تمردها الداخلي، كانت تلملم وصايا الطوفان، وتستسلم أحياناً لإغراء التفكير بحاجتها لمن يكبح اندفاعاتها، لكن هذه الحالات المعنوية لم تكن تدوم إلى وقت قصير، وحين تتأمل في أمر وحيد تصاب بالكآبة، لذلك كانت تفضل العيش متجاوزة حدود المألوف مادام ذلك متاحًا لها .

آه .. ما أصعب الاستيقاظ من الحلم .. انظروا ها هي السفينة، سأسحب نفسي من هذه المياه، لكنها تتراكم فوقي، كما أنها تجرني بين أكتافها العظيمة، فأتقلّب، وأتدحرج ، أنا ممتدة بين هذه الأمواه، هذه الدروب التي لا نهاية لها، مع أناس يبتغون أشياء وأشياء متسابقين ٍ

أنا فاطمة التي يدعوها الناس بالتواضع، استيقظت على قبلة ساخنة، أتذكر كل هذا كما يتذكر المرء صيحات مختلطة وأعمدة متساقطة وحزم من الأشعة حمر وسود في حريق ما ليلي مدمر بعد زلزال كبير ..إني أنام وأفيق على كلمة واحدة تتزاحم كأنها طير خافق تعبر المساحة الفارغة بيننا، لقد ولجت الدفء في روح أخرى.

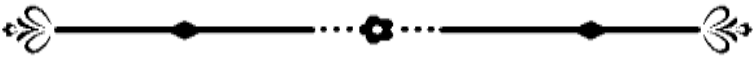

الليل أرخى سدوله فانتشر فوق الشرفات، إني أرى من النافذة عصفوراً لا يبالي بأحد، قادرًا على الحركة والتمدد والطيران، إني أكره تفاصيل الحياة الشخصية، لكنني مشدودة هنا كي أصغي، ثمة ضغط عظيم يقع على كاهلي، لا أستطيع أن اتحرك إلا بمساعدة الووكر.

لا شيء هنا يخضع للنسبية، كل شيء حقيقي جداً ..الوقت ميت.. وأنا نزيلة هذا المكان الموحش لا أتذكّر من الحياة سوى أسماء الأماكن التي احتلَّتني، ووجودها باهتة، تعتري ذاكرةً متعبةً..

تصيبني آلاف من السهام يومياً، وعلى كرسي متصدع يمزقني الازدراء والاستخفاف،أنا التي كنت أتصدى للعاصفة بصدري، وأدع القهر يخنق أنفاسي جذلاً، أقف هنا بلا حراك ... للشمس أشياء كان يجب أن تبقى مجهولة، أنت يا منصور تكشف ما هو مخجل وتعرّي الظلمة .

ثم نظر منصور إلى ابنته ليال التي كانت جالسة مستندة على وسادة خلف ظهرها، لم تكن تبدي أي اهتمام لحديث والدها على الهاتف، إنها أصيبت بالاشمئزاز من تصرفاته .

أسهبت (سيلفا) حتى الظهيرة في الحديث مع منصور، وظل صامتًا كأنه تمثال من حجر، وقد بدت عليه ملامح الغضب، لم نعرف ما الذي جعله يعود إلى الحديث مع (سيلفا) وأخذ يضرب بقوة على الجدار لأن (سيلفا) أرسلت رسالة عبر الميل بأرقام الدولارات المزورة التي اشترتها من السوق السوداء وباعتها لمنصور قبل سفره إلى سورية وهي في ورطة كبيرة، وأخذ

يدور حول نفسه ويصرخ ولم نفهم ماذا حدث من جديد في فينزويلا، ماذا حصل لسيلفا، كل فترة تتحدث بشيء مختلف، غير متوازن ؟

- صرخت فاطمة بشكل جنوني وقالت أخبرني ماذا تريد سيلفا بعد الآن منك؟

- ما زلت على تواصل معهما ؟ ما زلتَ تطمع بالتعويض ..؟

- لن تشبع حتى تدفن العائلة في مقبرة العار الأبدي..!!

- يبدو أن عصابة التزوير والخطف والمخدرات وقعت في خلاف فيما بين أفرادها، ولا نعلم ريتا التي كانت تعمل في متجرنا بصفة محاسبة لحساب أي طرف تعمل وهي كانت العميل لتبديل العملة فيما بيننا..؟

- من هؤلاء المجهولون الذين خطفوا ريتا وسمحوا لها التواصل معك ..؟

- اخبرتها أنك عندما كنت في فينزويلا أنك التقطت خفية عنها منديلها الأبيض والذي طبعت عليه "قبلة انثى ".. وصاحت فاطمة: أنت إنسان غبي، ومتهور .. ريتا عشقها لماركو أفقدها عقلها.. واختفاؤه أربك رجال البوليس وصار شغلهم الشاغل هكذا أخبرتني صديقتي ندى لأنها بقيت على تواصل مع جارتها التي ما زالت تعمل في سلك الأمن الجنائي وهي تعلم أدق تفاصيل ما جرى ويجري هناك .

قالت ندى لي عن لسان صديقتها :

- يبدو أن ماركو قد أشار إلى ريتا عبر رسالة أين هو كي يخفف قليلاً من لوعتها.. وفك رموز هذه الإشارة بعض خبراء التضاريس وحددوا المنطقة الجبلية، وكيف يمكن الوصول إلى هناك.

أوضحت لهم : أنه متوارٍ ضمن كهف في أعلى قمة في فنزويلا هي،(بيكو بوليفار) و الطريقة الوحيدة للوصول إلى قمة بيكو بوليفار هي المشي لمسافات طويلة، وهذا الجبل مغطى بالثلوج وهو موطن لثلاث من الأنهار الجليدية، التي بدأت في التكون منذ أكثر من **12000** عام.

- إنها مطمئنة ؛إنه في كهف على ارتفاع يصعب التنفس فيه، وللوصول إليه لا بد من تسلق منحدر لا يمكن للحيوان أن يتسلق ذلك الجبل، والبحث فيه عن موطن قدم بين الأحجار والأشواك والجليد، ليس الوصول إليه بالنزهة السهلة، فالطريق طويل وشاق لمن هو غير معتاد على التسلق.

- كانت ريتا تلهث مثل من يحتضر، كانت راحتا يديها قد تجرحتا من الصخور، وتمزّق سروالها عند ركبتيها، وكانت تتعرّق بغزارة وتسأل في كل لحظة كم بقي أمامهم للوصول .

- وكان الرجل الذي يتقدم المجموعة يرد بالإجابة نفسها دومًا: هناك فقط، وراء هذا المرتفع، وظلوا وقتًا لا يستهان به تحت رحمة الطبيعة الغاضبة، ينهكهم التعب والعطش، إلى أن أعلنت ريتا أنها عاجزة عن التقدم خطوة واحدة .

- فقال لها أحد الرجال منبهًا، ليس الصعود بالأمر المهم .. انتظري عاقبة النزول ..اندهشت بداخلها وانتابها الخوف والهلع ..

- نظروا إلى أسفل، وأطلقت ريتا شهقة من أعماقها، تمتمت وهي تنحني: لن استطيع النزول من هنا ابدًا إنني أشعر بدوار، فأمسكها بعصبية قائلاً: إذا كنت قد صعدتِ فيمكنك النزول .

- رأت ريتا نفسها تترنح في قمة الجبل، متفوهة من الرعب، فانتصرت حينئذ قدرتها للتغلب على كل شيء، جمعت قواها، وامسكت بيد أحد المرافقين من الرجال ، وأعلنت أنها مستعدة لمواصلة المسير .

- بعد مضي ساعة من ذلك، وصلوا إلى التواء في الجبل، حيث برزت فجأة ظلال أشجار عالية وينبوع ماء ينحدر بين الصخور، فأدركوا أن (ماركو) قد اختار هذا المكان لوجود الماء فيه، الذي يستحيل العيش بدونه في هذا الجبل المقفرِ

- انحنوا على الماء ليرطبوا وجوههم، ورؤوسهم، وحين رفع رأسه (خوسيه) قائد المجموعة، رأى إلى جانب صخرة كبيرة منديلاً مزينًا بأحد زواياه بـ "قبلة أنثى " وقال في نفسه أولاً، وأخيرًا صرت بيدي .. دون أن ينتبه إليه أحد من رفاقه، التقط حجرًا صغيرًا من الأرض و رسم إشارة على الصخرة والرعب يعتريه إنْ كان أحد ما من رفاقه قد انتبه إليه .

وتخوف أن يكون ماركو قد راح يمارس هواياته غير العادية بصيد الأفاعي وبيع جلودها للأجانب الذين يقصدون "تلفريك ميريدا"، وهو أعلى تلفريك في العالم.. وهو جبل قريب من هذا المكان.

كانت ريتا خائفة بعض الشيء، حينها كان (ماركو) قد أطلعها على الكثير من تفاصيل حياته .

قالت ريتا في نفسها ربما غيرَّ (ماركو) ترتيب الخطة كي يستدرجني لمعرفة تفاصيل أكثر عن ملف قتل (ليلى) هذه خطة فاشلة مسبقًا..

تتضاعف حيرة ريتا متسائلة: ما سبب مجيئنا إلى هنا ؟

- بديهي من أجل ماركو ، أقول سلفًا، فليرحمه الله ..هل ظن أني عشقته لأجل رجولته فقط ؟وهل ظنت ليلى أنه أحبها من أجل ذاتها ؟ خسرتُ زوجي وبيتي من حبي له وخسرت عملي .. وإيماني هو الوحيد الذي يستطيع إنقاذي من هذه العصابة، لذلك مجبرة على التوسل إليه للعودة إلى ما كان عليه .

- أعتقد أن حبي لماركو هو جزء من حبي لله تعالى، و عشقي الأكبر لفينزويلا هو من حملني إلى هذه المخاطر الكبرى، هذه هي الحقيقة؛ هذا هو الواقع، أما ما وراء كل ذلك هو ظلام وتصور، أطلب من الله أن يكون الأمر كذلك ..

- وخلال ثواني قابلت وجه ماركو الذي كان يصوب سلاحه إليهم، كانت لحيته قد طالت، وتلوّن شعره بغبار الآلام والعرق يفوح منه مثل طحالب المستنقعات الراكدة من أعوام .

- بإشارة ما من (خوسيه) إلى ماركو سلم سلاحه إلى قائد المجموعة، وساعد (خوسيه) ريتا على الوقوف .. ثم قادهم إلى كهف ظليل وبارد يخفي مدخله نباتات جبلية كثيفة .

- كان ماركو ماردًا، يشد الأنظار بجسده الهائل، جلس في المغارة، وأشار إلى (خوسيه) بإشارة الرقم السّرّي كي يفتح الحقيبة ويستخرج كنوزها ..

- كان جلده مدبوغًا بشمس الجبال، وشفتاه متشققتان، و يستخدم يديه بحذر شديد، كأنه يخشى أن يتلف ما يمسه بهاتين اليدين وأظفاره المعكوفة كمخلب طائر جارح .

- كانت تنبعث من المغارة رائحة عفونة تشير إلى المكان الذي يراكم فيه ريش وجلود ضحاياه من الطيور، كي لا يترك أي أثر في الخارج .

- وليتغلب على الملل،كان لديه كتاب واحد يوثق سيرة (سيمون بوليفار) الذي يعدُّ من أبرز الشخصيات التي لعبت دورًا هامًا في تحرير الكثير من دول أمريكا اللاتينية، التي وقعت تحت طائلة الحكم الإسباني، منذ القرن السادس عشر، مثل كولومبيا وفنزويلا والإكوادور وبيرو وبوليفيا وبنما، حتى وصف بأنه محرر أمريكا الجنوبية.

والذي يقرأ لغة العيون ؛ كان يدرك تلك المشاعر التي تنتاب ماركو على أنه الناجي الوحيد من كارثة كونية شاملة، ولوحدته وشدة بأسه كان حديثة ذو شجن وحنين إلى صدر أمه .

وقالت |(ريتا) موجهة الكلام إلى ماركو وهي تبعد الخوف عن مصيرها المجهول والوجع والجوع والعطش الذين تغلغلوا في روحها:

- إنَّ الواقع حولي مليءٌ بالأقدار ، أخشى أن ألطخ اسمي، حسناً، يكفينا العزف على وتر العاطفة.. ألم أقل لكَ إنني على معرفة بآلامك واسرارك ..؟

وبنصف ابتسامة وبنصف آخر وبلغة بها من غنج الأنوثة ما يكفي قالت: كنت أراهن الزمن بحبي بصدق لكنه لطمني بفردة حذاء على وجهي أمام كل الحاضرين في زماني والأزمنة التي سبقتني؛ إن الحياة صعبة مع من يمتلك قلبًا واحدًا فكيف مع من له قلبان ؟

- وصاحت بحماسة شديدة وأضافت بانفعال :كان عليك ألا تهرب من الحقيقة ..

- رفع رأسه عاليًا و بصوت شبه مسموع، تختلط الكلمات بسعاله قال: يمكن أن لا يمتلك العاشق قلبًا لكنه يمتلك الشجاعة، ربما لم نصل إلى حقيقة الأمر بعد .. ولم نصل.. اصبري وستعرفين أنَّ السعادة لم نجدها إلا في طريق الحقيقة وتراكم الكم الكبير من التضحيات في سبيلها..

- إذا أمسكوا بي سيرمونني بالرصاص، لأني حذرتهم إنها آخر عملية وشم أقوم بها لهم في هذه المناطق الحساسة، القليل ممن يعرف أنني رجل

سياسي، لكنني صاحب مبدأ ثابت لا أتغير، كشفت عن الكثير من أسرارهم وتزوير الكثير الكثير من الوثائق السرية .

- سلم نفسك فلا يرمونك بالرصاص..

- والآن إذ نوشك مرة أخرى على الافتراق، وقد دفعنا قائمة حسابنا، فإن الدائرة التي كانت تجمعنا بداخلها انكسرت كسرًا حادًا، تعود فتنغلق لتضعنا في حلقة مفرغة، ذلك يثبت أننا مختلفون جدًا .. لا تخافوا أنا لست بقاتل ولا يمكن أن أكون خائنًا، فالشجاعة الحقيقية هي في هدم المعتقدات التي تبيح القتل والتزوير.

- آه ليتني أطوي هذه الورقة بين أصابعي – فأدع نور الدنيا يفيض عليّ مرّة أخرى، وإن هذا لم يحدث؛ إنني ضائع، نعم، على أية حال الآن يبدأ العذاب ..إننا لسنا عبيدًا مربوطين لنتلقى بلا انقطاع الضربات التي لا تُحصى على ظهورنا المنحنية، لسنا رعاعًا أيضًا، نحن بُناة الماضي والحاضر والآتي ..

- لكن ثمّة فرق بين العمل بجد، وبين العمل بحب، نحن نخطو لا إلى الفوضى، بل إلى عالم يمكن لأمنا الأرض أن تخضعه وتجعله جزءاً من الدرب السرمدي المضاء بنور الحب.

- ربما لم يصل إليكم ما قاله جمال الدين الأفغاني: " تبلغ المرأة بضعفها ما لم يبلغ الرجل بقوته "..

-تدخل خوسيه قائلاً: يؤسفني أن أخبرك أنك لست من ناحية أمنا الأرض ولا من ناحية أبونا الذي في السموات .. كيف نردم الهوة بيننا ؟

-هذه هي كنوزي أمامكم وهذا سلاحي بين أياديكم، اتركوا لي فقط هذه السلسلة ولتكن ذكرى أبدية ودعوني وشأني ..

- ردت ريتا بانفعال، ذكرى أبدية..! وصرخت باستغراب من الصدمة :أنت خائن خنت حبي لك .. إن علاقتك بسيلفا وتعلقك الشديد بها ومعرفة جميع أهل الحي بهذه العلاقة هو ما كان يثير قلق ليلى ويجعلها متوترة في أغلب الاوقات .

- لا، لا، لستُ بخائن، أنت ساذجة وغبية .. قلت لكِ أكثر من مرة كفِّي عن مصاحبة أبناء السجون..

- دعيني أكمل كلامي يا ريتا، فضلا وليس أمرًا.. كنت أتمنى لو أن ليلى قرأت الأوراق الأخيرة التي كتبتها ، ودونت ما حدث في الايام الأخيرة .

- ولا يمكن أن أقول فيها كلمة إلا أنها بعيدة كثيراً عن موطني وموقع أحبتي وأهلي، وبالرغم من ظلم بلدتي علي فأنا أحن إليها بعيداً عن ضياعي في اتساع هذه البقعة الهائلة].

وعندما اكتشف سخرية ليلى قال:

- ستبدو الحقيقة مؤلمة بعد اكتشاف ما فعلته سيلفا بشكل تصعب إزالته، ولم يكن سراً حبي للنساء الجميلات أو المثيرات وأخرج صورة ليلى، وكان في تلك اللحظات متجهماً، وقد بدا كأنه يتحمل شخصياً مسؤولية وفاتها .

وتطلع إلى ريتا متسائلاً:

- هل يخطر ببالك .. أو ببال أحد، أن أهرب إلى هذه المناطق النائية، وعقلي يزن بلداً ..؟

- هروبي مما يؤلمني حمل إليّ آلاماً أكثر، ولبث ساكناً يفكر، وكأنه يريد أن يصل إلى نقطة بداية تكون له الدليل في إتمام مهمته الصعبة أو إنها محاولة للشفاء مما يؤلمه ولا يمكنه التصريح عنه .

- حاول ماركو أن يخرج من الفخ وظل يتمتم :

- وبالرغم من تشرد وعذاب، غربة وأيام ليس لها مخطط، لم يجذبني إلى ليلى نصفها الأجنبي وملامحها الشرقية، بل أحببتها لأنها نسخة عن جدتي .

- نعم، أحببتها جدًا لأنها تشبه جدتي الكبرى زينب أم أبي هي من أصل عربي، كم تعذبت معها كي تحمل أخلا ق زينب، لكن للأسف كانت ضائعة .

وسيلفا كأنها توأم منفصل عن جدتي الفينزويلية والدة أمي التي كنت أرى بها قوة أمريكا اللاتينية ، أيضا لا تشبهها مطلقا، إنها تحمل في عقلها وتصرفاتها كل حنكة أوروبا، تعبد المال وتدوس كل القيم من أجله ..ذكاؤها ذكاء اصطناعي شيطاني مدمّر .. لكن كان الله لها بالعملية الاخيرة بالمرصاد..

قد أصيبت بفقدان الذاكرة ما بعد الصدمة الأخيرة " و اضطراب حدث كنتيجة مباشرة أثناء تعرضها لصدمة قوية في الرأس، وأصبحت غير قادرة

على تذكر حالتها أو اسمها، أو تحديد مكانها أو معرفة الوقت.. والآن تعيش مشوشةً و غير قادرة على تذكر الأحداث الحاصلة بعد الإصابة.

مع ذلك لابد القول :إن المحامين لصوص بشكل محترف، إنهم يسرقون القلب بصنارات كلماتهم المعسولة الباردة، لكن لم أدرك أن هذه المحامية سيلفا قد جرّتني إلى مخدع المعرفة كما جرّت حواء آدم إلى تفاحة الخطيئة..!

إن الصرح الكامل للسلطة الأنثوية مبني على حجر الأساس ذاك: العفة هي جوهرها وركيزتها الوسطى التي تجعلهنّ يصبن بالجنون لحمايتها، ويمتن حين تسلب منهن .

- كانت تعيد جدتي على مسمعي غير مرة، أن المرأة المحصنة فكرياً هي الوحيدة التي لها حدودها في كل شيء حتى في صداقاتها..

في الحقيقة إني لست من محبي العصريين، ولكن أمي تحب حياة اليوم وحياة الغد أيضًا..

- اعتقد أن جدي محق..

- لقد فهمت الآن ؛ أنت يا جدي تشبه خيط المسبحة ..

- يتدخل خوسيه بقوله :كنت أتصور أنك لا تعرف ما هو خيط المسبحة..؟

- حرّك ماركو راسه للأعلى وأشار بسبابته إلى رأس ريتا وقال هذه هي العفّة: "إن العفة هي بالفكر، والامتناع والترفع عمّا لا يحل أو لا يجمل، من

شهوات البطن والجنس، والتحرر من استرقاقها المُذِل. وهي من أنبل السجايا، وأرفع الخصائص. الدالة على سمو الايمان، وشرف النفس".

كادت عينا خوسيه أن تخرجا من حدقتَيهما تعجباً للمسرحية التي أخرجها (ماركو) خلال لحظات معدودة، وكيف أن هذا الرجل المنفي ينقلب إلى فيلسوف حالم، وروح معذبة متألمة تتوق إلى المتعذّر والمستحيل .

و بدا (خوسيه) محرجاً بعض الشيء بسبب نظرات (ماركو) فالتزم حدود الاستجابة بصمته المألوف، لكن الحقيقة كان خوسيه يعمل مع ماركو وهو المحرر المسؤول عما تم طبعه وما تحت الطبع من أوراق رسمية ومالية .

وبعد لحظات تتحول الوداعة في اللغة والجسد إلى قوة وهو يقول: سأبرهن لك بعد قليل، بالوثائق، أن بلدي يحترم القانون بل ويساهم في تطويره .

لكن لم يجرؤ أحد على مقاطعته، وكأنْ سيلٌ من الصمت قد أصاب المجموعة لحظتها، ربما لم يتوقعوا أن (ماركو) قد أحدث هذه النقلة النوعية في حياته .

وتابع ماركو كلامه :

- وحده (حسام) كان الأقرب إلى أبي منهم جميعًا، كان أبي يثق به جدًا، يفهم منه ما يريد، ولا يحتاج منه لترجمة أو تفسير للنوايا ..

- وفائي لروح (حسام) هو من أنقذ ابنه منصور من الموت، أنا من سهّل له خروج أولاده خارج البلاد، حاول أن يدخل دائرة المحظورات بغباء شديد، حذرته بأكثر من رسالة، آخر لقاء كان لي معه بواسطة ريتا بمتجره، لكن للأسف منصور رجل حربه كلام و سيفه من خشب، لذلك ذهبت زوجته ضحية بخله وطمعه واستهتاره .

- أجل والد زوج ليلى منصور السيد حسام كان صديق أبي وجدي في المواقف والمبادئ الإنسانية الذي كان هو وزوجته فاطمة يطعمان الفقراء، وهما بحاجة لمن يطعمهما في تلك الفترة القاهرة آنذاك.

حسام كان صاحب فكر إنساني يقدس العقل والوطن والعمل واتجه (ماركو) بنظره إلى المجموعة بصوت وهو يبكي قائلاً :كيف أخون الخبز والملح والبيت الذي كان محطة لاستراحة كل العقول المختلفة ومأوى لكل من انقطعت به السبل ليلاً من الفلاحين الذين يبيعون منتوجاتهم البسيطة من الحليب والبيض والجبن ولم يتمكنوا من النوم في الفنادق.. ؟

- لقد حلّت علينا اللعنة إلى الأبد عندما غدرنا بهؤلاء البسطاء الشرفاء ..هم من يرفع عن هذا الكوكب بلاء الشياطين، الخلاص ليس منّة تسقطها السماء، بل كلمة تنطقها الشفاه، وتتبناها العقول والسواعد، الظلم لا هوية له ولا دين .

- ثمة وسائل أكثر حداثة ومنهجية لخداع ما تبقى في عقولنا ؛لماذا أحاول رفع قدمي لأرتقي السلم؟

- التفاهة التي تحاصرنا هي جزء من ثقافة الاستهلاك يساهم فيها المشاهير والناس الذين رفعناهم ورددنا شعاراتهم دون تفكير ودون قصد وأحايين كثيرة بقصد فهي مصدر ربح فاحش لهم ..

- إن المخترع والصناعي الأمريكي صامويل كولت " مخترع المسدس أول جملة قالها بعد اختراعه: (الآن يتساوى القوي والجبان) وقد حوَّر أحدهم الجملة قائلاً: بعد اختراع الفيس بوك وأخواته: من الآن فصاعدًا استوى العالِم والجاهل .

- تعالوا مزقوني إربًا إربًا، قلبي من بداية الأمر شهيد، لكنه يبحث عن موقف يليق بالمشهد، لست جبانًا، ولست قويًا ؛سلاحي بين أيديكم، لن أخون وطني، هذه المادة السرية التي استعملتها في هذا الوشم بالتحديد هي نفسها تُكتب بها الوثائق السرية وتطبع في المطابخ السياسية..

- جدي أخذ تركيب الحبر السّرّي من أحد اصدقائه الذين يهتمون بالآثار والتاريخ و قاموا في التنقيب داخل أهرامات مصر وعندما فك رموز هذا الحبر أصابته لعنة الفراعنة..

- بعد أن وشم أول وشم لجدي بشكل "قبلة أنثى" جدي أعطاني بعض من هذا السِّر الذي حاول لسنوات طويلة من الجهد حتى توصل إلى حبره الحالي ولا يمكن أن أبوح بتركيبه الكيميائي..

- لكن، تحرّيت عن هذا الحبر وقد علمت أن هذا الحبر متوفر الآن بشكل زجاجات ضغط بلاستيكية ويكون شكل الحبر سائلًا مشتت للأصباغ ومشتقة بالأصل من مكونات معدنية يمكن أن يحدث تحسسًا في الجلد.

هذه المواد المستخدمة الآن متهمة بانها المسؤول الأول عن التهاب الكبد الوبائي والتأثير على جهاز المناعة للإنسان وهذه البيوت التي حملت اكبر عناوين التجميل تغلغل ضمنها بعض شياطين المال لحقن الأمراض في جسم الشباب، والعارضات الرخيصات يتنافسن في عرض وشومهن على "التيك توك" .. فيجني صاحب المقاطع مبالغ مالية ضخمة، ويغفل الجميع عن الشركات المالكة للمنصات التي تجني المليارات من الإعلانات، إنها بعبارة واحدة :حرب قذرة .

- ربما الكثير هنا لا يعلم أن العرب مارس قديماً الوشم، وكانت مصر أول من مارس هذا الفن في زمن الفراعنة، وقد كان يرسم على كبار الكهنة فقط.

- كنتُ مغرمًا بالسرور والبساطة بأصدقاء جدي، وأحاديث جدي، لأن جدي كان يقص علي في كل ليلة حكاية من حكايات الوفاء للأرض والوطن وعن أسياد البحار الشجعان لأجدادنا العمانيين، وقرأ لي صفحات مجيدة من القوة والرفعة للأسطول العماني الذي تمكن من أسر واحدة من أغنى سفن كلكتا وكانت تحت قيادة الكابتن (ميرفيل)".

وسأقول لكم كما قال الرحالة (جودريتش فرير) عن قوة الأسطول العماني:

"إنه من الضروري عدم استفزاز العمانيين إذ إننا لن نجني من وراء ذلك سوى ضربات تنهال علينا "

-حذاري من الاستفزاز .. هل تعلمون ماذا يعني اسم (ماركو): جدي أهداني هذا الاسم (ماركوس) وبالنداء (ماركو) وترك حرف السين للقداسة؛ أفتخر باسمي و معناه الذي بحثت عنه في معاجم الكلمات :"

ماركو: يحمل هذا الاسم معاني كثيرة منها العاشق والمحب للحرب، ابن المريخ، المحارب.

ماركوس: يشتق من اسم ماركوس أسماء مختلفة منها مارك وماركو وغيرها، ويعني هذا الاسم المنتبه والمخطط والخطير، والروح، المدافع عن النفس بقوة. مارك: يعني اسم مارك الحربي أو المقاوم، وقد يحمل أيضا معنى المريخ.

وأوضح خوسيه لماركو عن مصاعب الحصول على لجوء سياسي في مثل حالته ؛ الحجة كانت لاستمالته، أنهم أحضروا له بعض الوثائق المزيفة بإتقان ماهر يمكنه الانتقال بها إلى منطقة أخرى ليبدأ بها حياة جديدة وباسم جديد ..

نظر ماركو بوجه (خوسيه) نظرة حادّة وصرخ بصوت مرتفع دون أن يكترث بهم قائلاً: هل (ماركو) ابن المريخ يهرب من مجموعة أفراد هم حسالة التاريخ البشري.. ؟

وصرخ بهم سائلاً:

- أين هي الأوراق التي تحملها معك يا سيد خوسيه بخصوص ملف " قبلة أنثى "؟

- ينبغي أن لا يُخفى هذا الملف ليس من منطلق الانتقام لشخص واحد فقط غدر بي وهو ربما يكون سيلفا، وإنما من أجل جميع الناس المظلومين والمسلوبين الإرادة من البيض والسود في الشرق والغرب، الشمال والجنوب..

- أجاب خوسيه مناورًا :كلا ليس من هذا المنطلق، و إنما تلبية لأوامر عليا .. سيلفا لا نعلم إذا فعلا فقدت ذاكرتها أم أنها تساومنا على الشيفرة السّرّية التي بدهائها التقطتها..

- اطمئن إنها في ثلاجة العمل السري وفريق خاص يعمل على احتضان الدماغ .

- يسأل خوسيه :ما هو الدماغ يا سيد ماركو ؟ "

- هو أكوام من الذرات المشكّلة بترتيب معقّد، هو مجموعة ذرات كاربون وفسفور .." هل ثمة فرق بين ذرات الكاربون في سيارة "الرولس رويس " الذي يركبها قاضي القضاة من ذرات الكربون في الدماغ البشري ؟

- هذا واحد بين أسئلة كثيرة تصف المعضلات الفلسفية للمفاهيم الأولية، ومنها أصل الوعي .. وكلنا أمل في التوصل إلى فك ارتباط هذه الذرات مع بعضها وهي ما تعرف بالشبكات العصبية، وبعدها من يحدد مصير سيلفا هو أنت يا ماركو ..لأن الجواب بين دماغك العبقري..

ظنّت ريتا أنها لم تسمع ذلك جيدًا، لأنها غير قادرة على تصور أن تكون تعمل كل هذه السنوات الطويلة دون أن تدري مع عصابة سرية دولية تتاجر بالسلاح والمخدرات والأعضاء البشرية وتبيح كل المحظورات والوثائق الطبية المزيفة تحت ستار العمل الإنساني.

وقام (ماركو) واقفًا مخاطباً تلك الوجوه الفارغة والقاسية دون جدوى قائلاً: أهي النهاية إذن ؟

مثلكم صعب إرضاؤهم يا سادتي، ومثلكم يجب إرضاؤهم بأي ثمن ؛ كنت أريد أن أعلمكم أنني مشغول بحبٍ أكبر وعشق مطلق، وأنه لا طاقة لي على استيعاب ما تريدوا إخباري به، ما كنت أحاول قوله بسيط ومعقد مثل أسير بريء حكم بالإعدام ورأسه تحت مقصلة الإعدام يحاول أن يبتسم؛ أستطيع أن أؤكد لكم :أنكم فقدتم إنسانًا عظيمًا ذو قيمة كبيرة لكم ..

فتح ماركو ذراعيه في حركة بائسة فهم أنه يستحيل عليه خداع هؤلاء الشياطين ..وبذريعة أنه سيجلب لهم الماء من الينبوع غافلهم بكل برود واختفى وذاب كما يذوب الملح والسكر في الماء ..

- هل انتحر ماركو – هل خُطف .. هل قُتل على أيدي مجموعة مناهضة للمجموعة الأخرى .. هكذا يكون تعقيد الأشياء في زمن الخوف السائل..

ويكون النفاذ إلى قلب غافل، نائم على أبجديات الملائكية والبراءة الزائدة .. لتكون تلك الخلطة السحرية مزيجًا من إدمان العشق في ذات ماطلها التغريب وممارسة التجسيد الجاني على المكسب الوجداني القادر على منح الذات والعالم توازنها .

قد يكون؛ لا هذا ولا ذاك، هي نتيجة السيولة التي تسربت إلى كل نواحي الحياة وغيرت النظرة إلى الذات والأشياء وتلك النتيجة التي تفرضها المافيات الفكرية الممسكة بزمام الثقافة السائدة في زمن المشاع الافتراضي..

هو ببساطة الاستغلال غير المحدود للفقراء العالميين من قبل الأغنياء العالميين – واختزال التقاليد المحلية لتكون بمثابة (علف) لتغذية السوق العالمية الشرهة بالضائع والثقافات – أي أن العولمة هي شكل آخر من اشكال جعل الناس في هذا الكوكب كائنات فائضة عن الحاجة وهامشية لا معنى لحياتها .

لاشك بعض القرّاء ستحثّه ذاكرته ويسعف ذاكرتنا من خلال قوله: أن مصير ماركو جاء مشابهًا لمصير (آلان ماثيسون تورينغ) الذي فك شيفرة اينغما التي استخدمها الجيش النازي وبذا كان سببًا في انهاء الحرب

العالمية الثانية وأنقذ ملايين البشر وهو الذي صنع أول أنموذج لأول حاسوب في العالم- وانتهت حياته بمأساة..

ويعتبر الإنكليزي (آلان ماثيسون تورينغ)مجموعة مواهب متحركة ..إنه عالم رياضيات وعالم كمبيوتر وعالم في المنطق وفيلسوف ومتخصص في فك الشفرات العسكرية.

وقد أرسى في وقت مبكر قواعد الخوارزميات المستخدمة في الكمبيوتر ومنصات التواصل الاجتماعي الشائعة اليوم، بل واخترع آلة أطلق عليها اسم "ماكنة تورينغ"، والتي يمكن اعتبارها نموذجاً للكمبيوتر عام الاستخدامات.

وهو فيلسوف وعالم رياضيات وكسر شفرة النازيين وصنع أول نموذج كمبيوتر. ورغم فضله على بلده بريطانيا، فقد حورب لمثليته ثم حكم عليه بالإخصاء ثم انتحر.

تلاشى صوت النوارس، ووقف وحيد الفصول عاريًا تماماً، لم يسبق لأي كائن بشري بدا أكثر جمالاً منه، كان يوحد في شخصه قوة المرأة والرجل.

وعلى حين من خط الزمن ذاك، حيث يتلكأ القلم في المسير على الورقة، عدت مجددًا إلى رأسي أبحث عن نقطة، عن مسرى، مرة إلى المحو وأخرى إلى الصحو..

ما من صوت يقطع سيل الصمت، حيث الأزهار تتنهد، هذه التأملات التي لم تكن قادرة على التعبير عنها ولو بكلمة واحدة، جعل فاطمة تتوق

كما لم يسبق لها ذلك إلى حيازة قلم وحبر.. فقد راحت الآن تتأمل في خطاياها والعيوب التي زحفت إلى حياتها الروحية .. كانت هي اللهب القدسي الذي أضاء روح كلماتها.

كانت ليلة بلا نهاية بالنسبة لمنصور، لم ينم لأنه أحس بقلبه مثقلاً من الفوضى التي فتكت به، والاستهتار والزواج الشكلي من فراشة الفيس بوك الذي حول منزله إلى زوابع مخيفة لم يعرف من أين ومتى تبدأ ولا أين تنتهي..

وكانت بالنسبة للأم فاطمة، ليلة مفعمة بالنجوم ومنيرة، يلفها صمت مطبق، وبقيت هناك على الشرفة لوقتٍ طويل دون أن تعرف سبب قلقها، ورأت أول بوادر الفجر، التي يلاحظها أولئك الذين ولدوا في الطبيعة وبقي حبلهم السرّي موصولاً مع الطبيعة الأم .

تَوَضَّأتْ بِماءِ الدَّمع و بحركةٍ تشبهُ الصلاة، وضعتْ مفتاح مملكتها الوحيد في حبل من زهور النارنج حول رقبتها بنية حفظ المفتاح من العبث والضياع ..

صاحت: أمشي إلى المتاهة، لا حروف تمنحني نفسها، لا لسان، سرقوك أيها اللسان، وأسروا شفاهي في اشتياقي إليك.. آه، لو أني استطيع الكتابة فحسب، لم يكن لديها حبر، إنّما بعض القليل من الورق، ولكن، الحب يقول لي: لا تكترثين أقدمي على هذه المجازفة .

- طالبتني الحروف الأربعة أن أجد لها مسرى، حتى لوكان كوّة في القلب، قلادة من أصداف البحر، لكن الحرب أجلته، أي شعور تحمله الكلمات " عندما يغادر معظم الجيران والأصدقاء منازلهم ويعطونك المفاتيح"..؟

أينسى القلبُ مفتاحًا لهُ من بحرِهِ مسرى؟

- ها قد صنعت فاطمة الحبر الروحاني أو ما يسمى المداد الطاهر من ماء الورد الجوري، وشعيرات قليلة من الزعفران الأصلي، وقليل من المسك الأصلي، أو ما يسمى دم الغزال ليمنحه اللون الأحمر..

فاستطاعت أن تكتب بنوع من الاختزال لتصف الأم الكبرى (سعدى) بإيجاز؛ من لم ير الظل برهانا لذاته فليس من حقه أن يلعن القدر..

"لا شيء يفسد سعادة المرء ويملأه بالغضب مثل الإحساس بأن غيره ينقص من قيمة أمر يراه هو ساميًا إلى أقصى حد .". الفكر يحذرني من النشوة، والآن في أوج نشوة الكتابة ، لاحظت ظلاً يعتم الصفحة وعلى عجل أخفيت الورقة .

فرحة لا توصف تلك التي غمرتني عندما اقتربت أنا وأمل وصرنا على بعد خطوة واحدة عن ذات المقام العالي (سعدى) ؛ كيف ما اتجهنا تحيط بنا زهور النارنج والحبق والريحان والمريمية التي فاحت رائحتها في المقام وغسلتنا من جميع الآلام .

منحتني (أمل) قوة عظيمة، لطالما وقفت مذهولة أمامها وهي تعيد لي ترتيب أحداث معينة لم ألاحظها وهي تلتقط من فمي الكلمات ثم تطرح علي سؤالاً عميقاً، لا يمكن الإجابة عليه أبداً .

بعد أن تيمّمنا بالتراب، اتجهنا للقيام بصلاة الغفران عن أبي وعن جدي وعن عائلة جدي أبو سالم، ولتصوننا من البلوى علَّ الغفران يعيد المعنى والأحوالَ ويغفر لأبي حسام وعائلته ... وضمن آنية خزفية كبيرة دعتني إلى التأمل فيما يحيط بها حيث حاولت أن أستنطق ما حولها كي أحس بجمال الأشياء واستمتع بها،.. وحملتني هذه الخزفية على المساءلة: قد يكون خزفُها فرعونياً، صينيًا، هندياً وربّما كان دمشقياً، عراقياً، فارسياً، غجرياً، اسبانياً.. لكن اقتنعت اخيرًا إن السمة الاقرب أن زخرفته أيدي عُمانية عبرت بحر العرب شرقًا وغربًا كانت بمقام الشاهد على القبر نقشت عليه:" وقوفكم عند برزخ الموت لا يفضيكم بشيء هكذا قال الحب."

كأن ما ذهب من زمن لا علاقة له بما نحن فيه الآن، ربما هو وهم ذلك كله ..حلم أو وهم .. بداية أم نهاية ؟

كانت الدهشة الكبرى عندما قرأت على ظهر الآنية المزخرفة: " (قبلتك يا أمي ماء الحياة).. ابنك ح س ا م..

الهواء معطر ببخور يوقظ في الجسد الفاني رغبة جامحة في العودة إلى الحياة للاستمتاع بكل تفاصيلها، وها هو الصمت يسمح لأنفاسي أن

تتردد، وقلبي أن يخفق، كأن البعث هو العودة إلى الحياة المثلى التي يحلم بها الإنسان .

أذناي لا تسمعان صوتي ؛ يسكنهما صوتٌ لا يهدأ إنه صوت (ورثينجتون) يقول: "سواء أُسامِح أو لا أُسامِح، فلن يؤثر هذا على سير العدالة وتحقيقها، الغفران يحدث داخل جلدي".. لا يعني التسامح أيضا أن الشخص الآخر سيغير من تصرفاته أو سلوكه أو كلماته، هو فقط سينهي قدرة الطرف الآخر على السيطرة على حياتك، ويُمكنك من تعيين حدودًا واضحة عند التعامل معه، حال استدعت الحاجة ذلك.

بمن سنلوذُ، والأشياء يشبه بعضُها بعضاً..؟

أجراسٌ تقرع خافتةً من كوّة المقام، رسالة حب مكتوبة بماء الزهر ذات توقيع مجهول جاء فيها:" الحب عين الحقيقة، والحقيقة عين الحب، فلا تحاول إثبات الحقيقة لأحد، كل شخص سيراك بعينه هو "..

وأخرى تقول؛ ابكِ يا حبيبي، البكاء صلاةُ المؤمنين بِرَبِّهِم، ابق بعيدًا أو ربما تعال أمسك بي، لا يهم ما الذي قالته جلنار أو لم تقله، فلم يكن لديها ذلك الاهتمام بما تثيره الشفاه المتباعدة، لو كانت شفاه أنثى أو شفاه رجل؛ الفكر والحياة متباعدان كما هما قطبا الأرض، وحتى تعرف الحقيقة كن على الحياد..

ماذا سيحدث إذا اختفى البشر ... وأظن أنكم ستخرجون بعده باستنتاج، أن أفضل ما يمكن أن يحدث لهذا الكوكب، هو أن يختفي البشر بالفعل من كوكب الأرض.. ولكن ما قيمة ما سيحدث بعد غياب البشر؟

قد تؤمن، إن الحب والصدق، جناحان يصفقان مع بعض أما يرحلان مع بعض أو يبقيان مع بعض في حياة الأمم والحضارات والشعوب.. امرأة المشاع الافتراضي لا تعرف الجملة الاعتراضية و ليس في قاموسها(لا ولم ولن) شفاه السليكون لا تصنع رجالاً..

لمَ النظر إلى الساعة وهي تدق على شغاف القلب، هل يتحقق للذات مبتغى السعادة ؟

الزمن يمضي، ونحن يتقدم بنا العمر، وأجلس معك وحيدةً هنا في هذه الدائرة المضاءة بنور وجهك، أنت وحيد هناك لا شريك لك، أنا هنا وحيدة يتيمة لا شريك لي، أنت رقم صعب، وأنا من السهل المنكسر..

أنت وأنا الحب الذي لا يزهر معناه إلا بين الشفاه العاشقة ؛ هنا تمسي كل النهايات لها بدايات لا يعرفها إلا الأرواح العطشى للحب.. وقد قدر للصداقة أن تشتعل منذ اللحظات الأولى، وتستمر في تماسك بنيانها إلى يوم الذي كان ..

هنا فقط، اشعر أنني كزهرة الأوركيد البيضاء والتي يقال بأنّها تُسقى بالحليب، وعصفور يغرّد أعلى شجر البلوط والسنديان، وكوردة مشكولة بين خصلات شعر عروس جميلة، وعقداً على جيد فرسٍ أصيلة، أطلّ من

خلف المعنى، أجد جذوع الأشجار دور عبادة الفقراء، إلا أنني لم أتخيل أبداً أن الحب يوماً باقة ريحان على شاهد قبر ..!

ما زالت المسافات تنتظر الإشارات خارجاً عن مقياس ريخِتر، لترسم لي شارة الحب، إنها محاولات مستمرة للبقاء على قيد الطيران؛ كما كُلّ الغارقين في البحث عمّا وراء التُّخوم – اللامتناهي، وتطلع الذات إلى معرفة أسرار اللامرئي .. لكن: إلامَ نستمرّ في لعبة المطاردة القهرية بين العقل والممكن؟

لا شك، النهاية ليست نهاية الآلام، بل هي البداية نفسها، و قد يتراءى لنا استحالة تجاوز ما غرقنا به، إلا أنَّ القدر -رغم أنه يجيء متأخراً- كان دوماً يمنحنا فرصة جديدة للاعتراف: نحن في جزء من هذا العالم وليس بمستطاعنا إلا أن ننتبه لحركية المتغيرات الفاعلة في إعادة تشكيله .

هل كنت أراود مدارج الهاربين من فوضى لا مرئية، أو كنت أتحدث عن ما كتبته جلّنار بماء الزهر ؟

- مادام الوطن هو أنت ..أخبرني لماذا كنت الشاهد السلبي على هذه المأساة..؟

- نعم أنت الشاهد الوحيد على لعنة الأم الكبرى (سعدى) التي أحلّت على العائلة، هل كنت أتكلم عن الوطن الأم، أم كنت أتحدث بلسان كل المظلومين والمهمشين والمقهورين في العالم والمحرومين من قبلة أنثى تجمع

بين شفتيها أمومة هذا الكون ..فكنت أنادي يا وحيد .. يا وحيد أنت الخلاص يا...وحيد ..؟

لا حصر للقول الحصيف؛ لستُ سوى قَدَرٍ لا أنتظرُ غيرَ الذي لا يأتي، كُلَّ لحظةٍ أقبضُ على الجمر لِتَرتدَّ رغباتي وأمضي بِلا أهلٍ مع السائرين.

أنظر من نافذتي الروحية فأرى الكون قد تنجلي حقيقته الكبرى وأرى فاطمة تدفع بعربة(الووكر) من غير أن تعرف أنها تدفع شخصاً يحمل سراً رهيباً في ظلال شجرة النارنج هو ما تفعله الآن .

ربّما نحن من نتبع أثر الظلال، ربّما هم يسيرون فوق الماء ونحن نتبع آثار خطاهم، فالماء لا يجري نحو الأعلى .

على هذا الشّكل، تهزمني مواعيدُ الحكايات وارتجاف الضوء، فتتوقف عقارب الكون ويختفي الوقت، ويختفي المكان ، فأكون آية النجاة والخلاص، لأنك العارف أنني لست هنَّ، فهنَّ العابرات وأنا قطرة من مُزْن السَّابحات..

في طقس بارد، جلستُ أتأمل الماء الذي تهيّجه الرياح في مواضع عديدة ..تذكّت البحر الذي لم أره منذ زمنٍ طويل بالرغم لا أبعد عنه سوى أمتار قليلة..

مددت عروقي منك وفيك وإليك.. باسمكَ نطمسُ ذاكرةَ الأسماء، ونمضي في طريق من الكلمات حيث الكلمة نفسها لم تعد إلا نوراً؛ لتندلعَ الدهشةُ في الأعماق، ويزهرَ النارنج من جديد ؛لكن تجاعيد الشجرة كانت تحمل

الحكمة، وكان اسمها جلّنار ..وجدائلها ترسم خيالات تداعب حركة النور والنار، وعيناها راحلتان نحو الأثير ..

تسقط أوراق غزواته هائمة بترانيم الطيور، وحيداً كما الظلّ يمشي، ينظر وحيداً من خارج خرم الإبرة، نتجادل معاً، نواصل الحب ونواصل المسير في فضائنا الموحش، فالمستحيل يصبح مرّةً فخاخاً تنصب لنا ومرَّةً اقتناص فراشة في الهواء.

لم أكن وحدي هنا، ولم أكن على معرفة بهذا بعد، لكنني أعلم أننا طائران في سماء اللانهاية، أفكارنا أوسع من الكلمات التي نعبر بها عنها، لكن هل ندرك أن الكلمات مراسٍ مرتبطة بخبراتنا الحسّية ؟

كبر أطفالنا واستقلوا بأنفسهم وتقدم بنا العمر وأصبحنا خيالاً في هذا المنزل أو ذاك الذي لن نفارقه قبل موتنا، نفكر فيهم يومياً ونشكو منهم ونترقب أخبارهم التي تنمي دائماً أطراف الأمل فينا، ويذكرني كل بريق خوف أو شفقة في عيونهم بوالدي عندما أدركته الشيخوخة وأصبح وجهاً دون ملامح و لوحة معلقة على جدار ..

أعتقد أنني بحاجة الآن إلى مكان للاختباء فيه تمام الاختباء، فالبياض يمكن لنا أن نسميه مكاناً للاختباء من قطيع الأمنيات، والتصالح مع الأوجاع، لندخلَ لذة الأشياء، ونهتديَ إلى طريقٍ جيدٍ ونمضي في ذاك الطيف الممنوع من اللمس، ونغتال السؤال بداخلنا همساً، لندركه بالشك والحدس حيث يبدأ العالم من هناك..

ونواصل الجري بعينين ممتلئتين خلف أسطر تُخفي عُقدةَ الخطيئة ونقرأ، ونقرأ ونقلّب الأوراق فلا نرسو على شكلٍ، ونعيد القراءة حتى نرى عُصارةَ الماضي على شكل ذكريات يمكن استرجاعها، و العيش فيها حاضراً بطرق معينة ..

ويمكن أن تمتزج في حبر الحاضر ، أما المستقبل فهو توقعات أو تخيلات يمكن أن تولد وأن تعاش أيضاً في الحاضر فنراه مثل الزهرة يسكن ظل الوقت.

إدارة حياتنا وحالاتنا العاطفية يحتاج منا إلى الحكمة والتوازن وهذا يمكننا من توسيع حريتنا العاطفية عبر الهروب من كوة الماضي وخبراته السلبية وصنع مستقبل أكثر إيجابية وإشراقاً .

لم يكن في وسعنا أن نصنع بيتاً زجاجياً للأموات الهاربين من لسعة النسيان، فالزمن مظهر وهمي، الحياة والأحياء والأشياء تتأثر بمضيه الوهمي، غير المرئي وغير المحسوس؛ كالأوكسجين يعايشنا في كل لحظة من حياتنا، وفي كل مكان من حركاتنا، غير أننا لا نحس به، ولا نستطيع أن نلتمسه..

أعرف بأنَّ علينا أن نموت يومًا ما، لكن، لمَ علينا أن نحيا أموات؟ ألا يحق لنا أن نموت كما نستحق ونعيش كما نحب..؟

لقد تحيرت من معنى الموت والحياة ، وصلّيت من أجل حلم يشرح لي هذا الغموض، ولكن كان ميتًا من أعطاني الجواب .

سأحمل سلة السؤال وأحاول هذه الحياة.. وسأعلن بملء الفم أن مدن الحب لا تليق سوى بالرجال الذين حافظوا على صوتهم رعدياً هادراً وصافياً مثل عين الديك ..

- أخشى أني لا أملك شيئاً أبوح به أمام هيبة الموت.

فركتُ عشب البوح بقدمي المتورمتين، صمتُ قليلاً، ثم تابعت: أنا مخطئة إن من واجبي أن أعرّف الناس ما هو اتجاه الريح وكيف لنا التمايل معها، وإذا لم تستطع أنفخ في الصخر بعض آهاتك لتحيا بك كل الجهات.

ربما كانت دعابة مرسومة بدهشة في فراغ هائل ومرّ، ثم لا شيء، وهذا ما منحنا خبرة السؤال ماذا يعني أن يموتَ الناسُ قبل الموت..؟!

حسنًا، لم أطق صبرًا، ما الذي تسبب لي بمثل هذا اليأس، فما الذي نرجو من الأخوة الغرباء؟

كان من الجيد أن نذهب إلى الموت بأعناقٍ مُحرَّرة، لأننا لا نستطيع أن نتحمل الحقيقة وحدنا، إذ ليس للقوانين فائدة وسط صحراء الحياة القاحلة، قد ترهلت أرواحنا من أثر الوقت مثل أوراق تساقطت على صفحة الماء يلهو بها الموج وهي في رحلة بحث عن المعنى.

إصرارنا على مقاومة هذه الحقيقة حَتَمَ علينا أن نقلّص أكبر قدر من السلبيات، ونوسع دائرة الإيجابيات، كي نساهم بانتشال مهج الروح من الجهل، والتخلف، والتعصب، والطائفية ونعيش الحقيقة معاً، ونمسك في

النهاية خيط الدلالة ؛ فالنظر بطرق متعددة للعالم يساعد على توسيع الرؤية وإغناء عالمنا وزيادة الخيارات المتاحة لنا .

مما لاشك فيه، مأساة معظم الطيبين هي عدم حضور الذهن وجاهزية الرد لحظة التعرض لاقتناص الفرص والهجوم .. ولعل أصحاب النوايا السيئة دائمًا عل نقطة الضعف ويفوزون فوزاً غير شرعي بمعارك قصيرة لكنها فاصلة، وباليقين موجعة .

كلمات وجدت صداها في نفسي، وتذكّرت شيئاً أخبرتني به أختي الطيبة أمل عندما كنت طفلة: " كلنا ولدنا من نفس الأم " وبعد عمر من البحث عن شفاه أمي، عرفت أن العطش إلى تلك الشفاه كان صادقًا .

آنذاك، اتسعت الرؤية و ضاقت العبارة؛ أحسستُ أن المزج بين أشياء متنافرة، يزيد من الحميمية في الكون معنى وقيمة، ويجعل اللامحسوس محسوساً ..

وهذا يعطي الحياة عنصري الغنى والتنوع لحظة التصور الضمني لمفهوم السفر في الزمن نفسه، وبغض النظر عن حقيقة الزمن فإن إدراكنا له يتغير دائماً، وإلا لن نعرف الفرق بين ما كان وما سيكون، وكيف يدخل الغابرُ في الحاضر ويمحوه، ويستوي من يدخلُ القبرَ ومن يخرج من غربته العمياء .

أتجه الآن نحو مكانٍ ما، تملّكتني نشوة غائمة تشبه فرحاً وشيك الطيران، أصحو في الهزيع، أسقط من أعلى أبراج الدهشة والفنتازيا أهوي

؛كلّ شيء يتجه نحوي سريعاً، أعرف الآن أنَّ الطريق كما هي وستعرفني وإنْ جهلتُ معالمها ..لكن لستُ أدري ومن زمنٍ بعيدٍ، لماذا أخاف أن تجلى الأحداث؟

بعد أن تصبح الكلمات كخلايا نحل هجرت، كل كلمات الحب لكم، وهذه الكلمة لي، إنني أدعها تتخلل كياني راميةً بينها وبين العالم سدًا من النسيان واللامبالاة المشروعة ..هناك أخبِّئ وجعي وأبلع لساني حتى تمرُّ العاصفة، إذ لا حقيقة على هذه الأرض سوى حقيقة الحب.

وبكل قداسة الحب عاد إليَّ الآن وأنا ما أزال أسير، بعد أن انعطفتُ ملفوفةً داخل عباءة صمتي ..

هكذا حدثت اليقظة على خيط من الماء المالح، وبدا لمعان الأشياء المصنوعة و صناديق الرؤوس المقفلة، أغشية وهمية لبكارة الحقيقة التي استراحت من تعب الوقت، وتمزقت في غفوة الملكوت.

أسمع صوت الخطوات فقط ورنين الصمت، وها هي الحواجز الفكرية عادت تنتصب أشباحاً من الغربة والتحدي فوق جميع الأرصفة .

خلا المكان إلا من عيني الضائعة، كنت أبحث عنه بجنون وأدور حول نفسي كحمامة قطع رأسها، كما تقول أختي أمل ..

كلّنا ذلك الكائن المثقل بالحزن من عالم يسوده العنف وتكسوه الرداءة، وكُلّ العشاق يتشابهون والنهايات تعيد ترتيب البدايات، أين الحب يحملني، قد أضعتُ جُلَّ العمر وأنا أبحث بين ذاتي عن بخور يشابه بخور السعادة،

يشابه فاتحة المقام، و شعرتُ بالهزيمة أمام هذه اللحظة اليتيمة، حيث كنتُ هناك أركض في آخر الحلم وحدي. بوردٍ لائق ليدين تحتضنان عطراً في الشفتين .!؟

قد أمعنَ الوقتُ يمتدُّ بيننا، وأشعلُ آخر شمعات روحي، فأطلق آخر شهقة، لنكونَ معاً شاهدةً على قبر لا يموت، ونعاينَ الأموات ككائنات حية، ونجد في النهاية بداية كلّ الأشياء، ونرى عند انبعاث الضوء وانكشاف المنتهى، النهاية شيئاً ما هناك، وبوصلةُ القلبِ تبقى تشيرُ لسربِ الحمام ..

أذكرُ أنه طلع النهار، ولم ألمس تلك الشفاه، نسيتُ وأخشى التذكّر .. لا بدّ أن أحداً سيسأل: لماذا لا أذكر شيئاً مما أراه حولي ؟

لا أرى في هذه المساءلة غير النور الذي لا يوصف الذي يحملني في الاتجاهات المتعاكسة والمتصادمة .. العبارات المستهلكة لا تكفي لوصفه وليس غريبًا إن لم تشف غليل السائل المفترض .

أخشى الحب كما أخشى النسيان فهو مقبرة الأحياء الموتى، و خفت أن نتلاقى في المنعطفات وزوايا التشكّي، وأظلُّ غريبةً عن حبٍ يكسرني ويجرِّحُ روحي، أخاف أن أفشل في التغلب على مشاعري، فأصير نداءً من صوتٍ يخدشُ خدَّ الرؤيا.

كان الطقس في حالة تجعلني لا أثق بأية توقعات، الشيء الوحيد، الذي كان يزعجني هو الخوف، وحتى ليس الخوف بحد ذاته، إنما بمعنى أن الجو

كان مخيفاً، لكنْ خوفي فقد معناه، لذلك كثيرًا ما تموت الرغبة في الخوف مثل الرغبات الأخرى.

الأمر ليس جيِّدًا أن يكون كُلُّ شيء مُلوَّثًا بالخوف، فلننعش أعناق الأزهار الذابلة بأنسام الحب، كي تبقى أرجوحة الحب أغنية العمر في الحياة والممات؛ إن لم يعد في المنتهى إلا هو .. لا أعرفُ كيف يجيءُ، وكيف يصيرُ دمعاً في عينِ يمام، أهذا الحب موجودٌ حقاً، أم يتراءى لي ؟

قلت لنفسي من دون أن أصدر صوتاً: لا أدري كيف ومتى، ومن أي ثقب دخل القلب ؟

أهو سؤال الحقيقة حقاً، أم هو سؤال العدم ؟

أهو سؤال المعرفة أم هو سؤال المجهول؟

هل لهذه السيرة من راوٍ يشتري لعنة الأنثى أو حكمةَ المعنى، أو أخيلةَ الأعمى ..؟

أدركتُ ما رمتُ إليه، أمشي ثقيلةً.. ثقيلةً، كأني على موعدٍ مع إحدى المفاجآت، لكنْ ينحدرُ بيَّ السُّؤال صعوداً نحو غوامدِ النهايات، بعد أن آثرتُ محاكاةَ فواتح البدايات.. حيث يرغب الحب بأن نكون شفاهَه، لعلّ- نستكشف - لا طريقَ للعاشقِ سوى قناطر الرماد، وأنّ الحُبَّ كالماء لا ينكسر، وكاللهب القدسي لا ينطفئ ونعترف :" للحب شفاه أخرى " ولسورية عيون لا تنام وشفاه لا تعرف إلا الحب حين ينكسر الحب..

عفوكِ يا حبيبتي، في المرآة لا وجهَ لي، عفوكِ يا سيدةُ الماء والتفاح، قد تركتكِ في البريَّةِ وحدكِ.. رفع عينيه ونظر على قمة شجرة النارنج الضخمة التي تعالت فوق الديار ثم أدار وجهه وهو يقول: "ليس في الإمكان أبدع مما كان "انتظريني لكي ألقي الوصية وينبت في مسام الإنسانية ضحكة الأطفال. ضحكت، ضحكت وهي تلملمُ الاستعارةَ والمجازَ والتورية ، وتقول وهي تنظر إليه: هذي الحربُ ليستْ حربَك، إنها حربُ الأجيال.. والنهايات يغشاها العشاق، لكنْ رغم أن الساعات تركضُ بالعشّاق إلى أقصى الجهات ..ها نحن التقينا أخيراً.. يا لأيام الخوالي الجميلة التي لا توصف حين التقت شفتانا.. !

- هذا ممكن ..!

وبنبرة حزينة ردَّ قائلاً: تديرُ القلوبَ إليكِ، فما من نبيذٍ سواكِ، كثيرة هي الأمكنة، لكن ليس كل مكان تأخذ منه متكأ... شرد تُ هنا وأتأمل التفاصيل هناك.. تغيّرت لأنّني أتحسّس كل يومٍ أشياءً جديدة، فعندما يتغيّر العاشق يتغيّر المعشوق أيضاً .

- بتُّ أظنُّ، أنَّني لوكنت أقلّ إحساساً، لكنت عاشقاً أفضل؛ افتقدنا هناك، لنكسب هنا .. من خلالكِ عرفت الطمأنينة الروحية، وجعلتني أثق بما أملك من حب ..

- تذكّري دائماً؛ القلوب الكبيرة لا تنكسر، ولا تترك للطائشين وصنّاع الخطيئة أشجار تفاحها، إذ يتحول التشهي إلى قوة عظمى، والجسد إلى برزخ، والرغبة إلى نبضٍ موصول بالقلب ..

هكذا أنتِ تسبغين على المكان أبّهة الجسد الحيّ، دون أن تضيقَ بك الرؤيا، فأنت تناظر للعبارة والرؤيا، فكلاكما إن ضاقتا وإن اتسعتا، تظلان محمولتين على سرير القلب والنبض، تجريان، وتحركان فلك الحلم والملح مثل نيزك يخترقُ الجوَّ فيحتدمُ ويضيءُ ثُمَّ يسقُطُ أحياناً شِهاباً نَيِّرًا إلى الأرض، وأحايين كثيرة نستعيره لكي ننسى شُواظَ النّهارِ...

- تُرى هل ستصمد شجرة النارنج في زمن الممنوع أمام تحدي هذا اليباب المرّ، أو يمكن أن يصبح حلمي أضيق من حكمة (ماركوس).. ؟

بيني وبينك ثقوب كانت يوماً يتيمة وقد رتقناها بخيوط الحب وأنغام القصب.. تأكدي لن أستغني عن وجودك، و أني لست الوحيد على هذه الأرض، و معكِ لن أضيع..

سنشقّ معاً درباً في الحياة..

- ابتسمت قائلة: لا تذكّرني بالذي كان بل دعني أرى ما يكون في أفعالك ..أراني أعود معك طفلةً على مراجيح الرواية، تتطاير جدائلها وتراقص النسائم كملكة لا تكسرها الأيام ولا تغتصبها عقارب الضغينة، ولا تلدغها الأفاعي المقنعة.. ملأت جراري من وشوشة شفاهك وبوح عينيك .. ودأبك في الحب، وتحيلني ضحكةً تشدو بعد رحلة سرد

وصمت رغم ارتجاف العقارب في ساعة المحيط.. وانطلاق صفارات الإنذار للاختباء من ويلات الحرب.

- السفر ممنوع هنا، وكذلك الحلم، ولكن إذا أدركتَ الحِلْمَ فأنت إنسان وأقول باسمكَ: أنا الحب ينمو مع الحب، لنمت سوياً إذا شئت.. ولنبلغ الحلم معاً، معًا نحلم، نعتقلُ السّماءَ لتُصبِحَ مجرّاتُها بين رُدُهاتِ أصابعِنا..

- يا إلهي :لم يبقَ غيرُ أصابعٍ في الحَيرة تمسك بعناقيد الشوق، لم يبقَ غيرُ ملامحي في هذا البياض، تخذلني الجهاتُ الأربعة .. سأكتب وأتحرّر من طغيان الألم، وأجعل أناي قلادة في القلب، لن أخاف الحب وبرقه ورعده.. يسندني جبل قاسيون.. وجبل الشيخ.. والزاوية واللاذقية وطرطوس ..و..و.. ليتهم يعلمون اختلافاتنا لا تشكل عائقًا في هذا الحب..

أحبس روحي بين قوسين ليخضرَّ غصنُ المدى، ويتدفَّقَ حبُّنا بالأزمان القادمة، أشتاق لذاتي العاشقة، لأغاريد جسدي المسجون والمسجَّى في حُلْكَة التقاليد، سأستولد نفسي من جديد.. تعال: لتنصهرَ أكثرَ حتى نذوب ونصبحَ نارًا ..

فارفعني إلى صوتك المشتهى، لتكونَ صلاتي هنا وأكونَ لكَ المعبدَ.. رفعت الراية ومضيت .. ومركب عمري يلهث وراء من سرقوا الطفولة من جهات القلب، واغتالوا حكايات الأصابع فوق أضرحة المنازل، وأقالوا أعناق الحمائم وهي تبخّر الحياة بقبلتين وهذا يتلاشى دوي الكلمات الأخيرة، وانتهى الحلم ..إنها النهاية، لكن هل هي النهاية ؟

كثيرًا ما كسرت نفسي كي لا ينكسر غيري ؛ لماذا تصاب روحي على آخر نفحة من الإغواء بحالٍ من القلق يشبه انكسار القلب ..؟

أحسُّ بدغدغة باردة في صدري، ودهشة غير واضحة أمام سرّ السماء المليئة بالنجوم، وأحياناً ارتعاشاً مألوفًا وتفاصيل تافهة تأصلت على نحو غامض في ذاكرتي .. هل تلحظ كما ألحظ كيف تذهب الحياة بعيدًا وإلى الأبد كطائر سريع الجناحين يمر خطفًا أمام العيون.. ؟!

انظر.. سأقذف هذا القلم إلى البحر، سأطلقه كالطائر بين الأمواج البيضاء، وأمضي على فرسٍ من الحبر كي أعود .. أنظر إليه وأدقق النظر في عاقبة الطريق، وأتطلع إلى بقايا الأمل في كأس أحلامنا التي ناءت تحت أوهام عملاقة كما ناءَ النَّجمُ في المغرب مع الفجر مع طلوعٍ آخَرَ يقابله في المشرق ..

كل ليلة يطعنني الشوق مثل مسمار ساخن في القلب، لذلك انتبه عندما تعبر من القلب إلى القلب فالحب لا ينكسر إلا إذا صادف جسمًا لا يشبهه.. هل ننجح في ترميم جرح الوطن أمام أطفال يصارعهم الموت بعيوبه على الفرح بشفاه تبحث عن الحب تحت الرّكام ..

آه .. قد أصطدم بحساسيتكَ المفرطة؛ أنت لست عادياً ولا احتياطياً ولا حرفًا زائدًا، أنت الأولوية أو العدم الذي لا يكسره إلا أنت.. هل ما أفعَلُهُ هو انتهاء أم عوْدًا على بَدْء ..؟

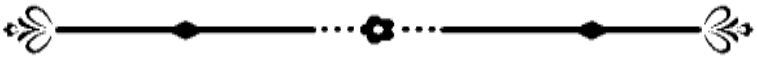

إن الدخول إلى عمق الذات صعب جدًا، ولكنَّ الأصعب منه ملامسة كنه الحقيقة، والأشد صعوبة هو الإقامة بوعيٍ رؤيويّ يطل على الذوات المشردة هنا وهناك من خلال هذه النافذة المفتوحة على خيبات وانكسارات نالت منا جميعًا، بعيد عنك لا شيء يُمكن، لا شيء يَكون.. في آخر المدى ينشق طريق في يدي، يخرج منه مصيري ويهرب منك إليك .. " حين ينكسر الحب"..؟ !

* شكرا لله تعالى الذي منح قلبي كل هذا الفيض*

محتويات الكتاب

إهداء..... 5
توطئة..... 9
الفصل الأول المنطق يشكو قوانينه..... 11
خارطة المهمشين..... 50
الفصل الثاني..... 87
الفصل الثالث..... 127
الفصل الرابع..... 138
الفصل الخامس..... 146
الفصل السادس..... 156
الفصل السابع..... 173
الفصل الثامن..... 181
الفصل التاسع..... 205
محتويات الكتاب..... 245

للتواصل مع الدار

التعاقدات

المعارض

الصفحة الرسمية

مسابقات

طلب إصدارات

الإعداد

التوزيع